علي الطنطاوي



دار الفكر الاسلامي

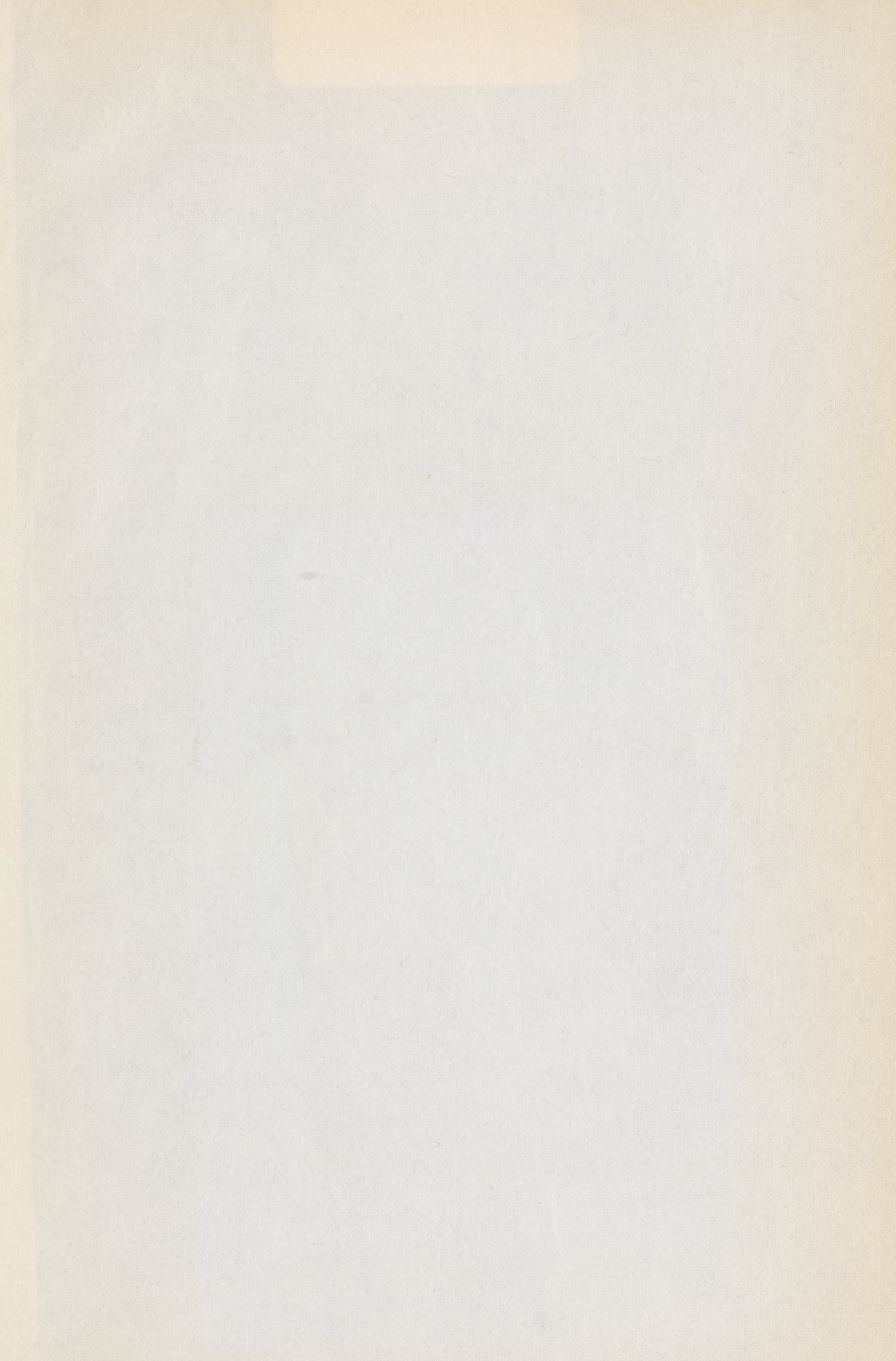
DATE	ISSUED TO
OCT 20 1960	Bindery

2276.65.334
al-Tantawi
Fi sabil al-islah

DATE	ISSUED TO
OCT 20 1960	Bindery

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 072240813



al-Ṭanṭāwī, ʿAlī

علي الطنطاوي

Fī sabīl al-iṣlāḥ

في سبيل الاصلاح

دار الفكر الاسلامي

الطبعة الأولى

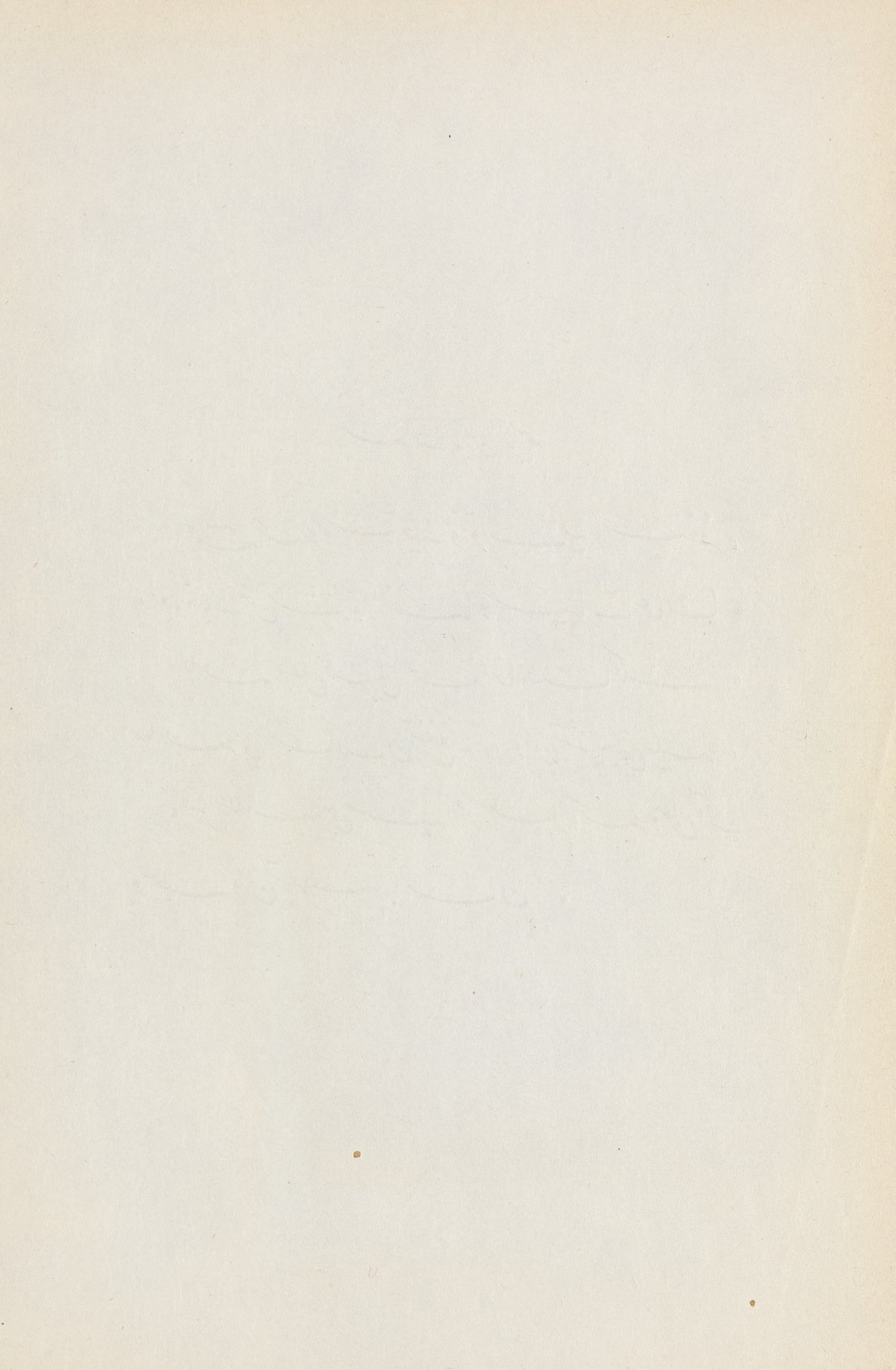
١٣٧٨ - ١٩٥٩

مطابع دار الفكر الاسلامي بدمشق

شارع خالد بن الوليد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب اليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،
اللهم اجعل عملي هذا خالصا لك ،
اللهم اني أسألك أن تنفع به ، وأن تثيبني عليه ،
وصل اللهم على سيّدنا محمد معلّم الخير وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسان .



(في غرة رجب سنة ١٣٤٨) نشرت أول كتاب لي وهو (رسائل في سبيل الاصلاح) ، وقد قلت في مقدمته أننا « إن لم نجد في عصرنا من المصلحين ، كالذين كانوا في الصدر الاول ، فلا أقل من أن نتشبه بهم ، ونسلك سبيلهم ، فنصيح بالناس بقدر ما في حناجرنا من قوة ، ندعوهم إلى الاصلاح ، وندلّهم على طريقه ، وإذا جاءت أصواتنا خافتة فضاعت في جلَبة المجتمع فلم تسمع ، فإن حسبنا أن فعلنا ما استطعنا.

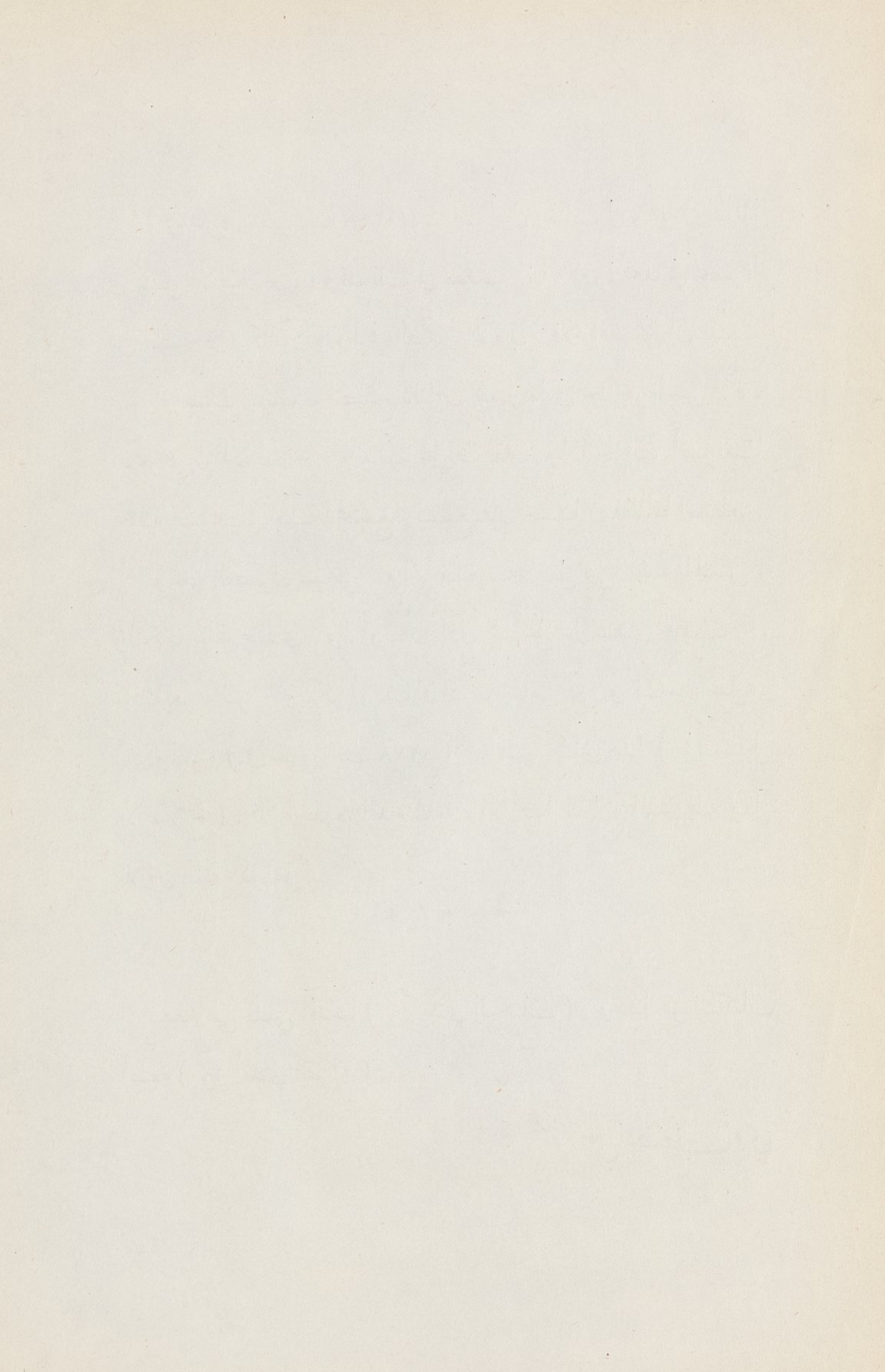
وهذه الفصول صيحتي ، وإنها لضعيفة ، بل هي أشبه بالهمس ، ولكنها غاية جهدي ، ولم أرد أن أدلّ بها على علم عندي فان كل ما قلته يعرفه القراء ، ولكن أردت أن أذكّر بها من نسي ، وأنبه من غفل » .

واليوم (في غرة رجب ١٣٧٨) ، أنشر كتابي هذا (في سبيل الاصلاح) ، فلا أجد ما أقدم له به ، الا هذا الكلام الذي قلته قبل ثلاثين سنة كوامل .

* * *

هذه هي كلمتي أقدمها (بين يدي الكتاب) ، وهذا هو الكتاب أضعه (بين أيدي القراء) .

علي الطنطاوي



أين الأقلام ؟

نشرت في مصر سنة ١٩٤٦

نحن اليوم في معركة مع الاستعمار ، قد اندلعت نارها ، وطار في كل أرض من أرض الإسلام شرارها ، فهل رأيت جيشاً في معركة يدع مدافعه فلا يطلقها ، وينسى دباباته فلا يسيّرها ، ويلقي بنادقه فلا يحملها ؟ هذا مانفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخرها في هذا النضال ، وإن من أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغِيَر ، لهذه الأقلام ؛ فما لهذه الأقلام نائمة لاتفيق ، جامدة لاتتحرك ؟ وما لبعضها لايزال يلهو ويلعب ، كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعمعة المدلهمّة التي جُنّ فيها الموت ؟ !

* * *

إنها معركة الاستعمار : استعمار البلاد بالجيوش ، والأسواق بالشركات ، والرؤوس بالمذاهب ، والقلوب بالشهوات ، فجنود العدو تخطر على أرضنا ، وشركاته تتحكم في أسواقنا ، ومذاهبه الخبيثة تملأ رؤوسنا ، وتقليده في إباحته وشهوته وسفوره وحسوره ، وتكشفه في نسائه وفي أدبه ، يفسد قلوبنا ؛ فأين تلك الأقلام تنبه القوم النيام ، وتطهر الرؤوس والقلوب ، وتحمل نور الحق لتبدد به ظلمة الباطل ؟ !

أين تلك الأقلام تعرّف هـــذا الشعب بنفسه ، وتتلو عليه أمجاد أمسه ، وتذكره أنه لم يخلق ليذل ويخنع ، وإنما خلق ليعز ويحكم ، وأن الله ما برأه من طينة العبيد ، بل سوّاه من جِذْم الصيد الأماجيد، وأنه أثبت من هؤلاء المستعمرين أصـــلا في الأرض ، وأعلى فرعـــاً في السماء ، وأكرم نفساً ، وأشرف عنصراً ، وأنقى جوهراً ، وأنهـــا إذا أفقرت الأيام الغني ، وأذلت العزيز ، فإن الفلك دوار ، والدهر دولاب ، فلا يغتر الفقير بالغنى الحادث ،ولا ييأسَ الغنيّ على اليسار الذاهب ، فإن كل شيء يعود إلى أصله ، وإن كل حال إلى زوال.

أين الفوهرر الذي نطح النجم كبرياء ؟ وأين الدوتشي ؟ فاعتبروا يافهاررة اليوم ... فمـــا أنتم بأمنع من الموت ، وما أنتم بأعصى على القدر ، وإن لهذا الكون دياناً جباراً ما شاركه أحـــد كبرياءه إلا قصمه ... ومـا أنتم حتى تشاركوا الجبار كبرياءه ؟ !

* * *

وأين تلك الأقلام تفهم الشعب أن المستعمرين ما زهدوه في قرآنه ،وصرفوه عن دينه ، وشغلوه عن تاريخه ، إلا ليسلبوه أحدّ أسلحته ، ويجردوه من أمتن أدراعه ، حتى إذا قابلوه أعزل عارياً ، هان عليهم اصطياده ، وسهل استعباده ، فكان اليهم قياده ؛وأنه آن لنا أن ننتبه لمكرهم بنا ، وأن نفيق من غفلتنا ، ولانمشي إلى الهوان بأرجلنا ، ونمكن عدونا منا بيملْكنا

وأين تلك الأقلام تعلن للناس أن هـذه القوانين الاجنبية في محاكمنـــا ، أثر من آثار الاستعمار الذي نحاربه ، وأن لنا شرعاً هو أفضل من قانونهم ، وديناً هو أحسن من نُظمهم ، وأننا نستطيع أن نأخذ القانون المدني والجزائي من ديننا وفقهنا ، وأن نحكم في محاكمنا بما أنزل ربنا ، وأن من العار علينا أن

نفتقر إلى قوانين عدونا . وما قوانينه ؟ إن كانت من فكره فلنا أفكار ، وإن كانت من تجاربه فلنا تجارب ، وإن كانت من دينه ... وأنّى ، وما في الوجود دين تستمد منه القوانين كلها إلا الإسلام ؟

فهل رأيت غنياً موسراً ، أورثه أبوه صناديق الذهب ، ثم يتكاسل عن القيام إليها ، ومعالجة قفلها ، ثم يذهب فـ (يشحد) ذليلا الملاليم والقروش من أكف أعدائه ليتبلغ بها ؟

هذا مثالنا حين نترك ديننا ونأخذ قوانين المستعمرين !

* * *

أين تلك الأقلام تقول للناس : إن الإسلام جاء يكسر الأصنام وأنتم رجعتم تعبدون أصناماً من لحم ودم ، تأكل الخبز والحلوى والذهب وورق النقد (البنكنوت) ، وتأكل كل شيء وتهضمه معدها ، أصناماً تسمونها زعماء الاحزاب تجدّون وتتعبون ليستريحوا هم ، وتَشْقَون لينعموا ، وتنخفضون ليرتفعوا ، وتدفعون إليهم ما كسبتموه بأيديكم الخشنة من العمل ، وأنتم تقبّلون أيديهم الناعمة من الكسل ، وتمنحونهم كل نعمة ، ولا يمنحونكم شيئاً . وإن من بقايا الاستعمار هذه الاحزاب التي لاتتقاتل إلا على أكل لحمكم ، وامتصاص دمكم وحكمكم ...

وهذا الاسلوب الاحمق الذي يشترط في معلم المدرسة الابتدائية وكاتب المحكمة الجزئية ، شروطاً في نفسه ودرسه ، وامتحاناً وتجربة ، ولا يشترط في الوزير شرطاً ، فكل من أراد الوزارة وسلك سبيلها نالها ، ومن نالها يوماً لصقت به (معاليها) إلى آخر أيامه .

ستقولون : وماذا نعمل وهذه سنة المتمدينين في كل بلاد الله ؟ نعم هذه سنة

المستعمرين ، ولكن في بلادهم هم علماء فلا تلقى وزيراً جاهلاً ، وان فيها شعبا يقظاً وصحافة ساهرة وانتخابات صحيحة وإدراكاً شعبياً ، أما الاحزاب ،ففي بلد واحد من بلادنا (كمصر مثلاً) أكثر مما فيها كلها ، وهل في أميركة إلا حزبان : الجمهوريون والديمقراطيون ؟ وهل في انكلترا إلا ثلاثة : الاحرار والعمال والمحافظون ؟ فكم حزباً في مصر ياأيها المصريون ؟

فإذا كرهتم الاجتهاد ، وأبيتم إلا أن تكونوا مقلدين ، فقلدوا في المذهب كله ، ودعوا التلفيق !

* * *

وأين هذه الأقلام تقول للناس : إن ثكنات قصر النيل في القاهرة ، ومطار المزة في دمشق ، ومعسكر الحبانية في العراق ، حصون العدو وقلاع المستعمر ما في ذلك خلاف [1] ، ولكن للاستعمار قلاعاً أخرى ، إن تكن أخفى فقد تكون أخطر ، وهذه القلاع هي بيوتنا التي انتشر فيها (التحرر) في الشباب والشابات ، و (التجدد) في الصلات بينهما ، فقلل الزواج وزهد فيه الشبان ، وكسّد البنات ، ونشر الأمراض ، وشغل بالهزل عن الجد ، وبالسعي للشهوة عن العمل للوطن . ولقد قلت إنها أخطر ، لان ثكنات قصر النيل قتلت عشرين مصرياً في عشرين سنة ، وهذه تقتل كل سنة مليوناً من أهل مصر ، كان يكون منهم العبقري النابغ ، والقائد البارع ، والاديب الملهم ، والعامل النافع ، ويكون منهم حماة الحمى ، ودرع الوطن ، خسرناهم

---

(١) كان ذلك يوم نشر هذا الفصل (سنة ١٩٤٦) وقد خلت كلها اليوم من المستعمر ولله الحمد .

لانصراف الشباب عن الزواج وزهدهم فيه ، ولولا هذا التحرر ، وهذا التجدد، ولو عادت بنا الايام كما كنا من خمسين سنة ، إذ لاتلقى شاباً في العشرين إلا متزوجاً ، ولا فتاة في الثامنة عشرة إلا ذات بعل ، لزادت مصر مليون إنسان في كل سنة ، أفرأيتم كيف قتل استعمار البيوت هذا المليون ؟

* * *

أين تلك الاقلام تفضح أكبر خدعة سربت إلينا ، وترد أفظع كذبة جازت علينا ، وهي دعواهم أن من الخير لنا أن نأخذ المدنية الغربية بكل ما فيها ، وأن كل ما جاء من أوربة فهو خير ورشاد ، وكل مابقي لدينا من الشرق فهو شر وفساد !

وهذا من أقبح ما خلّفه فينا الاستعمار

فأين تلك الاقلام تدل الناس على مزايانا لنحتفظ بها ، وشرور الغرب لنتجنبها ، وتقيم لهم الميزان العادل ، وتحكم فيهم الحكم السديد ، فنرتفع عن أن نكون قردة مقلدين ، ونرجع عقلاء مميزين ، يعرفون ما يأخذون وما يدعون !

* * *

وبعد ، فهذي هي المعركة ، وها هم أولاء المسلمون في كل بقاع الارض يكتبون بدمائهم على جبين الزمان أروع قصائد المجد ، وأبلغ آيات البطولة والبذل . ها هم أولاء يردون بأيديهم وبإيمانهم وبحقهم الجيوش التي لم يستطع ردها هتلر بحديده وناره . لايرونها أكبر من أن تُغلب ، ولا يرون نفوسهم أصغر من أن تَغلب . هاهي ذي المعجزات تظهر كل يوم على أيدي أتباع

محمد : في ميدان الاسماعيلية ، وفي شوارع الاسكندرية ، وفي بـلاد الشام ، وفي مدن فلسطين ، وفي الهند ، وفي جاوة ، وفي إيران ، فأين تلك الاقلام تدوّن خبرها وتخلد ذكرها ؟

أين الشعراء وأين ملاحمهم فيها ، وهناك شيء ينطق الجماد بالشعر ؟ أين القصصيون وأين ماوضعوا فيها من القصص ، وهناك قد جلس الزمان يقص من أفعال هذا الشعب أعجب الاقاصيص ؟ أين من في نفوسهم قرائح ، أفلا تفيض اليوم بالبينات هـذي القرائح ؟ أين من بين أصابعهم أقـلام ، ألا تلتهب اليوم بالحماسة هذي الاقلام ؟

أين كتاب العربية وشعراؤها وبلغاؤها ؟

ياخجلتاه غداً من كتاب التاريخ إذا جاءوا يترجمون لاديب فيقولون : لقد رأى أعظم بطولة بدت من بشر ، وشاهد أجل الاحداث التي رآهاالناس، ثم لم يكتب فيها حرفاً . لقـد شغلته عنها شواغل الايام ، ومباهج الاحلام ، وملذات الغرام !



إن هذا العلم دين

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

أنا لم أتشرف بالانتساب الى الازهر ولا الى غيره من المعاهد الشرعية ، لأني تعلمت في المدارس الأميرية من دار الحضانة الى كلية الحقوق ، ولكني نشأت من صغري بين كتب العربية والدين ، وربيت في مجالس العلم والأدب ، لأن والدي رحمه الله كان من كبار علماء دمشق ، وكانت دارنا من الدور العريقة في العلم ، فلم تكن تخلو يوماً من مراجعات أو مناقشات ، ونظر في الكتب ومقارعات بالحجج ، ومن عامة يستفتون وطلبة يقرؤون وعلماء يبحثون فلما توفي والدي [1] لزمت عالماً أزهرياً متفنناً ، فكنت أنصرف من المدرسة فأراجع دروسها على عجل ، ثم أتعشى (وكان العشاء في تلك الأيام بعد العصر) وأصلي المغرب وأمضي اليه في مسجده ، فأقعد مع الطلبة ننتظره حتى يفرغ من صلاته ، وكنا نحو الخمسين طالباً ، منا تلميذ المدرسة ومنا التاجر ومنا الموظف ومنا الشاب ومنا الكهل . وما يبتغي أحد منا بالعلم دنيا ، ما نبتغي الا العلم وحده لنعرف به الحلال من الحرام ، نرى طلبه علينا فرضاً ، وتحصيله عبادة ،

---

(١) في شعبان سنة ١٣٤٣ هـ

فكنا نجد في المطالعة لذة ، وفي الحفظ مسرة ، وفي التعب راحة ، فنطالع الدرس قبل أن نقرأه ، ونطالعه بعد أن نقرأه ، ونحقق مسائله ونحفظ شواهده ونفتش عن الشروح له والحواشي عليه ...

فاذا قضى الشيخ صلاته أقبل علينا فسلّم فرددنا عليه السلام ، لا نقوم له لأنه أدبنا بأدب الاسلام ، وليس منه هذا القيام ، ولكن تثب لمقدمه قلوبنا ، وتخشع لمحضره جوارحنا ، وتنبض بحبه وإجلاله كل ذرّة فينا ، فيقعد ونحن من حوله ، فيسمي الله ويحمده ويشرع في درس النحو ، فيقرأ المعيد ويشرح هو ،ويقيم أحدنا الى لوح أسود كالذي يكون في المدارس ، فيملي عليه الشاهد ليوضح عليه القاعدة الجديدة ويذكر بالقواعد القديمة ، وكان أحب شيء اليه أن نستعيده ونستوضحه ونناقشه ، فيعيد ويوضح ويجيب باسم الثغر ، طلق المحيا ، مشرق الشيبة محبوباً مهيباً ، فيملك بخلقه قلوبنا ، وبعلمه عقولنا ، ثم يختم الدرس بحمد الله كما بدأه بحمد الله ، ويؤذن المؤذن فنقوم الى الصلاة ، فنرى السكينة قد حفّت المجلس ، والرحمة قد نزلت عليه ، ونحس بالملائكة قد حضرته ، ويؤمنا الشيخ فيقرأ قراءة إخال من روعتها كأن القرآن قد هبط به الوحي آنفاً ، ولقد سمعت قراء أحلى صوتاً ، وأصح نغماً ، فما سمعت مثلها أبداً . فاذا قضيت الصلاة قعدنا نذكر الله بقلوب حاضرة ، وألسنة رطبة ، وجوارح خاشعة ، ثم من شاء منا قبل يد الشيخ (ولا يكاد يسمح بتقبيلها) وانصرف ، ومن شاء بقي يستمع الى حديث الشيخ ، وكان حديثه أعذب في آذاننا من همسات الحب ، وأشجى من عبقريات الأغاني ، ثم ينظر الشيخ فيقول : إن فلاناً لم يحضر وقد بلغني أنه مريض ، فعودوه وساعدوه .فنسرع اليه نعوده ونؤنسه ونأتيه بالطبيب وبالدواء . وإن فلاناً في ضيق فأعينوه ، فنسد خلته ونفرج ضيقته . وربما استبقى الواحد منا ، فانفرد به فنصحه ووعظه

أو أنـَّبه على زيّ (لا يليق بطالب العلم) اتخـَذَه ، أو محل (لا يحسن به) حَلـَّه ، أو صاحب (لا يدلـّه على الله) صاحـَبَه ، فيبلغ منا تأنيبه مالا يبلغه السيف ، وندع ما كرهه ولا نعود إليه ، ثم ننصرف جميعاً الى بيوتنا : الكبار الى زوجاتهم وأولادهم والصغار الى أمهاتهم وأخواتهم ، ننام من أذان العشاء على فرش التوبة والاستغفار ، ثم نقوم في بواكر الاسحار ، عندما يفيق الديك والمؤذن والنور ، فنتوضأ فنطهر بالماء أجسادنا ، ونصلي فنطهر بالصلاة أرواحنا ، ثم نمضي الى المسجد فنؤدي الغداة مع الجماعة ، ثم نجلس في حلقة الشيخ ، لنقرأ عليه الفقه والحديث والتفسير في الصباح ، كما قرأنا النحو أولا والبلاغة ثانياً في المساء وكما يقرأ عليه غيرنا غير هذا وذاك النهار كله ، فلا تلقى في حياة الشيخ إلا العلم والدرس ، والمراجعة والبحث ، يتخللها وعظُهُ العامةَ[1] ، وتوجيهُهُ الناسَ ، فهو المرجع في كل شيء : في الانتخابات يسألونه في أمرهم بأهل الدين والورع من أي حزب كانوا ، وفي الخصومات يرفعونها اليه ، فيزيلها بالصلح ، أو يفصلها بالحق ، وفي الاحداث كلها يبين فيها حكم الله . وكان كل نائب أو وزير يؤم داره خاشعاً متواضعاً كأنه يمشي الى حرم ، فيريه عزة العلم ، وجلال الحق ، ولطف المؤمن ، وتواضع العظيم ، ويعظه ويأمره وينهاه ، ولا يرزؤه شيئاً من دنياه . وكان أيام الثورات على الفرنسيين من الدعاة الى الجهاد ، أرهبه الفرنسيون فلم يخف ، ورغّبوه فلم يطمع ، وأزعجوه فما لان ، فتركوه لم يجرؤوا عليه ودونه أهل البلد يفدّونه بأنفسهم وأهليهم .

أما الدنيا فلم يكن يسأل عنها أقبلت أو أدبرت ، ولم يكن يفكر فيها

---

(١) العامة هنا منصوبة على المفعولية للمصدر (وعظه) ومثلها الناس .

ضاقت أو اتسعت ، فإن حضره الطعام حلالا أكل ، وإن دعاه محب أو فقير أجاب، وإن أهدى اليه قبل ، فان كانت الدعوة أو الهديّة من فاسق أو متكبر أبى . يلبس ما وجد فربما كانت عليه الجبة من الجوخ الثمين فمر به فقير مقرور فدفعها اليه ، ولبس عباءة مرقعة ، أو خرج بالإزار وحده . تدخل الدنيا داره فيكون كأنعم الناس ، ويدخل المال كيسه فيكون كأغنى الناس، ثم يضيق ويفتقر ، فيتنكر ويقصد القرى فيشتغل فيها بالطين واللبن ، ويعود بما كسبه من كدّ يده ، لا يطغى في الاولى ولا يقنط في الثانية ، ولا يذيق قلبه حلاوة الدنيا ، فيلين لأبنائها حرصاً عليها ، وخوفاً من زوالها .

وكنا نخرج معه كل ثلاثاء (وهو يوم الراحة عند العلماء) الى القرى والأرباض ، فاذا جاوزنا رحبة دمشق ، قال : قد وضعنا المشيخة هنا ، ونحن من الآن إخوان . فنمازحه ويمازحنا ونغني أمامه ونثب ونلعب ، ونسبح ونركب الخيل ونصطاد ، وكان يرغبنا في السباحة والفروسية والرمي ، وسائر أنواع الرياضة ، لأن ذلك من سنة الاسلام ، ويود أن يكون معنا فيه ولكن السن تمنعه والضعف والكبر ، ثم نعود من الغد الى الدرس ، ونحن أصفى الناس ذهناً ، وأطيبهم نفساً ، وأشدهم نشاطاً .

* * *

ولازمت من بعده مشايخ كثيرين كانت حالهم كحال الشيخ أو قريباً منها ، وكانت حياتهم علماً وعملا ، ومنطقاً وخلقاً ، وكانوا كلهم يحدثوننا عن الازهر وما فيه ، حتى حبّب الينا الازهر القديم من أحاديثهم ، وتخيلناه جنة الروح ، ونعيم القلب ، وتوهمنا أن ما رأيناه من أحوال مشايخنا وردة من تلك الجنة ، وطرف من ذلك النعيم ، وبتنا نتشوق الى الازهر ، ونتمنى أن نزور

مصر لنراه ، فلما قدمت مصر سنة ١٩٢٨ رأيت الأزهر قد تغير عما وصفوه لنا ، وحال عن حاله التي حدثونا عنها ، فتركته ودخلت دار العلوم العليا [١] . ثم لما عدت سنة ١٩٤٥ ، لم أجد الازهر وإنما وجدت مسجداً خالياً ، وكليات تنتسب اليه ليست الا مدارس كما عرفنا من المدارس ، فبكيته لما فقدته ، وحننت اليه ، لا الى سراج الزيت ، وحصير الرواق ، بل الى ذاك التقى وتلك الاخلاق . بكيت فيه شيخي ، وبكيت فيه عهد الشيخ الذي مضى عليه اليوم أكثر من ربع قرن ، ولا تزال ذكراه غذاء لروحي ، وفرحة لقلبي ، وأنَسة لي في وحشة الحياة ، أفكر فيه كما يفكر العاشق المهجور في ليالي الوصال ، والسجين في أيام الحرية ، والمفلس في زمان الغنى ، بل إنه لأحب اليّ من عهود الحب ، وليالي الوصال ، لأن فيه حلاوة الإيمان وما فيها الا لذة الهوى ، ولأن ذكراه ذخري الذي لا يفنى ، ومفزعي كلما دهمتني خطوب هذه الحياة المادية التي تختنق فيها الروح ، ومَعين اليقين لي في بوادي الشكوك .

* * *

رحمة الله على أولئك المشايخ الذين كانوا ينابيع العلم ، ومنارات الهدى ، وأئمة الخير . وما كل المشايخ الاولين كانت لهم هذه الخلال ، وما كل علماء اليوم تجردوا عنها ، ولكن الاعمال بالنيات ، والامور بالمقاصد ، وأولئك كانوا يقصدون العلم والدين ، فكان الاصل أن يكونوا أهل علم ودين إلا من شذ منهم ، والكمال لله وحده ، وهؤلاء الطلاب يقصدون الشهادة والمنصب فكان الاصل أن يكونوا أصحاب منصب وشهادة إلا من شذ منهم والخير لا ينقطع في هذه الأمة الى يوم القيامة .

وما أنا بالمحامي عن عهد بذاته ، ولا عن أشخاص بأعيانهم ، لكنما أدافع

(١) ولم اكمل الدراسة فيها وكنت أول طالب من سورية دخل مدارس مصر العالية .

عن تقوى العالم وأمانة العلم ،والعلم اذا لم يكن معه أمانة كان الجهل خيراً منه ، كالطبيب الفاجر ، يغش المريض ويماطل في العلاج ، ابتغاء دوام الحاجة اليه ، وتدفق المال عليه ، بل ربما بالغ في الفجور فلم يمنعه علمه (إن لم يكن أميناً) أن يقتل المريض بالسم ، بدلا من شفائه بالدواء .

* * *

إن نبينا ﷺ علمنا أن هذا العلم دين ، وأمرنا أن ننظر عمّن نأخذ ديننا ، ونحن لا نستطيع أن نأخذ العلم إلا عن رجل نثق بدينه كما نثق بعلمه ، ونطمئن الى إيمانه كما نطمئن الى منطقه ، فان لم يكن الا العلم والمنطق ، لم ينفعاه عند الله شيئاً .

وأنا لا أقيس الازهر على الجامعات ، فالجامعات فيها العلم والفن ، وفيها الكفر والإلحاد ، لا يمنع منه عندهم أنه كفر مادام يسمى باسم الفلسفة أو العلم ، ذلك لان أسلوب الجامعات أسلوب عقلي لا يبالي بالدين ، ولا يتقيد بالوحي ؛ وديننا لايعارض قضايا العقل المسلَّمة وأحكامه الثابتة ، ولا ينافيها ، ولكن أين هذه القضايا ؟ وهل يكون منها كل حكم يوصل الباحث اليه عقله ؟ ففيم إذن تختلف العقول ، ويتناظر الفحول ؟ أفنبني ديننا على آراء الرجال فكلما جاء واحد منهم ببدعة في الدين قلدناه فيها ، وأقمناه بيننا وبين ربنا ، وجعلنا ماجاء به من شرعنا ؟ ومن يكون إمامنا في ديننا اذا لم يبق في الازهر أئمة دين ؟

ألا يكون ذلك تحقيقاً للحديث ، ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام إذ قال : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاًمن صدور العلماء ، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس أئمة جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ؟

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ، والكفر بعد الإيمان !

* * *

ألا إن ديننا يقوم على أدلة معروفة هي الكتاب والسنة الثابتة ، والاجماع الصحيح والقياس الجلي ، لا عمل للعقل فيها ، إلا الاستنباط والاجتهاد ، على (الأصول) المعروفة ، والسبيل المسلوكة ، واتباع البيضاء النقية ، والاقتداء بالسلف الصالح ، فان جاوز هذا الحد ، لم يجز لمسلم ان يعوّل في دينه عليه ، او يرجع في الحكم اليه .

ونحن نريد علماء من أمثال هذا الشيخ رحمه الله ، يعلمون ويعملون ، ويتبعون ولا يبتدعون ، ويتقون الله سراً وعلناً ، ويحكمون الشرع في خاصة نفوسهم وعامة أمورهم ، لا تذلهم الدنيا ، ولا يفسدهم الفقر ، ولا يطغيهم الغنى ، فان كانوا كذلك كان سواء لديّ ان يخرّجهم أساتذة الجامعات ، او وعاظ الجوامع ، وليكونوا بعدُ فلاسفة فالاسلام لا يعادي الفلسفة ما لم تكن كفراً ، وليكونوا باحثين فالاسلام يحب البحث ، وليكونوا مجددين بالاجتهاد في الفروع ما داموا متبعين في أصول الدين . وليجلسوا على البساط او على الطنافس ، وليقرؤوا على السراج او على الكهرباء ، وليسكنوا الاكواخ او القصور ، ولينقطعوا الى العلم او ليكونوا أصحاب المناصب وأعضاء المجالس وأولياء الامر .

* * *

ولكن هل ينتظر ان تخرج هذه الجامعة الازهرية أمثال أولئك العلماء ؟

هذه هي المسألة !

وانا لا أحب ان أجيب عنها ، لاني إن أجبت قلت مرّة ثانية :

« ردّوا علينا الجامع الأزهر ، لا نريد هذه الجامعة الأزهرية ! » .

بطون جائعة وأموال ضائعة

نشرت سنة ١٩٤٦

ولد لي في هذا الاسبوع مولود جديد ، فأهدي إلى أمّه أكثر من عشرين علبة (شكلاطة) ، من هذه العلب التي جدّت في دمشق ، وصارت (موضة) الوقت ، كل علبة منها لعبة كبيرة بأشكال وألوان ، ماعرفناها قبل الآن ، منها ما هو على صورة طيارة بأجنحتها وذنبها ومحركاتها ودواليبها ، ومنها ما هو على شكل عربة بخيولها ولجمها وسائقها ، كل ذلك مصوّر مشكّل دقيق الصنعة ؛ ومنها ماهو على هيئة سرير فيه فراش ووسادة من الحرير ، وفي كل منها قبضة من السكر والشكلاطة وهي ملفوفة بالورق الصقيل الشفاف ، معقود عليها شريط من خالص القزّ ، لا يقلّ ثمن إحداها عن عشرين ليرة سورية . فلما ذهبنا نفتحها تقطع الشريط وتمزّق الورق . ثم تسلمها منا أولاد الدار ، وأبناء الضيوف ، لانها لعب خلقت لهم لا للكبار ، فلم تكن إلا أيام حتى تكسرت في أيديهم ، وكيف لا تتكسر وهي مصنوعة من قطع الخشب الملون ، لا تحتمل صدمة ولا نقرة ، وعادت حطباً انتهى به الطريق إلى المدفأة ، فاحترقت أربعمائة ليرة كان يمكن أن يشترى بها من (خبز البلدية) عشرون ألف رغيف [١] ، ومن

---

(١) ذلك لان البلدية في دمشق كانت تبيع الخبز للفقراء في تلك الايام كل كيلو بعشرة قروش ، فالطن منه بمائة ليرة فقط

الثياب النسائية المستعملة (التي توزعها وزارة التموين) أربعمائة ثوب ، ويمكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال . هـذا وأنا رجل معتزل الناس لا أديم مواصلتهم ، ولا أؤدي حقوقهم ، خارج عـلى مواضعاتهم ، ثائر على عاداتهم ، لاأصنع إلا ما أجده نافعاً معقولاً ، ولي من جرأة جناني ، ومضاء لساني عاصم من لومهم وتعنيفهم ، وهـــذا هو المولود الثالث لا الاول ، فكيف تكون الحال لو كنت من الاثرياء الذين يخـــالطون الناس ، ويقومون بحقوقهم ؟ وكيف لو كان المولود صبياً بكراً ؟

ففكروا كم ننفق من الاموال في أشياء لا يأتي منها خير ، وما في تركها ضرر ، ونحن نشكو الفقر والمرض والجهل ؟

أعرف رجـــلاً تزوج فأهدي إليه يوم زفافـــه ، من أصدقائه وصديقاته وأقربائه وقريباته ، مائة وستعشرة باقة زهر ، ثمـــن أدناها خمس ليرات ، وقد يبلغ ثمن أعـــلاها العشرين ، فحار أولاً أين يضعهـــا ، ومن أين يأتي لها بالكؤوس والأواني ، ثم بدا له فجعلها حول سرير العروسين ، فـكان لها منظر رائع خلاب ، ثم مرت الايام ففسدت وجفت فاستأجر رجـــلاً يحملها ليلقيها في إحدى المزابل !

ألف ليرة تلقى على مزبلة ، ونصف الامة يتضوّر جوعاً !

وأعرف آخر من التجار أبى له سفهه وتبـــذيره و كفره بنعم الله إلا أن يوزع السكر على نحو خمسمائة مدعوّ لحضور عقـــد ولده في علب من الفضة في كل منها صحن من البلور ، لاأدري من أين جاء بها فما في بلدنا منها ، قالوا ، إن ثمن الواحدة منها خمس عشرة ليرة ، فهذه سبعة آلاف وخمسمائة لـــيرة ، دون باقي المصروفات ، في الفرش والزينة والثياب . وإن من نساء هؤلاء النفر من

التجار الفجار الاشرار [1] من تشتري المعطف الواحد بألف ليرة ، وإذا لم تصدقوا فاسألوا تجار الفرو !

والتبذير في أتراح هؤلاء الاغنياء لايقل عنه في أفراحهم ، فلا تخرج جنازة أحدهم حتى يمشي معها رجال المولوية بقلانسهم التي تشبه علب اللبن ، وثيابهم التي تحكي إذا داروا المخاريط الناقصة التي وصفوها لنا في درس الهندسة أيام المدرسة [2] ، ولا يمشون حتى يقبض شيخهم الرسم المقرر ، خمسمائة ليرة . وأمام الجنازة الآس والحناء ، وبعدها حفلة (التنزيلة) ، ثم (الصباحية) و (العصرية) وللنساء فيها كسوة خاصة تشترى من أجلها ، فلا يصل الميت إلى القبر حتى ينفق عليه إن كان من الموسرين خمسة آلاف ليرة ،ماأنفق قرش واحد منها في طاعة الله !

وإن حول كل دار من هذه الدور التي تهدر فيها الاموال لمَساكن فيها ناس مثلنا ، من بني آدم ، من إخواننا في الدين وفي الوطن وفي اللسان ، يشتهون عشر معشارها ،او أقلّ منه، ليشتروا به طعاماً يملأ بطون أولادهم ، وثياباً تستر أجسادهم ، وإن لهؤلاء الناس (لو عرف الاغنياء !) عيوناً تنظر كعيوننا، وقلوباً تتألم كقلوبنا ، ولهم بنون وبنات هم قطع أكبادهم، وهم (على هلهلة ثيابهم ووساخة أبدانهم) أحبّةٌ إليهم أعزة عليهم كعزة أولادنا علينا ، وربما كانوا أزكى من أولادنا نفوساً وأطهر ، وأذكى عقولا وأمهر، وكانوا أرضى لله وأنفع للوطن منا ، ولكن الفقر عطل قرائحهم ، وكفّ أيديهم ، وكبل أرجلهم . إن هؤلاء وان لم يكن في أعراسهم طاقات الزهر،

---

(١) وهم بحمد الله قلة ، وجمهرة التجار في الشام من المزكين المحسنين

(٢) انقرضت الطريقة المولوية الآن من دمشق ، وقد كانت بدعة من شر البدع

ولم يكن في جنائزهم مولوية ولا آس ، ولم يعرفوا طريق المدارس والملاهي ، ولم يزهوا بغالي الثياب ، ولم يتمددوا على أرائك السيارات ، ولم يعرفوا المشيخة التي يأكلون بها الدنيا بالدين ، ولا الزعامة التي يجمعون بها المال بالوطنية ، إنهم هم عماد هذا الوطن ، وهم جمهرة أهله ، هم يزرعون القمح ويقدمونه إلينا ثم يعيشون على الذرة والشعير ، وهم يبنون لنا القصور ثم يقيمون في الاكواخ مع البقر والحمير ، وهم يصنعون بأيديهم (الشكلاطة) التي لايذوقونها ، ويحيكون الثياب التي لايلبسونها ، وهم يسهرون في الطرقات ليحرسونا ونحن نيام ، وهم يمشون الى الميادين ليدافعوا عن أوطاننا ونحن آمنون ، وهم قد دفعوا ثمن الاستقلال مهجهم وأرواحهم ، ثم لم يأخذوا من خيراته شيئاً .

ان هؤلاء هم ركن الوطن وعماده ، وهم أهله وقطانه ، فحرام علينا أن ننساهم ونهملهم ! حرام ان تبقى هذه الأموال ضائعة ، وهذه البطون جائعة ! حرام في دين الله ، وفي شرعة الانسانية ، وفي قانون الشرف ! فأين المصلحون؟ اين المصلحون ؟ أين رجال الجمعيات ؟ أين أرباب الأقلام ؟

لقد كنت أصْفَح (أعداداً) عتيقة من مجلة الهلال ، فوجدت في (عدد) منها أن في بلاد السويد جمعية اسمها (جمعية أمناء الأزهار) عملُها جمعُ الاموال التي يشتري بها أهل الميت وأصدقاؤه طاقات الزهور التي تحمل مع الجنازة ثم توضع على القبر ، وإنفاقها في بناء مساكن صحية للعمال والفقراء ، يسكنون فيها بأجر يسير ، وأنها أنشأت (إلى تاريخ ذلك الخبر) نحواً من الف مسكن .

فلماذا لايكون فينا رجال مثل رجال هذه الجمعية ، يأخذون المال من هنا ، فيضعونه هناك ، فيصلحون به أخلاق الأمة بانقاذها من داء التبذير

والاثرة والمفاخرة بالباطل ، ويدفعون عن أغنيائهـا حسد فقرائها وبغضاءهم ، ويعودون عليها بالخير لها في أجسادها وعقولها وصناعاتها وحضارتها إذ ينفقون هذا المال فيما هو أولى به من وجوه الاصلاح ؟

لماذا نأخذ عن الاوربيين السم وندع الترياق ؟

كم ينفق في الشام ومصر والعراق وسائر بلدان هذا الشرق الإسلامي في الزفاف وحفلاته ، والمـأتم وملحقاته ، والاعيـاد والمواسم وايام الولادة والختان ، فيما لاينفع أحداً البتة ، ولا يعود عليه بعائدة ، ولا تناله منه فائدة؟

حتام تهدر الاموال ويراق الذهب ، اتباعاً لعادات قبيحة وتقليداً كتقليد القردة ، وجمهور هذا الشعب يشكو الفقر والمرض والجهل ؟

هل تذهب بشاشة العيد ويمّحى رواؤه ، لو اصطلح الناس فيه على تقديم السكر الملبّس الوطني بدلاً من الشكولاطة وصرفوا فرق الاثمـان في بناء مدرسة أو مستشفى في كل بلد ؟

هل يبطل أنس العرس ، وتضيـع بهجته إذا لم يكن فيه الا طاقتان من الزهر ؟

هل يكتب على العروسين الشقاء الدائم إذا وزعت الحلوى على المدعوّين في قراطيس بدلاً من العلب ؟

هل يحرم الميت التقي من نعيم الجنة ، ويضاعف على الشقي العذاب إذا لم يمش في جنازته رجال الطريقة المولوية التي لايقول بهـا عقل ولا نقل ، ولا يقرّها شرع ولا طبع ؟

فالى متى نضيع أموالاً نحن اليوم أحوج إليهـا من كل يوم مضى لاننا في عهد تجديد وبنيان ، ولاننا في أول طريق الاستقلال ؟

فيا أيها الاغنياء لاتغتروا فان النعم لاتدوم ، وإن مع اليوم غدا ، وإن بعد الحياة موتاً ، وإن بعد الموت لحساباً عسيراً ، أمـام رب الارباب الذي خلقكم وخلق الفقراء من طينة واحـدة ، لم يخلقهم من التراب ويخلقكم من الاسمنت المسلح ، ولم يميزكم عنهم الا بمال أعاركموه ليكون محنة لكم وليطول عليه حسابكم .

ويا أيها المصلحون هذا باب من أوسع أبواب الاصـلاح فلجوه بارك الله فيكم إن فعلتم ، وأيّدكم .

ويارب منك أنت التوفيق ، فأعـط المخلصين مقدرة ، وأعـط القادرين إخلاصاً ، فاننا نشكو اليك شكاة عمر : ضعف التقي وفجور القويّ !



مستقبل الأدب

نشرت سنة ١٩٤٧

تزدحم المساجد قبيل الامتحان بجماعات الطلاب ، يتحلقون فيها حلقاً ، يطالعون ويقرؤون ، وقد مررت مرة بحلقة فيها نفر فهمت من كلامهم أنهم من طلبة العربية والأدب ، في المدارس العالية ، فقعدت قريباً منهم أستمع اليهم ، وكان واحد منهم يقرأ في كتاب ، فما رأيته سلمتْ له خمسةُ أسطر متتابعات ، وما مرّ على خمسة أسطر الا رفع فيها منخفضاً ، وخفض مرتفعاً وحرف الكلم عن مواضعها ، وأزالها عن منازلها ، ولم يدع لغوياً ولا نحوياً ولا عالماً بالعربيــة من لَدُنْ أبي عمرو الى الاشموني ، الا نبش قبره وبعثر عظمه ، ولعن بجهله أباه وأمه ، أما الطلاب الحاضرون فكان منهم من يتنبه لِلّحنة الظاهرة ، فيردّه عنها ، ويغفل عن الخفية ، وسائرهم [1] في عمى عن ظاهرها وخفيها ، ودقيقها وجليلها ، فضاق صدري ، حتى خفت أن يتفجر بغضبة للعربية ، لا أدري ما عاقبتها فحملت نعلي وخرجت هارباً أسعى .

وذهبت فسألت المدرسين فعلمت أن هذا القارىء ليس بدعاً في الطلاب وليس المتفرد في هذه (العبقرية) في الجهل ، وهذا (التبريز ...) فيه ، وإنما

---

(١) سائرهم أي باقيهم .

هو النموذج الصادق لأكثر طلاب المدارس في هذه الايام ، واجتمعت بعد ذلك بكثير من طلاب المدارس العالية ، فما كدت أجد في أكثرهم من يشبه أو يداني أصحابنا يوم كنا في أوائل الدراسة الثانوية ، لا أقول هذا فخراً بأصحابنا ، ولكن تذكرة لهؤلاء ، وحثاً على الجد في طلب العلم ، وبياناً لما هبطوا اليه ، وما رضوه لأنفسهم من ترك العلم اعتماداً على شهادات ينالونها ، أو كراسيّ يركبونها ، أو وظائف [1] يقبضونها ، حتى صارت الشكوى من الضعف في العربية عامة في مصر والشام والعراق ، وحتى صار من أبواب التسلية للأدباء ، أن يفكروا في (تيسير) تعلم العربية ، بقلب قواعدها وتنكيس أوضاعها ، وابتداع البدع في نحوها وصرفها ، أو بهدم بنيانها ، وصرم نظامها ، بـ (تسكين أواخر كلماتها) ، و (ترك إعرابها) ، أو بنسفها من أساسها ، وقلعها من جذورها ، باستعمال الحروف اللاتينية أولا ، والكلمات العامية ثانياً ، وما لا يعرفه إلا الله ثالثاً . وما الى شيء من ذلك حاجة ، ولا له فائدة ، وما باللغة تعسير حتى نبتغي لها أوجه التيسير ، ولكنْ في العزائم خور ، وفي الهمم ضعف ، وفي الشباب انصراف عن العلم !

هذه هي الحقيقة ، وإلا فهل صلحت اللغة برسمها [2] وعلومها هذه القرون الاربعة عشر ، وصبرت على حكم الاتراك أولا ثم الفرس ، ثم المغول ، ثم المماليك العبيد ، ثم الاتراك أخيراً ، ورأت عصور الانحطاط ، وعهود التخلف وكانت في كل ذلك طاهرة ظافرة ، حتى لم يخل عصر من مؤلفين في النحو والصرف والبلاغة والأدب ، وحتى وضع القاموس أشهر معاجمنا في عهد العثمانيين ، وألف شرحه الجليل بعد الالف للهجرة ، وحتى كان طلبة العلم في الدهور كلها عاكفين على النحو والصرف والبلاغة ، إن لم ينالوا ثمرتها فقد حفظوا

---

(١) الوظائف الرواتب .

(٢) أي خطها وكتابتها .

قواعدها ، وإن لم يحصلوا سليقة العرب ، فقد أحاطوا بعلوم الادب . هل صلحت اللغة في هذه القرون وبدا الآن فسادها ؟ وهل استسهلها الفرس والروم والاتراك والهنود حتى ظهر منهم علماء أجلاء فيها ، ولم تصعب إلا على أبناء العرب الاقحاح ، بعد ما طلع فجر النهضة ، وبدا النور ؟ وما لشبابنا وحدهم دون شباب العرب في كل العصور ، هم الذين عجزوا عن تعلمها والتمكن منها ؟ أهم أقلّ ذكاء ، وأضعف عقلاً ، منهم جميعاً ومنا لما كنا في مثل أسنانهم قبل عشرين سنة ؟ لا ، بل هم أذكى منا ، ووسائل التعلم في هذه الايام أكثر ، وطريقته أسهل ، وربّ بحث كنا نتصيد مسائله من متفرقات الكتب يرى الآن مجموعاً في كتاب واحد ، ينادي : من يقرأ فيّ ؟ فما لهم يستصعبون العربية ؟

وهل العربية أصعب عليهم من الكيمياء والجبر والهندسة ، وهذه الألسن التي يزحم بعضها في رأس الطالب بعضاً من تعددها وما لا كثرها من فائدة تلمس ، أو عائدة تحس : اللاتينية[1] التي أخذناها تقليداً بلا علم ، والسريانية والعبرية والفارسية والتركية ، ثم الفرنسية والانكليزية وما لست أدري ماذا أيضاً ؟ أهذه العلوم وهذه الألسن كلها سهلة جميلة ، كأنها قصة من قصص الغرام ، يشربها الطالب مع الماء ، ويأكلها مع الحلوى ، والصعوبة كلها في العربية ؟

وإذا كانت هذه العلوم وهذه الألسن صعبة كلها فما هو السهل الذي يذهب الطالب الى المدرسة ليتعلمه ؟ ولماذا نفتح المدارس ونرهق الامة بنفقاتها ، ونحمل خريجيها على أعناق الناس حملا ، بما حصلوا من العلم ، وما نالوا من الشهادة ؟

لا ، ليس في العربية صعوبة ، ولا في كتابتها وعلومها تعسير ، هذه ضلالة

(١) كتبت هذه المقالة في مصر

يجب ان ينتهي حديثها ، وان لانعود الى اضاعة الوقت ، وإفساد النشء ، في الكلام فيها . ويجب ان نحببها الى الطلاب ، ونرغبهم في مطالعة كتبها ، حتى يألفوها ، ويسهل عليهم فهمها ، ولقد كنا في المدارس الابتدائية نقرأ الكتب العلمية الكبيرة حتى إني قرأت (حياة الحيوان للدميري) ـ وقد وقع في يدي اتفاقاً ـ قبل ان آخذ شهادتها ، وقرأت (الاغاني) كله ـ متخطياً أسناده ، وما لا أفهم منه ـ في صيف السنة الثانوية الاولى ، وكنا يومئذ نحسن المراجعة في الخضري وفي المغني ، وكان فينا من ينظم ويكتب ، وعندي مقالات كتبتها في تلك الايام ، قد لا ترضيني أفكارها ولكن أسلوبها يرضيني اليوم .

وكنا نختلف الى بعض العلماء ، نسمع دروسهم العامة في المساجد ، ودروسهم الخاصة في البيوت فما أكملنا الدراسة الثانوية حتى قرأنا مع علومها ، النحو على المشايخ والبلاغة والفقه والاصول والحديث ، وحضرنا كتباً في التفسير والكلام والتصوف ، وعرفنا عشرات من أمّات[1] كتب العلم ، قرأنا فيها او تصفحناها او رجعنا اليها ، وحفظنا أسماء مئات من أعلام الاسلام من الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدثين والمفسرين والفلاسفة والقواد والادباء والشعراء ، حتى صارت أسناد الحديث والادب مألوفة لنا ، لكثرة من عرفنا من رجالها ، ومن لا نعرفه نرجع الى ترجمته ، وكنا في الثانوي نرجع الى الاصابة وأسد الغابة والاستيعاب ، وتهذيب التهذيب ، وتهذيب الاسماء واللغات وابن خلكان والفوات ومعجم الادباء ، وطبقات السبكي وتاريخ الخطيب ، وابن عساكر ، والديباج المذهب ، وطبقات الحنفية والبغية ، وتاريخ الخلفاء والقفطي وابن أبي أصيبعة ، وكانت هذه الكتب كلها ـ وأخرى نسيتها ـ في مكتبة أبي وكانت تحت يدي من تلك الايام .

«١» قالوا : الأمهات للناس والأمات للأشياء .

وقد نبغ في صفنا (فصلنا) جماعة من الاعلام ، كسعيد الافغاني ، ومحمد الجيرودي وجمال الفرا ووجيه السمان ، وانور الشلاح ومحمود البحرة ، وقد نبغ في الصف الذي أمامنا طائفة أخرى من الاعلام كأسعد الكوراني وجميل سلطان وزكي المحاسني وعبد الكريم الكرمي .

وما كانت تمر سنة لا ينبغ فيها نابغون في الأدب والعلم ، وممن نبغ في صفنا في كلية الحقوق ، مصطفى الزرقا ويونس السبعاوي وصديق شنشل وبدر الدين الكاتب وعادل العلواني رحمه الله .

ثم شح الينبوع ، ثم جفّ أو كاد ، حتى مانجد في السنين الطوال كاتباً ينبغ في الشام ، أو شاعراً يظهر ، أو محققاً يرى ، وما زال الامر الى تخلّف ولقد اشتغلت بالتعليم دهراً في الشام والعراق ولبنان فما فارقت فوجاً من الطلاب إلا استقبلت أضعف منه ، حتى انتهى بي الامر ، أن دعيت (من سنتين) الى تدريس الآداب لطلاب السنة الاخيرة من مدرسة ثانوية ، فدخلت فوجدت رجالاً كباراً ، لهم طول وعرض ، وأناقة في الثياب ، ولباقة في الخطاب ، وسمت ووقار ، فهبتهم وأعددت العدة لتعليمهم ، وحشدت كل ما أعطيت من قوة وعلم ، على ضعف قوتي وقلة علمي ، ومضيت على سنني حتى جاء موعد سؤالهم ، فاذا هم من أئمة الجاهلين ، واذا هم لا يحسنون قراءة بيت ولا فهمه ولا إعرابه ، ففررت منهم ، حين وجدت أني إن كلمت ثيابهم وهيئاتهم منعتني جهالتهم ، وإن خاطبت جهالتهم منعتني هيئاتهم .

فالحكاية ليست حكاية كتابة تسهل ، ولا قواعد تيسر ، ولا أغراض خبيثة تحقق من وراء هذه السُتُر اللماعة ، ولا سموم تقدم في هذه الكأس البراقة ، ولكنها مشكلة المعلم أولا ، والتلميذ ثانياً .

وما دام في معلمي العربية من هم أصحاب شهادات لا أصحاب علم ، خطفوا

مسائله في المدارس خطفاً ،وحفظوها حفظاً ، ومنهم من تعلمها في ديار الغرب، وجاء منها بدكتورات حرب [1] وما دامت دروس العربية تلقى بالعامية ، وما دام مدرس الأدب يتكلم ساعة عن أبي تمام وأدبه وما قيل فيه ، ولكنه لا يفهم بيتين من شعره ، ولا يحسن شرحها ، ويعلم الأدب وهو ليس بأديب، وما دام يتصدر للامامة في (فن القول) [2] من لا يدري ما يقول – فمن أين يتلقى الطالب العربية ؟

فهاتوا المعلم القوي في علوم اللغة ، صاحب الاطلاع فيها ، والذوق في فهمها ، يصلح هو فساد المناهج ، ويقوم اعوجاج الكتب ، وييسر عسر اللغة ، (إن كان فيها من عسر !) وهذا المعلم لا يوزن بميزان الشهادات وحدها ، إلا إذا جاء وقت لا تعطى فيه الشهادات إلا لأربابها ، وتكون شهادة حق لا شهادة زور ، ففتشوا أنتم الآن عن ميزان آخر !

أما التلميذ فيجب أن نحبب اليه المطالعة ، ونعرفه قيمة العلم ونذيقه لذته ، ولا يكون ذلك ما دامت المجلات والمطابع مفتحة أبوابها ، لكل هذيان وعبث صبيان .

وبيان ذلك أن في نفس كل ناشىء في الأدب حباً للظهور ، وهوى للنشر، فلا يجد" ان جد" إلا ليلقى اسمه على رأس مقالة في مجلة ، أو على غلاف كتاب ، ولقد كان الواحد من أصحابنا يتمنى ان ينشر ما يكتبه بعد طول الكد، ومتابعة السهر ، في جريدة محلية ، ثم يرتقي الى المجلة الصغيرة ، ثم يتدرج حتى يصل الى مثل الرسالة أو الثقافة . هكذا كنا ، وهكذا كانت لهذه المجلات هيبة في نفوسنا ، فلا نقدم عليها الا بعد الاستعداد ،ولا نقدم لها الا ما نعتقد

---

(١) دكتور حرب على وزن « غني حرب » .

(٢) (فن القول) اسخف كتاب في البلاغة لاسخف دعي فيها .

أنه جيد ، فتبدلت الحال ؛ وعلا الشباب (بالغرور) ، وهبطت هذه المجلات ، حتى صرنا نرى الغلام المبتدىء ، يكتب مقالته الاولى فلا يراها أقل من أن تنشر في الرسالة مثلا ، مع مقالة العقاد والزيات ، ولا يعدم بعد إدمان القرع للأبواب من يفتح له باب مجلة من هذه المجلات .

هذا الشاب الذي يرى أنه وصل الى الغاية بلا تعب ، ونال ما يطلب بلا مشقة ، لا يجد بعد ذلك ما يدفعه الى سهر الليالي ، وتقريح الجفون ، في مسامرة الكتب ، والازدياد من العلم .

فليس الخطب في ضعف الطلاب وعجز المعلمين ولكنه خطب الادب . إنها إن استمرت هذه الحال ، ومات هؤلاء الكتاب البلغاء ، وكل حي الى ممات ولو طال به الاجل ، فإنكم ستتلفتون تفتشون عن كاتب بليغ ، أو شاعر مفلق ، فلا تجدون . فأعدّوا من الآن شباباً تدخرونهم لذلك اليوم العصيب ، وإلا فعلى اللغة والادب والبيان السلام !

* * *

رجل في ملابس النساء

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

قرأت في (اخبار اليوم) أن الشرطة عثرت على (فلان) قتيلا في داره. وقالت عن هذا القتيل أنه كان يلبس ملابس النساء ، ويفضلها على ملابس الرجال ، لأن أمه لما ولدته كانت ترجو أن يكون بنتاً لذلك دعته (فلانة) وألبسته ملابس البنات ونشأته على ذلك ، وقالت الجريدة أنه كان غنياً واسع الثروة فأراد يوماً أن يؤلف لجنة في (حزب سياسي) للسيدات يكون هو رئيسها فأوفدت اليه الشرطة من يهدده بالاعتقال والنفي الى الطور إن هو فعل.

* * *

قرأت هذا فوقفت عنده وفكرت فيه ، فوجدت الجريدة قد ساقت هذا الخبر لتعجّب الناس من أمرين هما : لبس الرجل لباس المرأة ، ودخوله في لجنة السيدات - وما في واحد منهما عجب ، ولا أدري ماذا وجدت فيه الجريدة حتى عجّبت منه الناس ! ومادمنا لا ننكر على المرأة أن تلبس لباس الرجل وتستعير سراويلاته (بنطالونه) ، وتجزّ شعرها تشبهاً به ، وتتخذ مثل قميصه وردائه ؛ فلماذا ننكر على الرجل أن يلبس ثيابها مرة واحدة ؟

ولماذا ننكر عليه دخوله مرة واحدة في لجنة السيدات ، ولا ننكر على السيدات دخولهن في لجان الرجال ومشاركتهم في أعمالهم ، من سوق السيارة الى تدريس الجامعة ؟وأيها أعجب وأغرب ، وأبعد عن سنن الله ومألوف الناس أأن يرأس رجل لجنة السيدات في حزب من الاحزاب ، أم أن تقعد آنسة جميلة على منبر التدريس مثلاً ؛ تعلم شباباً كباراً ، علماً لم تختص هي به ، ولم تنفرد بحمله ، ولم ينقرض الرجال حتى لم يبق لتدريسه إلا هي ، وليست أصلح له ولا أقدر عليه من رجال هم مستعدون للقيام به ، راغبون في أدائه ؟

فلماذا نستضعف الرجل فنحمل عليه ، ونظلمه هذا الظلم البيّن ، ونهاب الجنس (المخيف) أن نقول لأهله كلمة أو نشير إشارة ؟

وأين المساواة بين الجنسين التي ندعو إليها دائماً ، ونتجمل بترديدها ، ونتباهى بها ، ونحن لا نفهم معناها ، ولا ندري علام تدل وإلام توصل ؟

* * *

وهل انفرد هذا الرجل وحده بلبسه غير لباسه ،وتزيّيه بغير زيّه ؟ ألسنا نرى كل يوم أناساً يتزيّون بزيّ الصالحين ، ويحملون سبحات المسبحين ، ويقومون في المساجد مع المصلّين ، ثم لا تعاملهم إلا غشّوك ، ولا تَخْبُرهم إلا وجدتهم طلاب مراتب ورواتب ، أو باغي [1] منافع ، ولا تراهم إلا متزلّفين لكل صاحب سلطان ، خاضعين له ، يؤثرون رضاه على رضا الله ، ويخافون غضبه أكثر من غضب الله . إذا رأوا الحرام منه خرسوا عنه ،وإن رأوا المكروه من غيره أقاموا الدنيا عليه .

---

(١) اي قاصدي .

ومشايخ طرق ظاهرهم مع مريديهم ظاهر الفقراء الزاهدين ، وحقائقهم مع أهليهم وإخوانهم ، حقائق الفساق الذين ينتهكون كل حرمة ، ويبتغون كل لذة ، ويعيشون حياة ليس فيها شيء لله ولا للشرف .

أولسنا نرى كل يوم عملاء للأجانب ، يدرسون على حساب الاجنبي في مدارسه ، ويتربون على يديه ، ويسبّحون بحمده ، يتوجهون أنّى وجههم ، ويعملون له فيما استعملهم ، ويعرفهم الناس صنائعه وعبيده ، يلبسون فجأة ثياب الوطنيين المخلصين ، أو دعاة الدين الصالحين ، ثم يدخلون (بأمر الاجنبي) الحزب أو الجمعية ، فلا يلبثون أن يكونوا هم أربابها ، وأن يقصوا عنها أصحابها ثم يصرّفونها لمصلحة الاجنبي ، يخدمونه وهم يسبّونه ، قلوبهم وأيديهم معه وألسنتهم عليه ، وعملهم لمصلحته وإن كانت ظواهرهم لمحاربته ؟

أولسنا نرى أغبياء جهلاء يلبسون ثياب العلماء الأذكياء ، وأدنياء يزهون بحلل الأعلياء ، وأعداء يرتدون أردية الاصدقاء ؟

فلماذا نفرد هذا القتيل المسكين بالملامة ، ونخصه بالنقد ؟

* * *

وهل كل من حمل شارب الرجل ، ولبس لباسه ، كان رجلا ؟ لو كان هؤلاء كلهم رجالا فهل كان يمكن أن تبقى بلاد العرب الى اليوم مجزأة مقطعة ، تفصل بينها حدود وأعلام ، يطؤها الاجنبي ويتحكم فيها ، ويستغلها ويستعبد أبناءها ؟ إن الرجال حقاً هم الاربعون الذين كانوا مستخفين في دار الأرقم في أصل الصفا ، فلم تمر عليهم ثلاثون سنة حتى فتحوا نصف الدنيا ، لا هؤلاء (الخمسمائة مليون) الذين ناموا منذ ثلاثمائة سنة حتى تجرأت عليهم نصف شعوب الدنيا ؟ لو كان هؤلاء رجالا حقاً واجتمعوا على الاسطول الانكليزي لحملوه

حملا على أكتافهم ، ولو نفخوا كلهم نفخة واحدة لطيّروا الجيش الانكليزي المرابط عند القناة[1] .

ولكنهم اشباه الرجال ، ولبسهم لباس الرجال لا يقل عجباً وغرابة ، عن لبس هذا القتيل لباس النساء .

* * *

ولماذا ننكر عليه أن يكون رئيس لجنة السيدات الـ (حزبيات) ولا ننكر على السيدات أن يؤلفن هذه اللجنة ؟ وما للسيدات وأعمال الاحزاب ؟ إنه إن دخل فيها فهذا عمله ، وهذا مكانه ، ليس هو الطارىء عليه الواغل فيه ، ولكنْ السيدات المحترمات فهن أولى بالإنكار ، وأحق بالمنع ، لا احتقاراً لهن وزراية عليهن بل إكراماً لهن ، وترفعاً بهن أن ينزلن الى هذه المنزلة ، وينحططن الى هذه الدركة ، وهل جنى الرجال من الحزبيات في بلادنا خيراً حتى يجنيه منها النساء ؟ هل رأينا فيها إلا التفرقة والانقسام ، واستغلال نفر منا إخلاص المخلصين ، واندفاع المندفعين ، وطمع الطامعين ، للوصول الى كراسي الحكم ، والتمتع بأموال الدولة ؟ وماذا يرى المراقب البعيد ، من تبدل الحكومات في هذا الشرق العربي ، وتعاقب الاحزاب عليها ، إلا تبدل الوجوه ، وتغيّر الاشخاص ، أما الاسلوب فهو واحد ، والسياسة واحدة ، يتبدل الوزّان ويبقى الميزان ؟ والميزان مختل ، والقبّ مائل ، والصنجات ضائعات !

* * *

أولسنا جميعاً مثل هذا القتيل نلبس لباساً لم يفصّل لنا ، ولم يقس علينا ،

---

(١) وقد اخرجهم الله الآن و (ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم)

ولكنه خيط لغيرنا ، فأخذناه كما هو بلا إصلاح ، ومشينا فيه كما يمشي الطفل بحلة أبيه يتعثر بها فيسقط ، فيُضحك أهلَه عليه ، ويسلّيهم بفعله .

لقد أخذنا هذه المدنية كما هي ، لم نحكم فيها عقولنا وشرائعنا وطبائع بلادنا ولوازم معيشتنا كما تفعل كل أمة في الدنيا ، إذ تستوي الأمم في أصول الحضارات ، وأسس المدنيات ، ولكنها تختلف في التفاصيل ، فلا تبنى البيوت وتخاط الثياب في البلاد الباردة كما تبنى وتخاط في البلاد الحارة ، ولا تخطط المدن في شعاف الجبال كما تخطط في السهول أو على سواحل البحار ، ولا تكون الاطعمة في حدود القطب كما تكون في خط الاستواء ، وما يسوغ ويقبل في بلد قد ينكر ويردّ في بلد ، وما يحسن في لسان من أساليب البيان يقبح في لسان ، وما يجمل في أذن من ألحان الغناء يبشع في أذن ، ليس في الدنيا بلدان متحضران تستوي فيهما هذه الدقائق كلها ، وإلا لما كان معنى لاختلاف الحضارات ، وتعدد الثقافات ، وتكلف مشاق الرحلات ، ولكان السائح الذي يرى فرنسا كأنه رأى ألمانيا ، والذي يبصر أمريكا كأنه أبصر روسيا ، وليس في الدنيا حضارة أصلية إلا ولها طابع خاص بها ، فما هو طابعنا نحن في حضارتنا الجديدة ؟ ماهو الثوب الذي نلبسه ؟

ادخل أي دار من الدور ، وسر في أي شارع من الشوارع ، في مصر أو الشام أو العراق ، تجد الجواب ، تجد في الدار الواحدة غرفة مفروشة بالبساط والوسادة وفيها فراش على الأرض ، وغرفة فيها احدث ما صنع من الأرائك والكراسي والمناضد ، ودقق في هذه الغرفة تجد فيها خليطا من الذوق الفرنسي والانكليزي ، وفي صدرها مرآة من أسلوب عهد لويس الرابع عشر ، وأمامها نضد على الطريقة الاميركية ، وتجد بين الأم وبنتها في اللباس والعادات

والافكار قرناً كاملا ، وتجد بين الدار وأختها فرقاً هائلا ، في العمارة والفرش والذوق والترتيب ، مع أنك تدخل بيوت عمارة يسكنها إنكليز أو فرنسيون فتحس على اختلاف الغنى والذوق ، أن لها طابعاً عاماً يبدو على كل منها ، وإن تفاوتت درجات ظهوره وخفائه ؛ وتجد في الشارع ألواناً من الألبسة والأزياء ، يحسبها الغريب أزياء عيد المساخر (الكرنفال). وادخل المدارس تجد في المناهج ، وفي المبادىء العلمية والسياسية والاجتماعية التي تعرض على التلميذ ، وفي آراء المدرسين ومذاهبهم (كرنفالا) آخر ؟ ولكنه أغرب وأشد اختلافاً ، وأكبر ضرراً . وفي المبادىء الحقوقية في التشريع ، وفي المذاهب البيانية في الادب ، وفي الصحافة وفي السينما وفي كل شيء (كرنفال) ضخم ، ليس له يوم واحد ينقضي بانقضائه ، ولكنه دائم باق لا انقضاء له .

وأنا لا أدعو لنبذ الحضارة الغربية ، بل أدعو إلى أخذ ما ينفعنا منها ، وأن لا نأخذها أخذ العامي للراد (الراديو) ، لا يفهم منه إلا أنه يأتيه بالاصوات فيفتحه على مصراعيه ، ويزعج به الجيران ، ويكره إليهم الحياة بجواره ، بل أخذ العالم الذي يعرف وجوه استعماله ، ويدرك تركيبه ، فيصلحه إذا فسد ، ويكمله إذا وجده ناقصاً ، ويصنع مثله أو يخترع أحسن منه ، أي أن نتعلم علومهم ، ونتقن فنونهم ، وندرس أخلاقهم ، ثم نرى ما يزيدنا منها قوة وسعادة، للفرد منا والجماعة ، وسهولة في العمل ، ولذة في المعيشة ، فنأخذه كما هو أو نعدله حتى يصلح لنا ، وأن ننقله الينا ، ونجعله ملكا لنا ، لا أن ننتقل به الى أمة غير أمتنا ، وطبيعة غير طبيعتنا ، وأن ننظر مافعله أجدادنا في أول العهد العباسي ، مع الحضارة الفارسية مثلا فنصنع مثله ، إنهم أخذوا كل نافع في الطعام والشراب واللباس والمسكن وفنون القول وطرائق الفكر ، ولكنهم لم يصيروا به فرساً ، بل جعلوا به الفرس عرباً ، أما أن نأخذ

النافع والضار ، والجليل والحقير ، بلا فهم ولا علم ، فهذا تقليد كتقليد القردة .

* * *

وبعد ، فلماذا ننكر على هذا الرجل أنه فقد عزة الرجولة ، واتخذ لباس المرأة ، ولا ننكر على الكثرة الكاثرة من هذه الأمة أنها فقدت عزتها ، واعتدادها بنفسها ، وكبرياءها القومية ، وشعورها أنها أمة هي أعظم الامم في الجاهلية وفي الاسلام ، وأنها إن قدر عليها أن تذل حيناً ، فما من أمة إلا وقد ذلت مرة ، ولكنها لن تذل مرة أخرى ، ولن تعود الى الغفلة والمنام .

إن رأس أدوائنا هو هذا اللطف ، والحرص على أن نكون مؤدبين ، لا نؤذي محدثنا أو جليسنا . هذا اللطف ،وهذا الإكرام للضيف، هو الذي جرّأ علينا الاجانب،جنوداً وتجاراً ،حتى ملكونا بجيوشهم ومعاملهم وشركاتهم ومتاجرهم ، ولا خلاص لنا ، أعني لا خلاص لمصر من هذا كله إلا بأربع خلائق يجب على كتابها وصحفيها ومدرسيها وصانعي أفلامها أن يعلموها الناس وأن يخلّقوهم بها ، هي حب المال أولا ، وحب المال إن زاد كان مذمة للفرد ونقيصة ، ولكنه لا يكون للشعب إلا خيراً ، وما أفلح شعب لا يحب في مجموعه المال . وحب الاسفار ثانياً ؛ كونوا كاخوانكم الشاميين ، هل طلع كوكب إلا على نفر منهم ؟ اقتحموا البحر والصحراء ، الى امريكا شماليها وجنوبيها ،وأفريقية أدناها وأقصاها ، والهند واليابان وأوربة ، وما نزلوا بلداً إلا كانوا من كبار تجاره ، ومن وجوه سراته ، عاشوا تحت كل نجم ، وجابوا كل أرض ، وخالطوا كل أمة .

وترك هذا اللطف ثالثاً ، وتعوّد الشدة في الحق ، والثقل على العدو ، والمزاحمة على العيش ، وأن يحس كل مصري بعد هذا كله ، بل قبل هذا كله

أن البلد بلده وأنه أحق به من كل خواجة وكل دخيل ، وأن له هو طيبـاته وخيراته ، وأنه أكرم من هذا الدخيل (كائناً من كان هذا الدخيل) أصلا ، وأعز نسباً ، وأبين لساناً ، وأقوم ديناً ، وأجل أثراً في الدنيا ، فلا يطأطىء رأسه لأحد ، ولا يحني هامته لإنسان ، ولا يرضى بالدنيّة من مخلوق في الدنيا.

بهذه الأخلاق ننقلب أمة أخرى ، ويرى هؤلاء الأجانب ماذا يصنـع الأسد الجريح (إذا برىء) بالثعالب التي كانت تلعق من دمه .

والويل يومئذ للثعالب !!



وكم في مصر من بنات أمبان *

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

إجلاء هذه البنت عما تسمّيه ملك ابيها ، اعظم عندي من اجلاء الانـكليز عن مدن مصر .

لانها تحتل بحق (التملك) واولئك يحتلون بسيف الغصب .

ولانها توشك ان تصير (كما صار غيرها) مصرية ، في سجلات الاحصاء ، على حين انها لاتزال اجنبية الدم والهوى واللسان ، واولئـك يبقون انكليز غرباء ، غاصبين اعداء ، ويبقون قذى في عـين كل مصري ، وغصّة في حلقه ، وثقلا على قلبـه ، حتى يخرجوا ، وما من خروجهم بـدّ ، لان الباطـل الى اضمحلال وان كانت له جولة ، والحق الى ظفر وان كانت له كبوة ، وقد (طالما) بغى باغون ، وظلم ظالمون ، ولكن لم يدم باغٍ ولا خلد ظالم ؟

« ★ » جلست بنت البارون أمبان صاحب شركة «مصر الجديدة» في فندق «هيلوبوليس بالاس» مع شابين انجليزيين ، وكان عـلى مقربة منهم الضابط الطيار صدقي فجرت بينهم مناقشة في الجلاء ، فقالت الفتاة : « إن المصريين من غير الانجليز صفر . » فلما انكر عليها الضابط وألزمها بالاعتذار أصرت على قولهـا وأوعدته بالطرد من فندقها ومدينتها . فبلغت الواقعة حكومة مصر فطردتها منها .

هذه البنت وامثالها شر من الانـــكليز ، وسند التمليك في يدها اقطع في رقابنا من السيوف في ايديهم ، وفندقها في مصر الجديدة اخطر عـلى استقلال مصر من ثكنات قصر النيل ، لان المصيبة في هؤلاء انهم يعدون (في جنسيتهم الرسمية) منا ، وهم في حقيقتهم من غـيرنا ، فيدخلون في الامة دخول السم في الجسم ، وصندوق الديناميت بين احجار البناء ، ويكونون منا كالشيطان من الانسان يجري منه مجرى الدم ، فــلا يستطيع الخلاص من شره ، ولا النجاة من اذاه . ثم ان اصحاب كل بلدٍ هم مــلاّك ارضه ، واصحاب عماراته ، هم سادته ، وهم الحاكمون فيه ، فإن شاؤوا عطلوا هذه الأرض وتركوها مواتاً فجعلوا البلد مقفراً ، وردّوه فقيراً ، وإن شاؤوا أخلوا عماراتهم للبوم والعناكب أو هدموها ، وإن شاؤوا أدخلوا الناس إليها وأسكنوهم فيهــا ، وإن شاؤوا أخرجوهم منهــا وأغلقوا دونهم أبوابها ، فمن هو الذي مكّن لهــذه البنت وأمثالها أن يكونوا هم ملاك هـذا البلد ، وترك الكثير من أهــله حفاة عراة جائعين ، يدورون يسألون هذه (الخواجاية) صدقة وإحسانـاً ، فتزورّ عنهم وتنأى بجنبها ، وتصعّر خدها ، وترميهم بكل قبيحة من فمها (الجميل) .

من الذي أجرم هذه الجريمة الكبيرة ، أو غفل هـذه الغفلة العجيبة ، حتى أصبحنا اليوم والمتاجر الكبرى في مصر للخواجات ، والفنادق للخواجات ، والقهوات للخواجات ، وأكبر العمارات يملكه الخواجات ، وأفخم السيارات يركبه الخواجات ، حتى أن شارعاً عظيماً هـو شارع قصر النيل ، لايملك فيه المصريون ، كما أخبرني الثقة ، إلا ثلاث عمارات فقــط ، بقيت مصرية لأنهـا موقوفة ، وسائره للخواجات . فماذا ينفعك أنك مصري مستقل ، وأن الوادي وادي أبيك وجــدك وواديك ، إذا كان الخواجة يستطيع أن يطردك من

مأواك ، فلا تلقى إلا بإذنه سقفاً يكنُّك ، وأن يعريك فـلا تجد إلا بإذنه ثوباً يسترك ، وأن يسيرك فلا تصل إلا بإذنه إلى ترام يحملك ؟

ما الاستقلال وأنت محتاج إليه في كل شيء ؟ ما العزة ؟ وأنت تأكل الخبز الأسود وهو يأكل لباب البر من أرض مصر ؟ وأنت تسكن الكوخ المهدم وهو يملك الصرح الضخم على أرض مصر ؟ وأنت تشرب المـاء العكر وهو يشرب الرحيق المصفّى من خير مصر ؟ وأنت تمشي حافياً وهو يختال بسيارته على ثرى مصر ؟ وأنت تلبس الجلباب الخلَـق وهو يتخذ الثياب الرقاق من قطن مصر ؟ أيصير الغريب صاحبَ البلد ، وابن مصر يصير غريباً في مصر ؟ هذا فظيع ! هذا (عهد المماليك) يعود بثوب جديد !

لما كنت في العراق كنت أرى بعض العراقيين يظهرون الكراهيـة للمدرسين السوريين ، وينفسون عليهم رواتبهم التي يأخذونها ، ويقولون لهم ، أنتم آتون (لتقشْمِرونا) [1] ، ويبغضون السوري الذي يزاحمهم عـلى مورد الكسب في التجارة ، ومنبع الربح في العمل ، فكنت أتألم من ذلك وأقول ، ليتهم تعلموا اللطف ومحبة الغريب . فلما جئت مصر ، ورأيت هذا اللطف وما جر إليه من الضعف ، وحب الغريب ومـا أوصل إليـه من الخراب عرفت أن الخير فـيما يفعل العراق .

وأنا لا أدعو العرب ليكره بعضهم بعضاً ، ولكن أدعو إلى شيء معقول : هو أن العرب اليوم في أقطار العربية كلها ، كجيش في مصافـّه ، على كل فرقة أن تدفع العدو عن حماها ، ولا تدع الجيش يؤتى من قبلها ، ونحن نحارب (فيما نحارب) الفقر والإفلاس ، فعلى كل قطر ألا يدع في أبنائه فقيراً ، وألاّ يترك

«١» كلمة عامية عراقية معناها (لتسخروا بنا)

فيه رجلا بلا عمل ، وأن يمنع الغرباء عنه من مزاحمة أهله في زراعته وتجارته وصناعته ، حتى إذا اشتغلوا جميعاً ، وبذلوا قواهم كلها ، وبقي فيه بعد ذلك فراغ لأيد غير أيديهم ، وأموال غير أموالهم ، استعانوا بأبناء الاقطار العربية الأخرى ، ولم يفتحوا لهم الباب إلا بمقدار الحاجة ، أما أن يجيء السوري ليعمل في مصر ، ويجيء المصري ليشتغل في الشام ، ويترك أهل البلد بلا مال ولا عمل ، فتفسد البطالة أخلاقهم ، ويذلّ الفقر نفوسهم ، ويعلّمهم هذا وذاك كره أخيهم العربي ، فليس من مصلحة العرب أن يكون . هذا رأيي أعلنه بلا جمجمة ولا مداراة .

وهذا للعرب . أما (الخواجات) فأجلوهم عن بلادكم إجلاءً تاماً فلا يأتوها إلا سياحاً أو زوّار آثار . وارفعوا أيديهم عن مرافقها فلا يملكوا منها إلا ما يملك مثله الأجنبي في بلادهم . وكل بلاد الدنيا ، تمنع الأجنبي أن يملك فيها أرضاً أو عقاراً إلا بمرسوم فما بال مصر مائدة ممدودة لكل طاعم ، وكنزاً مفتوحاً لكل آخذ ؟ وما بال الخواجة يجيء مصر فقيراً مفلساً ، لا يبتغي إلا القوت يمسك رمقه أن يموت ، ولا يتمنى إلا قرشين يعود بهما إلى بلاده ، فلا تمر السنون حتى يصير الفقير غنياً ، والواغل على البلد مالكاً له ، ويغدو (الشحاد) صاحب المنزل ؟ ويجيء معه بالغانية راقصة أو بغياً ، فيقدمها للمصري بيد ويأخذ منه الأسناد على موسم القطن بيد ، ثم تتجمع الأسناد فتأكل الموسم ، ثم تعجز المواسم عن سداد الدين ، فيملك الأرض ، ثم تتبدل الدنيا غير الدنيا ، وينقلب الفلك ، فيصير السيد عبداً ، والعبد سيدا .

هذا احتلال شر من احتلال الجيوش الانكليزية ، لأنه احتلال المومسات : راقصات وأرتيستات ، واللصوص : أصحاب متاجر وأعضاء شركات .

والخلاص منه أصعب وأشق ، لأنه لايكون بالرصاص والبارود ، ولا يكون بالمظاهرات والثورات ، بل يكون بإعلان (النفير العام) في الكتاب أولاً ، وتجنيد القوى الأدبية كلها ، للعمل على إعلاء همة هذا الشعب ، وأن نعيد إليه ثقته بنفسه ، وأن نردّ عليه عزّته وكبرياءه ، حتى ترتفع هامته ، وتشتد عضلاته ، ويشمخ أنفه ، ويعلم أنه لايكون حقيقاً بملك مصر ، ولا أهلاً للاستقلال ، ولا سليل من ملكوا بالاسلام الدنيا ، إن لم يكن عزيزاً في سيّداً في بلده .

ثم نعمل على أن نصب فيه روح المغامرة ، وندفعه إلى اقتحام المخاطر ، وركوب الأسفار ، ونعلمه حب المال ، فما يفلح شعب لا يحب المال ، ولا يعرف قيمته ، ولا يفلح شعب لايريد فراق وطنه ، ولا النأي عن عشه

ثم نعلمه بغض الأجنبي ، حتى يكون له ديناً ، ويغدو له طبعاً ، نعم! البغض ؛ لماذا تنفرون من سماع هذه الكلمة ؟ ألأنها منافية للّطف والمجاملة والكرم ؟ ياناس لقد قتلنا اللطف ، لقد ضيعتنا المجاملة ، لقد أودى بنا الكرم . الكرم صيّرنا شحادين ، والتواضع جعلنا عبيداً ، فلنتعلم الاقتصاد ، والعزة ، أو فلنعلمها أولادنا إذا لم يمكن أن نأخذ بها نفوسنا .

ثم لنفهم هذا الشعب أن الاوربي يضحك علينا بالأرتستات والخمور والأزياء ، كما يضحك على زنوج أفريقية بالخرز والاجراس ، فلنره أننا عقلنا وشببنا عن الطوق ، وأننا لم نعد نرضى أن يضحك أحد علينا ، وما لنا ولارتستاته وعندنا نساؤنا أزكى وأطهر وأجمل وأكمل ؟ وما لنا ولازيائه ولنا أزياؤنا ؟ وما لنا ولخموره ولنا ... شرائعنا التي تحرم علينا الخمرة ، وأخلاقنا ؟

فإذا استكملنا عدة الهجوم ، شرعنا الرماح وهجمنا ، وخضنا المعركة

نحاربه بمثل سلاحه ، بالعلم والجد والدأب والتعاون حتى نلقي عنا هذه القيود التي كبلنا بها ، حلقة بعد حلقة ، كما شدها من حولنا حلقة بعد حلقة ، على أن المعركة قد بدأت من زمان ، وما معامل المحلة الكبرى ، ومصانع الطرابيش والزجاج [1] إلا أعلام النصر في معركة الوطن ، فلنمض فيها ، ولنؤلف لكل ميدان فرقة : شركة اقتصادية ، فيكون لكل مرفق من المرافق شركة ، حتى إدارة الفنادق ، وتسيير الترام وبناء المنازل .

لقد أعلنتم المعركة المقدسة ، بإجلائكم هذه البنت عن أرض مصر ، وعقد لكم اللواء ، ورفع العلم فامشوا تحته أدباء واقتصاديين وعلماء ، فإن الميدان يتسع لكم جميعاً ، ويحتاج إليكم جميعاً ، واعلموا أن الاستقلال الحقيقي لا يكون إلا عندما يلتفت المصري فلا يرى حوله شركة أجنبية ، ولا مدرسة أجنبية ، ولا متجراً لأجنبي ، ولا عقاراً يملكه أجنبي ، وتكون كل خيرات مصر لابناء مصر !

هذا هو الاستقلال ، فعلى كل مصري أن يعمل له ما يستطيع !

---

(١) ذلك في مصر وفي الشام معامل الشركة الخماسية والشمنتو والزجاج والسكر وأمثالها .

تاجر حرب

نشرت سنة ١٩٤٥

أكتب هذه الكلمة والمطر يهطل منذ ثلاث ليال ، ما انقطع خيطه ، ولا سكت صوته ، أقبل بعد سنة مضت ، شحت فيها السماء ، وضنّت السحب ، ففرح به الناس واستبشروا ، وانتظروا عاماً خيّراً مباركاً ، يغاث فيه الناس ، ويأتيهم بالفرج بعد الشدة ؛ غير أن الخير إن زاد عن حده ، كاد ينقلب الى ضده ، وكذلك المطر لما استمر صار الناس يسألون الله الجفاف ، ويتمنون لو تطلع الشمس ، والشمس ما تطلع ، والمطر ما ينقطع .

ووكفت السقوف ، ونزّت الجدران ، واسّاقطت غرف ، وسالت طرق الجبل أودية ، فامتلأت بالحصى والحجارة ، وغدت أباطح ، ووقف[1] سيلها الدفّاعُ السيارات وحافلات الترام ، واختبأ الناس في البيوت ، وما تكاد البيوت تمنع برداً ولا بللاً ، ونال حيّ المهاجرين (على سفح جبل قاسيون) مالم ينل مثلهُ حياً في دمشق ، وحي المهاجرين نصفه قصور من الصخر شامخات ، ذات طبقات كُثُرٍ وشرفات ، ونصفه دور لمساكين ، هي أكواخ من اللبِن والطين ، وما في بلدنا مكان يلتقي فيه الفقر المدقع المتجمل الصابر ، والغنى السفيه الوقح المبذر ، كما يلتقيان وجهاً لوجه في المهاجرين . أما بيوت الأغنياء

---

(١) « وقف » يتعدى بنفسه ولم يسمع عن العرب « أوقف » .

فما أحسّت المطر ولا درت به ، ونام من فيها على فخم الأسرة ووثير الفرش ، لا يعنيهم من خبر السماء وخبر الأرض إلا أن تشبع بطونهم ، وتمتلىء صناديقهم ويسلم لهم أولادهم وأهلوهم ، وأما أكواخ الفقراء ، فقد صبرت على المطر صبر الكريم ، واحتملت ليلة وليلتين ، فلما جاوز الحمل الطاقة ، خرت في المعركة كما يخر البطل الشهيد ، وخرج من بقي من ساكنيها فراراً منها حين لم تعد دوراً وإنما صارت بركاً ومستنقعات .

سقوف بيوتي صرن أرضاً أدوسها   وحيطان داري ركّع وسجود

وسمعت في الليل رجّة ، اهتزت لها الدور ، ورجفت منها القلوب ، فقمت أستقرىء الخبر ، فاذا دار جيراننا قد هوت .

ومضت ساعة ، وأهل الحمية من الناس يعملون في الوحل والمطر والبرد ، ليواسوا أسرة نزل بها القضاء ، وينقذوا ما يستطيعون إنقاذه ، من فرشها ومواعينها ، وذلك القصر ينظر الينا ثم يعرض عنا ، قد شغلته حفلة أقامها تلك الليلة لا أدري فيم أقامها ، ولا تزال أنواره ساطعة في عيوننا ، ونساؤه الكاشفات يتراءين لنا من وراء الزجاج في الحرير والذهب ، وأصوات الغناء والمرح في آذاننا ، تهزأ بالفقر وأهله ، وتضحك وقحة في مآتمهم ، وترقص فاجرة في مقابرهم ، والسيارات تقف في بابه تنزل منها طاقات الزهر ، وثمن كل طاقة يحيي الأسرة من هذه الأسر أياماً ، والهدايا التي تذهب بالمال ولا تأتي بالنفع لوحات مصورة ، وكؤوس منقوشة مذهبة ، وتماثيل للناس وللبهائم ، ولو وزعت أثمانها على فقراء الحي لم تدع فيه فقراء ، والفضيلة قد توارت خجلاً في زاوية الطريق ، وابليس واقف يضحك مسروراً بأنْ سلب نفراً من أمة محمد فضائل دينها ، ومروءتها ، وأنْ ثَأر من آدم فجرد بعض بنيه من بشريتهم ،

وأحالهم شياطين في أجسام بشر ، أو ذئابا قد استخفت في الثيــاب ، ولم اقل كلابا لئلا أشتم الكلاب !

ونعجب بعد هذا من ابراهيم بن أدهم لما أخرجوه ليستسقي لهم ، وقالوا له قد استبطأنا المطر ، فادع الله لنا ، فقال : تستبطئون المطر ؟ أنا والله استبطىء الحجارة .

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى » .

* * *

وما هــذا القصر لملك ولا أمير ، ولكنه لتاجر من هؤلاء التجار الذين يحيون في أيام الحروب الـتي يموت فيها الناس ، ويغنون حين يفتقرون ، وينسون أن لهذا الكون إلـهاً قادراً عادلاً جباراً ، ما استقال ولا أحيل على المعاش ، ولا يزال لهم بالمرصاد ، وينسون أن الموت آت لا مفر لهم منـه ، وأن قبل الموت المصائب والرزايا ؛ الفقر والثكل والمرض ؛ وأن بعد الموت الحساب ، وبعد الحساب جهنم أو الجنة ، أفبلـغ بالتجار أن يعلنوا الحرب على الله ؟

إننا نعيش بحمــد الله في منجاة من القتال وأهواله ، والحرب وبلاياها ، ومالنا عدو يحاربنا ، وما عدونا إلا هؤلاء المحتكرون أعداء الله وأعداء البشر الذين حبسوا أقواتنا وأخفوا أرزاقنـــا ، وارتضوا لنا أن نجوع وأن نعرى ليكنزوا الذهب والفضة ويطيفوا بها إطافة الوثني بصنمه ، وليريقوا فيض مالهم على أرجل بنات إبليس : (الأرتستات) الراقصـــات ، وفي معابد الشهوة (المَلْـهَيَات) ونوادي القمار ، وفي كؤوس الحميم التي اسمها الشمبانيا والويسكي

يحارون ماذا يشترون بمالهم من اللذاذات المحرمة ، وفي أي مطرح من مطارح التبذير يلقونه ، والموظفون والعمال لا يكادون يجدون ثمن الغذاء والكساء إلا موظفاً خان أو عاملاً سرق ، فما حال الأرملة المفردة واليتيم الضائع ، والشيخ الذي لا سناد له من مال أو ولد ، وعندنا في دمشق من الأرزاق والبضائع ما لو أخرج لكفانا الحاجة سنين أخرى ، بل إن عندنا كما أكد لي من يوثق به ، بضائع لا تزال في مخازنها منذ الحرب الماضية ، والناس يحتاجون اليها والتجار يخفونها يرتقبون بها يوماً أشد ، وضائقة أحكم ، لا يدرون أن كل من أخفى بضاعة أو حبسها ينتظر بها ارتفاع الاسعار ، وحرمها من هو في حاجة اليها فهو محتكر قَلَّ ما حبسه أو كثر ، وهو عدو مؤذ ، ولص سارق، وليس بتاجر ، لان التجارة كما يفهمها عقلي القاصر إنما تكون بنقل البضاعة من بلد تكثر فيه الى بلد هي فيه قليلة ، أو بجمعها في موسمها لبيعها في غير موسمها أو بشرائها جملة وبيعها تفاريق ، ويأخذ التاجر الربح المعقول على ما بذل في ذلك من ماله ومن عمله ، أما ما نراه اليوم من اجتماع النفر من التجار حول مائدة من الرخام في (قهوة الكمال) مثلا ، وفي أيديهم أقلامهم وفي أفواههم دخائنهم أو أنابيب نراجيلهم ، يبيع أحدهم (بالة الخام) أو (كيس السكر) عشرين مرة بأسعار مختلفة ، ويشتريها ، وما باع على التحقيق ولا اشترى ، ولا قام من مكانه ولا أخذ ولا أعطى . ثم ينفض الاجتماع ويلقى الستار على من ربح منهم عشرة آلاف ليرة ، أو من خسر مثلها . أما هذا وأشباهه ــ وما أكثر أشباهه ــ فما هو لعمر الحق الا القمار بعينه وأنفه وذنبه .

وإذا كان حقاً [1] ما اعتمده (رينان) ، من أن الدولة تقوم على (الإرادة المشتركة)، لا على الارض وحدها ولا اللغة منفردة ، الى آخر ما في « نظريته »

---

(١) وليس حقاً كله .

المعروفة ، فليس التجار منا ولا نحن من التجار ، لأنهم يريدون غير ما نريد ولا ارادة مشتركة بيننا وبينهم ، فنحن نرجو الرخْص وهم يتمنون الغلاء ، ونحن نحب أن تنتهي الحرب وهم يحبون أن تدوم ، ونحن نطلب من الحكومة أن تسعِّر وتراقب ، وهم يطلبون لانفسهم حرية إجاعتنا وتعريتنا ، ونحن لا نجد مالاً نشتري به لوازمنا ، وهم لا يجدون لذة جديدة يصرفون فيها أموالهم ، فأي جامعة بيننا وبينهم ؟

* * *

وإذا كانت الرسالة جردت قبل الحرب [1] قلمها البليغ ، لنصرة أكرم مبدأ ، مبدأ الإحسان ، والدفاع عن الفقراء والمحتاجين ، وإثارة الحمية في نفوس الاغنياء القادرين ، ذلك والدنيا في رخاء والحياة سهلة ، والسلام قائم ، فأولى أن تستل هذا القلم العضب اليوم ، حين اشتد الخطب ، واتسعت بين الفريقين الشقة ، وازداد الاغنياء غنى ، والفقراء فقراً ، ونشأت هذه الطبقة المحدثة النعمة التي شبعت من المال ولا تزال في جوع الى الرفاهية والبلهنية واللذائذ : طبقة « أغنياء الحرب » .

* * *

إن أهل القصر لا يزالون في لهوهم وقصفهم ، وأهل الكوخ لا يزالون في كدهم وجدهم ، والمطر دائب ما ينقطع ، والبرد قارس ما يخف ، والليل موحش مخيف ، فمن لهؤلاء المساكين ، إن لم تجرد لنصرتهم الاقلام من أغمادها وتُشرع حتى تصدّع على هؤلاء الأغنياء حجارة القصر الذي اعتصموا فيه ،

(١) في النصف الأول من سنة ١٩٣٩ .

ليروا ما بالناس ويسمعوا ما خطب المساكين ، من إخوانهم في الوطن واللغة والدين . إنهم في سكرة الذهب ، فاصرخوا فيهم حتى يصحوا منها ، قبل أن يذهب السكر ويأتي « الأمر » ، فيروا أن أمر الله إذا جاء لا يرد . أفهموهم - وكيف السبيل الى إفهامهم - أننا رأينا رأي العين ، ما قرأنا في الكتب ، ولا سمعنا من الناس ، من غني في الحرب الماضية أكثر مما غنوا ، وبذر أضعاف ما بذروا ، ثم ذهب المال والأهل ، وغدا يسأل الناس على أبواب المساجد ولولا أنه يحرم التصريح بعد التلميح ، لصرحت بأسماء اقوام عرفناهم ، وإن جهلهم من قصرت سنه عن اسناننا .

* * *

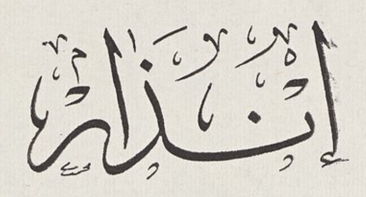
على أنني ما أعمم القول ، ولا أطلقه إطلاقاً ، وإن في الموسرين لمحسنين ، وفي التجار لمنصفين ، وما تخلو طبقة من خير ولا من شر ، ولكن في الموسرين من يريد الإحسان ولا يعرف المستحق له ، ومن المستحقين من لا يعرف المحسنين ، ومنهم من يعرف ولا يسأل ، أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . وإن من أوجب ما يجب علينا في هذه الحرب أن ننشىء جمعيات موثوق برجالها ، بأمانتهم ودينهم ، تكون في كل حي كالوسيط بين الغني المحسن والفقير المحتاج ، تأخذ من الاول وتعطي « بعد التحقّق من حاجته » الثاني ، ومن عرفتْ أنه اتخذ السؤال حرفة - على مقدرة منه على العمل ، أو على مال له قد خبأه ، فعلَ أكثر هؤلاء المكدين - رفعت أمره الى الحكومة لتعاقبه عقاب المتشردين ، ويا ليت هذه الجمعيات الإسلامية الكثيرة في مصر والشام والعراق : الإخوان والشبان والهداية والتمدن وأمثالها ، تجعل ذلك المطلب من بعض مطالبها .

ثم إن من أهم ما ينبغي لهذه الجمعيات أن تصنعه هو أن تختار للاحسان

سلوبا يهون به العطاء على المعطي ، وتجزل به المنفعة للآخذ . ولقد وجدت أنا واحداً من مائة أسلوب تخطر على البال ، حين كنت « من نحو ثلاث سنوات » قاضياً في القلمون ، وضاقت الاقوات وقل الخبز ،فدعوت الى ما سميته « مشروع الرغيف » ، وأعانني عليه القائم بأمر المنطقة يومئذ ففرضنا على أهل كل بيت من القادرين رغيفاً واحداً في اليوم وكنا من يجمعه، ووزعنا ما جمعناه على المحتاجين ، وتركنا من هم بين ذلك فلم نأخذ منهم ولم نعطهم ، وهذا الرغيف الذي لايصعب إعطاؤه على أحد ، ولا تشعر به الاسرة أحيا الله به أهل القلمون ـ وهم أكثر من سبعين ألفاً ـ في سنة القحط والضيق ، وما ذكرت ذلك لأفخر به ، ولا لأنه الاسلوب البديع الذي لا نظير له ،بل لأمثّل به على ما أريد ، والعبرة بالاعمال لا بالاقوال .

نسأل الله أن يوفقنا حتى نعمل ، ويرزقنا الإخلاص في عملنا حتى يقبل ، وألا يجعل هذه المقالة كالصرخة في البيداء .

★ ★ ★



نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

ركبت مع زميلي في البعثة القضائية السورية الاستاذ نهاد القاسم[1]، زورقاً في النيل حملنا من (جسر اسماعيل) الى (مصر العتيقة) بأجرة فاحشة قبضها منا صاحب الزورق ، وبعث معنا شاباً في نحو التاسعة عشرة ، قوي الجسم وديع النفس ، فأعمل المجاديف ساعة كاملة ، حتى هبط الليل وغسله العرق ، ونحن لم نصل ، فأشفقنا عليه وجربنا أن نسعده[2] فما أفلحنا ، وكدنا نقلب الزورق به وبنا ، فيسبح فينجو ونلقى نحن حتفنا ، فكففنا ، واكتفينا من الترفيه عنه بعمل بألسنتنا ، والمواساة باللسان أقل الإحسان ، حتى دنا الحديث من أجرته ، فسألناه :

ـ كم تأخذ ؟

ـ قال : أربعين قرشاً .

ـ قلنا : في اليوم ؟

---

(١) وزير العدل اليوم .

(٢) أي نساعده .

ـ فصاح مستغرباً : في اليوم ؟ كل ثمانية أيام !

ـ قلنا : أوليس لك أسرة ؟

ـ قال : أمّ أعولها .

ـ قلنا : أو تكفيك ؟

ـ قال : تكفيني ؟! أبداً .

ـ قلنا : فلماذا لا تطلب زيادة ؟

ـ قال : يضربني عمي [1] أحمد ويطردني ، ويخبر زملاءه فلا يشغلوني وأنا لا أعرف إلا هذه المهنة .

ـ قلنا : وكم يحصل هو ؟

ـ قال : هُوْ هُوْ ... كثير ... كثير ... عنده عشرة زوارق تمشي النهار كله ، كل ساعة أجرتها من عشرة الى عشرين قرشاً .

وتركناه وصعدنا الى البر ، ونحن لا نزال نفكر فيه : شاب طويل عريض ، كيف يعيش مع أمه بخمسة قروش في اليوم ؟ والفرّاش والآذن ؟ كيف يعيشان بثلاثة جنيهات في الشهر ؟ والمؤذن ؟ والإمام ؟ والشرطي ؟ والعسكري ؟ ماذا يصنع هؤلاء ؟ هل فكر فيهم أحد ممن ولاّهم الله أمر هذه الامة ، وائتمنهم على مالها ، وجعل اليهم المنح والمنع ، والرفع والوضع ؟

هل ساءل واحدهم نفسه وهو يتخير أطايب الطعام من فوق مائدته ماذا يأكل هؤلاء المفلسون ؟

هل فكر وهو ينتقي بَهِيّ الحلل من خزانة ثيابه ماذا يلبسون ؟

---

(١) يريد بقوله « عمي » معلمي وسيدي ولا يقول الخادم لسيده في الحجاز والعراق الا « عمي » .

هل خطر على باله وهو يفسد أخـــلاق أولاده بالترف ، ويتلف صحتهم بالسرف ، أن لهؤلاء بنين وبنات لاتكفي رواتبهم لسد جوعهم بالخبز القفار ، وستر عوراتهم بالخام ؟ رواتبهم لا تكفي للطعام والثيـاب فكيف إذا ولدت المرأة وجاءت نفقـــات الولادة ؟ فكيف إذا مرض الصبي وأقبلت مصروفات العيادة ؟ فكيف إذا خطبت البنت وكانت تكاليف الزواج ؟ فكيف إذا دخل الاولاد المدرسة وطالبتهم بثمن العلم ؟ فكيف إذا اشتهوا أن يتشبهوا بأبناء الناس يوماً ، فأرادوا أن يأكلوا الحلوى الحلال أو يطلبوا الملهى المباح ؟ أم قد حرمت هذه المتع على الفقراء ، وكتب عليهم أن تكون حظوظهم من دنياهم كحظوظ البهائم : ملء المعدة بأرخص الطعـــام ، وستر الجسم بأيسر الثياب ، والاستكنان بشر المساكن ؟ وأن تكون معيشتهم اقل من معيشـة كلاب الاغنياء ؟

قرأت في العدد ٦٧٣ من مجلة الاثنين ان (روى) كلب الوجيه الامثل ، فـــلان بك ، يفطر كل يوم بكيلو من الحليب ورغيفين من خبز (الفينو) و (باكيت) من (الشكولاطة) ثمنه بين ثمانية قروش وخمسة عشر قرشـــاً ويتغذى برطل ونصف رطل من اللحم المسلوق مع طبق مترع بالثريد ، وأن له طبيباً خاصاً ؛ وخادماً اجرته عشرة جنيهات في الشهر عمله أن يصحبـــه في سيارته الخاصة به ؛ في نزهتيه اليوميتين واشياء اخرى من هذه البابة ، يمتع بها هذا الوجيه الامثل ، كلبه المدلل ، لا يصل الى مثلها واحد في كل عشرة آلاف ممن يقطن هذا الوادى من بني آدم ؛ فلم أجد في العربية على سعتهـــا ، وعلى طول اشتغالي بها ، كلمة تليق بهذا السفيه المبذر الكافر بالنعمة وبالإنسانيـــة وبالوطن ، لاقولها له ؛ ولم أدرِ كيف اخاطب هذا المجتمع الذي بلغ الفســاد فيه ، والانتكاس في اوضـــاعه ان صارت الكلاب تأكل (العيش الفينو)

وكثير من الناس يتمنون الخبز الاسود ؛ وتركب السيارات وهم يمشون حفاة ؛ وتنام على الحرير وهم يهجعون على التراب ؛ ويقوم عليها طبيب خاص وهم غرقى في الامراض ؛ لا يجدون الطبيب .

هذه حال لا يرضى بها الله ، ولا العقل ، ولا الشرف ، وأنا اخاف والله ان تفتح علينا باباً من الشر لا يسد وتأتينا إن لم نتنبه لعلاجها بالداهية الدهياء ، بالشيوعية المدمرة ، التي تأكل اخضرنا ويابسنا ،وتمحق غنينا وفقيرنا ، فتكون لنا الراحة التي لا ألم بعدها : راحة الموت .

هذه حال لايمكن أن يحتملها بشر ، فإن كان من بيدهم الامر لا يمشون في الطرقات ،ولا يخاطبون الناس ، ولا يعرفون من الدنيا إلا القصر والسيارة والملاهي والرحلات ، فليسألوا : ما بال الفقراء ؟ ماذا يصنعون ؟ وما شأن صغار العمال والموظفين وكيف يعيشون ؟ وليعلموا ان عمر بن الخطاب كان يخاف ان تضيع شاة على شاطىء الفرات فيحاسبه الله عليها ، أفلا يخافون ان يسألهم الله عن أمة بقضها وقضيضها ستضيع على شاطىء النيل ؛ سيقتلها الجوع في اخصب ارض ، والمرض تحت اصفى سماء ، والجهل في أول دار للعلم والحضارة ؟

لقد كانت مصر طبقات يستعبد بعضها بعضاً ، فسوى بينها عمرو بن العاص باسم الاسلام وقطع هذا النظام الذي وصلته يد الدهر من عهد الفراعنة الاولين ، الى عهد الاسكندر ، الى ايام البطالسة والرومانيين ، وأفاض على الناس الهدى والعدل والنور ، فأحبوا لفعله هذا الدين ودخلوا فيه وتركوا له ديناً كان لهم ، واقبلوا عليه علماً وعملاً ، حتى كانت مصر مثابة الاسلام ، ومشرق انواره ، ومورد علومه افقدر عليها ان تعود القهقرى الى عهد الجاهلية الاولى ؟ اترجع نظامَ الطبقات الذي مات ؟ أيكون فيها سادة وعبيد ؟ ويعلو

بعض اهلها على بعض كأنما لم يفتح مصر عمرو ، ولم يركز فيها راية محمد ، ولم تكن مصر أم دنيا الاسلام ؟

أنا لا ادعو الى المساواة المطلقة بين الناس فذلك مالا يكون ولا يزال في الناس غني وفقير ما دام فيهم عامل خامل ، وذكي وبليد ، لن يكونوا ابداً سواء في ارزاقهم ومعايشهم الا إذا استوى الجنسان وتحقق حلم المدافعين عن (حقوق) المرأة فانقلبت رجلا ، ونبت لها شاربان و ... لحية !

ولكن أدعو الى تقريب المسافة بين طبقات الناس ، عاليها ودانيها ، وأن تضمن الحكومة لكل إنسان حقه الطبيعي في الطعام واللباس والمسكن ، وألا تقر في موازنتها راتباً لموظف مهما نزلت درجته ، لا يكفل هذا الحق له ولأسرته ، ولو كان كناس الطريق ، او ناطور المراحيض ، وان تسوي بين الناس (المساواة الممكنة) التي حققها الاسلام في أول الدهر في عهد الشيخين والشيوعية في ذَنَب الزمان في أيام ستالين ، وإن اختلف نوعها ، فكانت تلك مساواة في السعادة ، وهذه المساواة في الشقاء !

لقد نشأتُ في الشام ، وسِحْتُ في البلاد ، فرأيت في كل بلد اغنياء وفقراء ، وسعداء واشقياء ، ولكن لم أر ابداً مثل الذي رأيت في مصر !

فما هذا التفاوت بين البشر في مصر ؟ ماهذا الوضع الذي يجعل من الناس واحداً يملك مليوناً ومليوناً لا يملكون واحداً ؟ وألفاً يشتغلون لرجل ، والرجل لا يعمل عملا ؟ وإنساناً يظن نفسه من الغنى والكبر إلهاً ، وأناسيّ تحسب انها من الفقر والضعة بهائم ؟

متى كان هذا في طبع العربي ؟ متى كان في شرع المسلم ؟

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً ؟

يا ناس . راقبوا الله ، فإن هذا ظلم ، والله لا يرضى لعباده الظلم ولا يقرهم

عليه ، ولكنه يمد للظالم ثم يأخذه ؛ فاتقوا إخذة الله .

يا ناس . اعقلوا ، فإن هـذا باب الشيوعيـــة فإن لم تغاقوه دخلت عليكم فأهلكتكم .

يا ناس . ارحموا ، فإن هؤلاء ناس مثلكم ، لا تحسبوهم بهائم لئلا يصنعوا فيكم صنيع البهائم ، فيثوروا عليكم رفساً ونطحاً وعضاً ولدغاً ، فـلا تملكوا دفعهم ، ولا النجاة منهم .

لا ، لا تحقروهم ، فإن الدجاجة إذا هبت تحمي فراخها استماتت فانقلبت صقراً ، والقطة إذا ضويقت وغضبت صارت نمراً والماء إذا اندفع كان سيلاً مدمراً ، والهواء إذا انفجر كان إعصاراً مخرباً ، ولولا الضغط ما ثقب المسمار الخشب ، ولا اطلق المدفـــع القنبلة ، ولا زلزلت الارض ، ولا انفتحت البراكين ، ولا ثارت الشعوب .

فارحموهم ترحموا انفسكم ! واعدلوا فيهم تدفعوا عنكم يوماً اسود لا تعلمون إذا حلَّ عَمَّ ينجلي سواده ! وقوا مصر إن كنتم تحبون مصر ، جائحة مهلكة وداهية مكفهرة ، اولها الشيوعية وآخرها مالا يعلمه إلا الله ! وهذا إنذار !



إلى القرية يا شباب

نشرت في بغداد سنة ١٩٣٧

أنا أجلس كل عشية على سطح منزلنا في (الأعظمية) أشرف على الحقول التي تمتد إلى غير ماحد" ، أرقب الشمس وهي ترجع إلى خدرها ، والفلاحين وهم يؤوبون إلى منازلهم في خط طويل متسلسل كأنه نهر جار ، نهر يجري منذ عصور مديدة لايقف ولا ينقطع ولا يبلغ مصبَّه ، يسوقون دوابهم التي أنهكها العمل ، وأضناها الكد ، كما أضنى أصحابها الشغل المتواصل في الحقول ، الشغل السرمدي" الذي يبدأ مع الفلاح حين تبدأ حياته ، ولا ينتهي حتى تنتهي ، يشتغلون وهم أطفال ، ويشتغلون وهم شباب ، ويشتغلون وهم شيوخ ، لا يستريحون ولا ينالون على تعبهم إلا لقمة من خبز الشعير .

فيالروعة الواقع !

هؤلاء الذين يشتغلون هم ونساؤهم وأطفالهم ودوابهم ليقدموا للناس القمح لايأكلون خبز القمح ! هؤلاء الذين يرفعون عماد الدولة لاتدري بهم الدولة ، ولاتهتم بهم ! هؤلاء الذين يملؤون بالذهب صناديق السادة الكسالى يحتقرهم السادة ، ولا يدعون في جيوبهم قرشاً يشترون به ثوباً نظيفاً لطفلهم الذي

يتبع طفل السيد ، كأنه الكلب الجائـــع يسأله قطعة من (العيش) الأبيض الذي يزرعه أبوه هو ، فلا يعطيه إلا الحجر الذي يرجمه به ، إنه يستنكف عن أن يمسه بيده الناعمة الرَّخْـصة البنان .

كنت أرى ذلك فيذهب بي الفكر إلى عشرات من المشاهد رأيتها في قرى الشام وفيما زرت من قرى مصر .

يذهب بي الفكر إلى حوران يوم زرت رفيقاً لي كان معلماً في إحـدى قراها ، فرأيته يسكن عنـد الفـلاح في داره المبنيَّـــة من الأحجار السود المكدسات ، بعضها فوق بعض ، لا يمسـكها اسمنت ولا طـين ، ولا يدري الساكن تحتها متى تهبط عليه فترديه قتيلا . وفي هذه الدار غرف متعددات ، في الأولى البقر ، وفي الثانية الحمير ، وفي الثالثـــة الخرفان ، وفي الرابعة الفلاح وأسرته ، يعيشون كما تعيش تلك البهائم . ولقـد أمسكت بأنفي لمـا دخلت الغرفة ... لان الرائحة كادت تقتلني : رائحـــة الدواب الـتي تأتي من هناك ، ورائحة (الجلـَّة ...) التي يوقدونها في وسط الغرفة ، في حفرة حفروها فيها ، لانهم لايملكون ثمن الحطب ولا الموقد ، ولكني صـبرت وولجت متوكلا على الله . ولمـا صافحني الفلاح بيده المتشققة الخشنة شعرت كـأني ألمس مـبرداً ، ولكني صبرت (أيضاً) لعلمي بأن هـذه اليد الخشنة هى الـتي تقدم إليّ الخبز الذي أعيش به ، والمال الذي آخذ منه راتبي ، وأشتري منـه هذه الثياب التي أفتخر بها على الفلاح ، وأخشى أن يدنسها بيته . ثم رأيت أطفاله وأردت نفسي على مداعبتهم ، فإذا هم يحملون الأقذار على ثيابهم ، والذباب عـــلى أفواههم ، والقذى في عيونهم ، والمرض في أجسامهم ، وليس في القرية طبيب ، وليس فيها دائرة صحة ، وليس عند الفلاح مال ، وليس عنده علم . إن السادة الذين أخذوا

ماله وثمرة كدّه لم يعلموه ، ولم يعطوه أجرة الطبيب ... ثم جاء الفلاح بالاكل وأعقبه بالشاي ، وإني أعفي القارىء من وصف هـذا الاكل وهذا الشاي ... أخشى ان يصيبه الغثيان !

ويعود بي الفكر إلى حوران ، وقد زرت تلك القرية مرة ثانية ، وكان ذلك في الحصاد ، يوم حق لهذا الفلاح أن يتمتع بتعبه بعد سعي موسم كامل ، يوم نال مكافأته على هذا التعب الطويل ، والشغل المضني ، فـإذا الدائنون المرابون والجابي ، ينتظرون على باب المنزل . فلما رجع الفلاح إلى منزله هاشاً باشاً مبتسماً ، يحمل المال الذي حصل عليه بجـدّ يمينه وعرق جبينه ، اعترضوا طريقه قبل أن يصل إلى أولاده ، فأخذوا المال كله فـلم يف بالذي يطلبونه وبقي عليه للحكومة أربع وثلاثون ليرة ...

ياللقانون ! يالحق الخزينة ...

يأيها الجابي شدّ ركابك ! يأيها الجندي اعدّ سوطك وسلاحك ! ياايها الناس اقيموا القيامة على هذا اللص الذي اكل اموال الدولة ...

حلّ البلاء بساحة الفلاح المسكين ، ونزل عليه جنود الدرك يقيمون حتى يؤدي المال ، يتشهون عليه المآكل ، ولا يرضون بغـير الدجاج والخرفان ، وهم في بيوتهم لا يأكلوق إلا الزيتون والجبن ، ويأخذون شـعيره ليطعموه دوابهم ويضربون وجهه وظهره ... إنهم يطلبون بقية الضريبة ...

ولكن لم يبق عنده شيء .

إذن فلتبع امتعته .

ولم يجدوا عنده إلا الفراش القـذر ، واللحاف الخلق ، والبساط المخرق ، والقدر الاسود ، فباعوها بالمزاد العلني وتركوه على الارض .

ولما رجع الجباة كلهم الى العاصمة ؛ وجمعوا ماملأ الخزانة تبسم ولي الامر ، وقال لأعوانه :

ـ لقد اجتمع مال يكفي السنة كلها ، وإننا لا نستطيع أن نرد هاتيك الوسائط كلها والشفاعات ، فأعدوا مرسوماً بإعفاء فـلان بك من الضرائب المتراكمة عليه من سبع سنين ، وهي تسعة وعشرون ألف ليرة وسبعة وخمسون قرشاً .

أعفوه ، ولكن تسعة عشر ألف فلاح صاروا ينامون على الارض ، لم يبق لهم فراش !

* * *

كنت أذكر ذلك وأنا أنظر الى خط الفلاحين الذين يعودون الى دورهم ، وقد غاب أوله خلال الظلام ، فأفكر في هؤلاء الفلاحين الى متى يمشـون ؟ أما لمشاهم نهاية ؟ أما لطريقهم آخر ؟ أكتب عليهم أن يشاركوا البقر والحمـير في عملهم وطعامهم وسكناهم ؟ أكان لزاماً عليهم أن يعملوا أبداً ليستريح الـ (بك) أو (الباشا) ؟ ويجوعوا ليأكل ؟ ويفنوا جسومهم ونفوسهم ليأخذ هو الذهب فينفقه على موائد الخمور ؟

أيبقى هؤلاء الناس جاهلين ، يعيشون بمعزل عن الحيـاة ، يترفع الشاب المتعلم عن الجلوس إليهم ومصافحتهم والسلام عليهم ، وإذا بعثوه ليكونوا معلماً لهم ، أو موظفاً فيهم ، أقام الارض وأقعدها ولم يدع وسيلة للتخلص من هذا (النفي) إلا توسل بها ؟

إن الفلاحين في بلاد العرب ، هم جمهرة السكان ، هم حياة البلاد ، هم الشعب

فإلى متى يبقون محرومين من العلم والصحة والنظافة والإنصاف والمدنية ؟

فكروا في هذا أيها الشباب .

يا أيها الشباب الذين يعرفون القرية ومعيشتها وحالة أهلها .

يا أيها الشباب الذين يحبون بلادهم ، ويريدون صلاحها .

إن الشاب النافع هو الذي يخدم ويعمل ويدع أثراً صالحاً ، أما صاحب الجعجعة والكلام الفارغ فلا ينفع أحداً ، إن ميدان القرية أحوج الميادين الى همم الشباب ، وذكائهم ، ومعرفتهم ونشاطهم ، لا أريد أن يترك الطلاب مدارسهم ليزرعوا الارض ، ويعيشوا في الحقل ، ولكن أريد أن يفكروا بمثل (مشروع إنعاش القرى) الذي قام به في صيف سنة ١٩٣٣ نفر من طلاب الكلية الاميركية في بيروت، فانتخبوا من المتطوعين للعمل في القرية فريقاً بحثوا اسبوعاً في (مؤتمر) عقدوه ، ودرسوا احوال القرية اللبنانية ، وعرفوا داءها ، وفتشوا عن دوائها ، وكان يعاونهم بعض الاساتذة والخبراء الفنيين ، ثم الفوا اربع بعثات وأرسلوها الى القرى ، فدرست الحال عن كثب ، ورأت ان العمل في قرية واحدة يقيمون فيها الصيف كله اسهل وانفع ، وانه يجب على اعضاء البعثة ان يحملوا خياماً يبيتون فيها ، وطعاماً لهم وشرابا ، ليخففوا عن الفلاح ولا يرزؤوه شيئاً ، وليروه لونا من الحياة جديداً ويحببوه اليه ، وكان من اهم اغراض اصحاب ذلك المشروع :

١ – الصحة ، فيكون في البعثة الصحية قسم للدرس والإحصاء والتعليم ، وقسم للتطبيب .

٢ – النظافة ، بتعليم الناس ومحاضرتهم ، وبالعمل على إصلاح مجاري الماء الطيب والخبيث وتنظيف الطرق وتجفيف البرك .

٣ – الزراعة ، بإرشاد الفلاح الى طرقها الجديدة ، وآلاتها الحديثة ، واصول مكافحة الحشرات والامراض .

٤ – تعليم الاميين من الفلاحين ، والعمل على إنشاء المدارس لأولادهم (١) .

* * *

إننا اليوم على أبواب العطلة الصيفية ، وسيبقى أكثر الطلاب في المدن ، يرتادون القهوات ،ويؤمون السينمات ، ولا ينفعون خلالها ولا ينتفعون . فهل يعمل فريق من الطـلاب في كل بلد على (إنعاش القرى) على نحو ماذكرنا ، فيكون لهم من ذلك صحة في أجسامهم ، وقوة في نفوسهم ، وخبرة ببلادهم ، وخدمة لإخوانهم ، ومأثرة باقية عند الناس وعند الله ، ونجاة من ملل الصيف وحرّه ، ويكون لهم من هذه الإقامة في القرية تحت الخيام ، وهذا التعاون مع إخوانهم على هذا العمل الصالح سعـادة تمر الايام ويذهب الشباب ، ولا تمّحي من النفس ذكراها ، ويكون ذلك هو الدواء الشافي لهـذا الداء المثلث الذي استعصى على الاساة ، داء الفقر والجهل والضعف ؟

وهل يعمل هؤلاء الشباب عـلى إنشاء (أدب القرية) ؟ ذلك بأن يدعوا الكتاب والشعراءالى وصف حياة القرية ، وأن يكتبوا فيها القصص ،والمباحث ويختلطوا بالفلاحين ، ويترجموا لنا آمالهم وآلامهم . وهذا اللون من ألوان الادب موجود في كل الالسنة واللغات إلا اللسان العربي ، فانه قليل فيـه أو هو نادر ، وعلة ذلك احتقارنا الفلاح ، وإهمالنا شأنه ، ونسياننا أن الفلاحين ناس مثلنا ، يبذلون في سبيلنا كل شيء دون أن تصل إليهم مـكافأة ، أو ينالوا ربحاً ، أو يسمعوا شكراً ؛ بل إنهم ليتمنون أن ينظر إليهم الـ (بك) كماينظر الى كلبه العزيز عليه ، الاثير لديه .

فيا لهؤلاء المساكين !

---

(١) من اقوال الصحف يومئذ .

إن المروءة والشرف والواجب الوطني ، والدين والإنسانية ، وكل مبدأ مقدس يدعوكم الى مساعدة الفلاح ، يا أيها الشباب .

فيا أيها الشباب : الى القرية ... الى القرية !

* * *

لا . لست شيوعياً ، ولا اشتراكياً ، ولكني إنسان ، وإني مسلم !

★ ★ ★

في منظار الخفيف

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

لم يعلم أحد لِمَ لَمْ يكتب الصديق النبيل الاستاذ محمود الخفيف في العدد الماضي من « الرسالة » ، ولم يعلم هو من الأمر الا أنه فقد منظاره فجأة ، ثم وجده كما فقده فجأة ، لم يدر أين ذهب ولا كيف أتى ، ولم يعرف سرّ المسألة إلا أنا ، لأني سرقت « المنظار » من جيبه لما زارني في « الرسالة » في الاسبوع الماضي ، ورددته الى جيبه لما مرّ بي أمس ، وقد كان عرض عليّ أن يعيرنيه لما رأى رغبتي فيه ، ولكني خشيت (وسوء الظن عصمة) أن يفسده أو يصنع به شيئاً يمنعني من الاستمتاع به ، كيلا أعود الى طلبه منه ، فآثرت أن آخذه على حين غفلة منه لأستعمله صحيحاً غير فاسد ، ثم إن السرقة أخت الاغتصاب ، وقد نصّ (الشاعر) على أن :

من أطاق التماس شيء غلاباً ... واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

والشعراء أئمة الادب ، ولا يستطيع « مقلد » مثلي مخالفة نصوص « الائمة » ؛ لذلك سرقت « المنظار » ، ولكني لم أرَ به مثل تلك الصور الفنيّة الكاملة التي كان يراها الاستاذ محمود ، وإنما رأيت ... اسمعوا ماذا رأيت .

* * *

وضعت « المنظار » على عيني، وخرجت به من الدار ، وكنت على موعد مع صديق ازور معه جامع محمد علي ، وسرت أنظر الى بعيد ، فلم أخط خطوات حتى أحسست برجّة في جسدي ، وألم في ركبتي وقدمي ، وإذا أنا قد سقطت في حفرة لم أنتبه لها في هذا الطريق الملىء بالحفر عند جسر الملك الصالح .

وأقبل المارة يخرجونني ويسألونني كيف وقعت ؟!

قلت : كما وقع الفلكي الذي كان ينظر في النجوم ومسالكها ، ويدقّق في حركاتها وسكناتها ، ويعمى عما تحت قدميه ، وكما (يسقط) الكاتب الذي يتكلم في الفلسفات العليا ، ويغفل عن أدواء أمته وأمراضها ، والشاعر الذي يحلّق في سماوات الخيال ، ويدع أمته تتمرغ في حضيض الشقاء .

وتركتهم يعجبون من هذا الكلام الذي حسبوه كلام مجنون ؛ وسرت حذراً ؛ انظر حولي كيلا ألدغ مرتين من جحر واحد ، فأكون شرّاً من الحمار ، لان الحمار إن سقط في حفرة مرة ، يجتنبها فلا يسقط فيها أخرى ، والإنسان (الذي يؤمن به أخونا الاستاذخلاف [1]) يسقط في الحفرة الواحدة خمسين مرة ، ثم لا يجتنبها ولا يبتعد عنها .

ونظرت في « المنظار » فلم أرَ ؛ إلا سوءات مكشوفة و « أوساخاً » ظاهرة ، وبلايا من هذه البلايا ؛ فكدت من غضبي أكسر هذا « المنظار » المسحور الذي ينظر فيه الاستاذ محمود فيرى كل جميل وعظيم ؛ وأنظر أنا فلا أرى إلا الاوساخ والسوءات ، ورفعته عن عيني ، وأنعمت النظر ؛ فإذا الذي أراه حقيقة كنت أمر بها فلا أنتبه لها ، لتعودي عليها ، وتنبهت لها الآن لما

---

(١) صاحب كتاب « اؤمن بالانسان »

ركبت على عيني « المنظار » ، وهي أن الطريق الذي أسلكه كل يوم من داري في آخر الروضة الى جسر الملك الصالح وأحسبه نزهاً جميلاً ، قد فاض بالاقذار من الجانبين ، فمن هنا هؤلاء الناس من الرجال : الشيب والشبان ، والأولاد : البنات والصبيان ، والنساء أحياناً ؛ (حتى النساء !) يدعون جميعاً بيوت الطهارة وهي أمامهم : فيها الماء ، وعليها الحارس ، وفيها الستر والنظافة ، و « يقضون حاجاتهم » على طول « الشط » أمام الناس ، ومن هناك البنات المصريات في آخر الشارع ، والأولاد المصريون في أوله ، يدعون جميعاً المدارس المصرية الطاهرة النظيفة ، ويقصدون هاتين المدرستين الانكليزيتين ، يفتحون ادمغتهم للانكليز وصنائعهم من اصحاب الاغراض والحاجات ، ليحققوا فيها أغراضهم ، و « يقضوا حاجاتهم » ويجعلوها عشاً لكل وباء وكل مرض ، يضعف الوطنية ، ويؤذي الدين . واذا طهر الشط من أقذاره الكناس ، فلن يطهر البلد من أقذار هذه المدارس ، إلا أن تكنسها الحكومة من أرض مصر وتلقيها وأهلها في البحر .

وركبت الترام وأنا مغيظ مما رأيت محنق ، فرأيت و « المنظار » على عيني ما سلاني وسرى عني ، رأيت أمامي وجهاً حلواً ، دقيق القسمات ، نظيفاً لم تنزل ساحته الأصباغ ، ولا مسته يد التجميل ، ولكن جمله ربه ، وصبغه بصبغته ومن أحسن من الله صبغة ؟ فيه عينان زرقاوان ، وفم متجمع مستدير ناضج الشفتين ، فوقه شعر أشقر ، لا هو بالطويل المسترسل ، ولا هو بالقصير المحلوق وسوالف ليست مقطوطة كسوالف الرجال ، ولا مطلقة كسوالف النساء ، على جسم قد غطته سراويل سابغة ، ورداء له أكمام طويلة ، تبرز منها يد بضة ملفوفة ، ما تعرف أهي يد بنت مدللة ، أم يد غلام مترف ، والعمر في نحو الخامسة عشرة ، فجعلت أتساءل حائراً : هل هذا شاب أم فتاة ؟ وحاولت أن

أجد علامة دالّة ، أو أمارة ظاهرة ، فعدمتُ العلامات ، وخفيت عني الامارات وطالت حيرتي حتى لقد هممت أن أمد يدى فأتلمّس ؛ ومنعني أن أفعل أني استحييت وخفت العواقب ، وأن الشاب قام ، أو أن الفتاة قامت ، فنزل ، أو نزلت ، وكل راكب في الترام يتساءل مثل تساؤلي ، ويحار مثل حيرتي !

وركب مكانها (أو مكانه) ، امرأة افرنجية كأنها من لطافتها ؛ (سيد قشطة [1]) تجر وراءها ثلاثة : (ولدين) كالخنزيرين السمينين ، لا يعرف طولهما من عرضهما إلا بالقياس ، (وعجيزة) مثل كيس التبن ؛ ثم جلست بين الرجلين على طرف المقعد ، وهي تلهث كأنها قاطرة حلوان ؛ ثم اندفعت في المقعد فضغطت الرجلين ، فأدخلت واحداً في الزاوية من هنا ، وواحداً من هناك ، وأقعدت الخنزيرين (أي الولدين) على الركبتين ، وتنفست الصعداء بعد هذا الجهد ، فكانت نفخة مفاجئة أطارت جريدة كانت في يد الراكب أمامها .

وأقبل الجابي (الكمساري) وهو رجل أسمر طويل ، عبوس الوجه ، متين البناء ، له شاربان كشاربي مركب ، فقال لها :

- فلوس !

فمدت اليه يدها بثمانية مليمات ، كأنها تمدها الى سائل ، فقال لها :

- هنا بريمو ، خمسة عشر مليما .

فرفعت اليه هذه الكرة المفلطحة التي تسمى في جغرافية جسمها (رأساً) ، وصعّرت خدها ، ومدت شفتها ، حتى صار وجهها مثل القرعة اليابسة ، وقالت :

- أنا ما ْبياطي ، أنا مش آهِد كويس .

---

(١) هو فرس البحر ، بعامية مصر ، وهو اغلظ حيوان في الدنيا .

ــ خمسة عشر مليما يا مدام .

فغضبت ، وصاحت :

ــ انتي مِسْريينْ ما بِسِيرِلتيف أبداً ، بِيتَمْ متوَهّش !

فأسرعت أنزع « المنظار » لألعن أباها ، ومن جاء بها الى مصر ، ولكني وجدت (الكمساري) قد سبقني الى هذه المكرمة ، ورأيته قد انقلبت عيناه في أمّ رأسه ، واصفر وجهه حتى صار كقشرة الليمونة ، وارتجفت شواربه ، ولكنه تماسك وتثبت ، وصفّر فوقف[1] الترامَ وقال لها :

ــ لو كنت رجلاً لرأيت ، ولكنك امرأة ، ونحن لا نمد أيدينا الى النساء فقومي انزلي .

وأكبرت فعله ، وقمت أهنئه وأصافحه ، ولولا خشونة خدّه ، وأنها لا تطيب قبلته ، لو ثبت عليه فقبلته ، وتمنيت أن يكون كل مصرىّ مثله ، وحمدت للمنظار ما أرانيه ، ولكن الفرصة لم تطل ، فقد فتح الباب ودخل منه سائل[2] كأنه في جسمه وفي عينيه بشار بن برد ، عليه ثياب لو أن للقذارة (جائزة) عالمية ، لنال بها الجائزة ، يغنى بصوت تخاله ــ والعياذ بالله ــ صوت ثلاثة حمير تنهق معاً ، على نغمة (الجازبند) نهيقاً مقلوباً ، كأنه صراخ الجن في الأودية المسحورة ، أو نواح المَرَدة في قعر الجحيم ، أو هو شيء افظع من ذلك كله : هو الغناء الافرنجي ! وهو ينشد شعراً لا تفهم له وزناً ولا قافية ولا معنى ولا تجد فيه طرباً ولا متعة ولا لذة ، فكأنه شعر بشر فارس .

فلما اقترب مني لم أجد أحسن من الفرار ، فنزلت من الترام عند الشارع الذي كان اسمه أيام الاحتلال « شارع مستشفى اللادي كرومر » ، وكنت

---

(١) وقفه ولا يقال أوقفه .

(٢) ولا يخلو الترام في مصر لحظة من سائل .

انا المصري الأصل ، الدمشقي المولد والبلد ، أتألم وأقول ماذا يكون لهـذه التسمية من ألم في نفوس المصريين أصلا ومولداً وبلداً ، وهي تذكرهم بأعدى عدو لهم ، وتمنّ عليهم بمستشفى أنشأته زوجته ببعض ما سرقت من مال مصر ، مع ما أصيبت به مصر على يد زوجها وقومه ، من ذهاب الأنفس والاموال ، ومن ضياع الحرية وهي أعز على الأبىّ من النفس والمال ، وأنا أوثر أن اموت في العراء (إن لم يكن الا هذا المستشفى) ، على أن اشفى فيه ، لأن شفاء أجسامنا فيه ، يمرض وطنيتنا ، بمحبة هذه (اللادي) وذكرها بالخير ، وعرفان الجميل لها . فلما تنبهت مصر ، وذهبت تخطب أهل الارض من فوق منبر مجلس الامن ، تعرفهم ظلم الانـكليز إياها ، وعدوانهم عليها ، رفع الشباب هذه اللوحة ووضعوا مكانها لوحة سمَّوه فيها « شارع دنشواي » ، وأشهد لقد كانت تسمية عبقرية ، وكان ردّاً بارعاً ، وكان جواباً لا يصدر الا عن إلهام .

ووجهت « المنظار » الى هذه اللوحة الجديدة ، أمتع بها روحي ، وأنعش نفسي ، فلم أجدها ، ووجدت اللوحة القديمة قد جددت ، فمسحت « المنظـار » ونظرت فلم أر غيرها ، فرفعته عن عيني ونظرت ، فاذا أنا أجد اللوحة القديمة قد جددت حقاً .

لماذا ؟ هل عادت أيام الاحتلال ؟!

ورفعت « المنظار » عن عيني لئلا أسقط في حفرة ، أو أصدم أحداً ، حتى دخلنا المسجد ، فقلت اضعه لحظة ، عليّ أرى في المسجد ما يسر ويفرح بعد تلك المحزنات ، وكانت الصلاة قد اقتربت ، والمسجد لبعده ، ولازدحام المساجـد من حوله ، كأنه خالٍ فما فيـه إلا أربعة صفوف ، ونظرت فرأيت ثلاث فتيات سوافر كسائر نساء مصر ، شعورهن يموج على اكتافهن ، وأذرعهن بارزات كلها من الـكم الياباني (الجابونيز) الذي يبدي ما تحت الإبط لكل ذي عينين ،

والسيقان مكشوفات لا جوارب تصعد لسترها ، ولا ثوب ينزل لتغطيتهـــا ، ومعهن أمهن ترتدي هذه الملاءة ذات البرقع الذي لا يستر على الوجــه الا مداخل النفَس من الأنف فقط ، ويظهر الباقي كله ؛ وأسرعت الأم وبناتها الى حوض الماء يتوضأن ، ويمددن أرجلهن لغسلها ، فلا يبقى مستوراً إلا ...الذي لم يكشف (١) ... ثم يقفن هكذا للصلاة ... وفي المسجدمشايـخ ، رأوهن فلم يكلمهن أحـد منهم ، والخطيب رآهن فـلم يعرض لهن ، فنزعت « المنظار » وأغمضت عينىَّ ، وحاولت أن أنساهن وأتوجه الى الصلاة ، فلم استطع ، لأن صورتهن لا تزال (أقول الحق) أمام عيني . فاذا كن يلحقننا حتى الى المسجد فكيف نفرُّ يا قوم منهن ؟ وكيف يصنع الشاب العزَب ليتقي إغراءهنّ ؟

ألم يخطر على بال أحد من العلماء والآباء ، هذا السؤال ؟!

ورجعنا و « المنظار » على عيني ، ولكنه أخذ يكذب ويشوّه الحقـائق ، فيريني خياماً من القماش في أول شارع الخديوي اسماعيل ، وعليها لوحة تقول : إن هذه الخيام (إدارة تنظيم عمارة المدن) .

فأقول : ينظمون عمارة المدن ، ولا يستطيعون عمارة حجرتين من اللبن والخشب ؟ هذا لا يمكن ؛ وأهم بطرح المنظار ، ثم أذكر أن هذا ممكن جداً في الشرق !

أليس يأمر الناس بالتقوى من ليس تقياً ، ويدرّس البلاغة من ليس بليغاً ، ويقود الأمة من يحتاج الى من يقوده ، يعطي الاشياء فاقدها ، ويولي الامور غير أهلها ؟!

وتابع « المنظار » الكذب ، حتى اذا وصل الى دار المفوضية السورية ،

---

(١) اقسم اني رأيت ذلك بعيني لم اتخيله تخيلاً !

وهي أفخم من زميلتيها الامريكية والروسية! زاغ «المنظار» عن كل ما في الدار واستقر على « عقد الايجار » ، فأراني فيه رقم (٣٠٠) جنيـــه في الشهر ، ثم ذهب بي الى دمشق ؛ فبصَّرني بآلاف التلاميذ يزدحمون كل سنـــة على أبواب المدارس ؛ ثم يرتدون عنها لأنها لا تتسع لهم ، وليس عند الوزارة ما تستأجر به دوراً جديدة ، لأن اجرة الدار (١٥٠) جنيهاً في السنة ! ثم دار بي عـلى المفوضيات السورية في آفاق الارض ليريني ...

ولكني أغمضت عيني فلم أنظر ، لأن هذا كذب ظاهر ، ونحن أعقـل من أن نؤثر المظاهر على الجواهر ، والتزاويق على الحقائق ، والخارجية على المعارف وثوب العرس على العروس ! ونحن أعقل من أن نشتري (كرافتة) بخمسـة جنيهات ، ونمشي بلا سراويل !

* * *

وصحت بالاستاذ محمود الخفيف ، أن تعال خذ « منظارك » يا أستاذ محمود حسبي ما رأيت !



دفاع عن الأدب

نشرت في سنة ١٩٤٥

لقد كانت معركة (عين جالوت) أجل خطراً ، وأعظم أثراً ، وأبرك على الحضارة ، وأجدى على الإنسانية ، من موقعة (الحدث) ، ولكنها لم تجد الشاعر العبقري الذي ينهض بها ، ويرفعها بيمينه يلوح بها في طريق التاريخ ، ليراها الناس أبداً ، أمة بعد أمة ، وجيلا عقب جيل ، كما صنع المتنبي بموقعة (الحدث) حين فتح لها في الشعر فتحاً لم يفتح مثله (سيف الدولة) في بلاد الروم ، وبنى لها في الادب قلعة باقية ، على حين قد خرب الدهر تلك القلعة التي بناها سيف الدولة ، فكان من معجزات الشعر (وإن في الشعر لإعجازاً) أن خلدت هذه الموقعة ، وجلت وملأت الأسماع والأفواه والقلوب ، ونسيت مواقع أعظم منها ، ولولا قصيدة ابن الحسين ما عرفت طريق الخلود .

ولقد كان فتح عمورية عظيما في الفتوح ، ولكن فتح حبيب في بائيته أعظم منه . ومن قبل خلدت بلاغة هوميروس بطولة القوم في طروادة ، ولولاه لضاعت في ظلام ماقبل التاريخ . وإني لأكرم القراء أن أسيء بهم ظني فأرى بهم حاجة إلى سرد الأمثلة ، وإقامة البينات ، على أمر ما بهم جهله ولا

نكرانه ، فلولا الأدب ما خلدت المكرمات ، ولا ذكرت البطولات . ورب قصيدة تجيش بها نفس شاعر منكر مجهول ، قد شغل الناس عنه سناء الأمير ورواؤه ، أبقى على الدهر من هذا السناء وهذا الرواء . وربما جاء زمان نسى الناس فيه الأمير نفسه ، فغاص في هذا النهر البشري الذي يجري أبداً من المهد إلى اللحد ، يولد أهله ويعيشون ويموتون ولا يدري بهم أحد ولا يذكرهم إنسان ولم يمسسه من الخلود إلا النفحة التي ينفحه بها الشاعر .

هذا حق لا يجهله أحد إلا ذوو السلطان منا ، وكانوا هم أولى بمعرفته والاستفادة منه ، والأحداث تدعوهم إلى ذلك ولكنهم لا يجيبون . وها هو ذا حادث العدوان [1] ، أحبوا أن يدونوا تاريخه ، ويعرضوا صوره ، ويعرفوا به البعيد النائي ، ويذكروا به القريب الرائي ، فأجمعوا أمرهم على إخراج (الكتاب الأسود) في وصف هذا الحادث ، وسموا له رجالا ، طيبين ممتازين ، غير أنهم ليسوا من ذوي الأقلام ، ولا من الأدباء ، وإن في دمشق (لو كانوا يعلمون) أقلاماً حداداً ، إذا انتضتها الحكومة قطّت بها وقدّت وفَرَتْ ، فإلام تدخر هذه الأقلام إن لم تستلّ في هذا اليوم الأسود ؟ ومن يعرض على الدنيا كلها حديث (الحادث) إذا أهملت هذه الأقلام ، ونسيت وتركت تصدأ في أغمادها ؟ أيعرضه صحفي بمقالة تعيش ما عاش (العدد) الذي تنشر فيه ، أم موظف بتقرير أسلوبه لعنة للبلاغة في عليائها ؟

ثم استلمنا الجيش وعرضه رئيسنا فكان يوماً أغرّ محجلاً في عمر الشام ، فمن يمسك هذا اليوم ألاّ يهوى في وادي النسيان ؟ من يحفظ له جلاله وجماله وعظمته غير الأدباء ؟ فما لأولي الأمر دعوا له كل قاص ودان إلا أهل الأدب الحق ؟

«١» العدوان الفرنسي المعروف

أهل البلاغة ، ما دعوهم ولا سألوا عن مكانهم ولا ذكروهم ، ولو دعوا أديبا لصنع لهم بمقالة واحدة شيئاً يبقى اذا ذهب كل هذا الذي أعدوه .

وفي كل يوم تنبت أقلام غضة فلا يتعهدها أحد بسقى ولا رعاية فتجف وتموت . وتحطم عواصف الايام وأرزاؤها أقلاماً متينة كأشجار السنديان طالما أظلت وبسقت فلا يبكي عليها أحد . وتزهر أقلام ثم تؤتي أكلها ثمراً ناضجاً حلواً نافعا فلا يستبشر بها أحد ، ويقولون بعد ذلك: لماذا لا ينتج الادباء ؟ لماذا لا يخلدون أيام الوطن؟ يا ويحكم ! إننا والله لا نعرف أيام الوطن الا على السماع والفضل لنا اذا استطعنا أن نكتب عنها سطراً واحداً .

لقد أردت أن أدخل القلعة غداة يوم الحادث ، وأن أجول خلال الحرائق وألج البرلمان ، فمنعني جنود لا يعرفونني ولا يفهمون عني بلساني ، ولو تركت ألج ورأيت بعيني ما وصفته على السماع لكتبت لكم شيئاً يبكي المحب ساعة الوصال ، والعروس ليلة الزفاف ، ويرقق قلب الموتور يوم الانتقام ولو أشهدت هذا العرض لكتبت لكم قصيدة مجد تكون للاعصاب ناراً تشعلها حماسة ، وللقلوب خمراً تميلها طربا ، ولهذا الجيش جيشاً آخر . ولو أحضرت حفلة رفع العلم على الثكنة الحميدية لكتبت غير ما كان نشر في الرسالة [1] ، لأن الذي يتخيل ويكتب بارد الدم هادىء الأعصاب ، غير الذي تمشي الكهرباء في أعصابه فتهزها هزاً ، فيمسك قلمه ويدع روحه تملي عليه .

ولست ـ علم الله ـ أريد مالا من أولى الامر أو عطاء ، ولا أبتغي من مجالستهم شرفاً ، فعندي من المال مايسد حاجتي ، ومن الشرف ما يكفيني ، وإنما آسف على قوة فيّ ، وفي أمثالي من حملة الاقلام ، تذهب هدراً ، وتضمحل

---

(١) بعنوان « دموع ودموع » العدد ٦٣٤ .

والوطن يحتاج اليها ، وهي تستطيع أن تكسبه مجداً لا ينال بغيرها .

* * *

فيا أيها الحاكمون ! اذكروا أنكم تحتاجون الى الادباء ليكسبوكم الخلود وليفيضوا على أمجادكم الحياة ، أما هم فلا يحتاجون اليكم ، لأنهم يستطيعون أن يخلقوا بأدبهم ملوكا وأبطالا ، وينشؤوا عالماً ، ويقيموا لأنفسهم وللناس دنيا ، إن تكن من الوهم ، فرب وهم أفعل في نفس صاحبه من الحقيقة ، وأثبت من الواقع . ورب شخص (روائي) خرج من خيال أديب ، أحيا حياة ، وأظهر وجوداً من اشخاص اللحم والدم ، أسمعتم بعطيل ودون جوان وآرباجون ؟ والحارث بن همام وعيسى بن هشام .؟

وبعد فهذا دفاع عن الادب ، لا عن الادباء ، فاقبلوه أو لا تقبلوه ، إنما علينا أن نقول ، وقد قلنا .



إلى علماء الأزهر

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

ما عرفنا من عرفنا من علماء الازهر الا ملوكا، لا أمر فوق أمرهم، ولا كلمة بعد كلمتهم ، إذا قال واحدهم لبّت الأمة ، وإذا دعا هبّ الشعب ، واذا أنكر على الحكومة منكراً أزالت الحكومة المنكر ، واذا امرها بمعروف أطاعت بالمعروف ، فكانوا هم السادة وهم القادة ، وهم أولو الامر : هذي حكومة مصطفى فهمي باشا تستجيب سنة ١٨٩٩ لرغبة الانكليز في إضعاف القضاء الشرعي ، فتضع مشروعها المشهور ، لتعديل اللائحة الشرعية ، وضم اثنين من أعضاء الاستئناف الأهلي الى المحكمة الشرعية العليا ، ويبلغ من ثقتها بقوتها ، وتأييد مجلس الشورى لها أن لا تبالي باحتجاج الحكومة العثمانية على المشروع ، وتعرضه على المجلس ، وكان من أعضائه الشيخ حسونة النواوي (الذي جمعت له مشيخة الازهر وفتوى الديار المصرية) فيقول كلمة موجزة في إنكار المشروع ، وينسحب من المجلس ويتبعه القاضي التركي ، فتكون هذه الكلمة كافية لقتل المشروع ، فيردّه المجلس كله ، وتحاول الحكومة إنقاذه على رغمه فلا تجد عضواً استئنافياً واحداً يقبل الانضمام الى المحكمة العليا ، عرضت ذلك على الشيخ محمد عبده وكان من أعضاء الاستئناف الأهلي وسعد زغلول

وأحمد عفيفي ويوسف شوقي ويحيى ابراهيم . فأبوا جميعاً . وتمشي كلمة الشيخ في الناس مشي النار في يابس الحطب ، فتهب الأمـة كلها وتؤيده حتى ترضى الحكومة بالهزيمة وتسترد مشروعها [1] .

ولم يكونوا يخشون في الحق لومة لائم ، ولا يخافون غضبة ملك جبار : هذا حسين باشا الجزائرلي ، يصل مصر فيفر منه أمراؤها الى الوجـه القبلي ، فيأخذ أموالهم كلها ولا يرضيه في عتوه وجبروته أن يستولى على عروضهم حتى يسطو على أعراضهم ، فيقبض على نسائهم وأولادهم ، ويسوقهم الى السـوق ليبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، وكانت الاحكام عرفية ، وسيوف الظلم مصلتة ، ولواء البغى مرفوعاً ، ولكن ذلك لم يمنع علماء الازهر من إنكار هذا المنكر ، ولم يرهبوا بطش الباشا وهم يرون أن أفضل الشهداء رجل قال كلمة حق عند إمام جائر فقتله بها ، فمضوا اليه وتكلم الشيخ محمـد أبو الانوار فقال له : « أنت أتيت الى هذه البلدة وأرسلك السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أو لبيع الاحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ » فقال : « هؤلاء أرقاء لبيت المال » . قال : « هذا لا يجوز ولم يقل به أحد » فغضب أشد الغضب وطلب كاتب ديوانه ، وقال : « اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره » فقال له الشيخ محمود البنوفري : « اكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا [2] » ، وكانت النصرة لهم عليه ، فأحقوا الحق وأبطلوا الباطل ، ووضع الله في قلبـه هيبتهم ، لأن من خاف الله خافه كل شيء . فكانوا بذلك (أجل من الملوك جلالة [3]) ، وكانت إشارتهم للحكام أمراً ، وطاعتهـم عليهم

---

(١) عن كتاب الاستاذ محمد فرج السنهوري .

(٢) القصة في الجبرتي ٣-٢٠١

(٣) شوقي .

فرضاً ، حدّث الشيخ محمد سليمان [1] أن أباه قدم لطلب العلم في الازهر ، أواخر أيام الشيخ إبراهيم البيجوري ، فشكا اليه ظلم تلك الأيام ، وما كان فيها من السخرة والمعونة فكتب له ورقة بمساحة إصبعين هذا نص ما كان فيها :

« ولدنا مدير الدقهلية . رافعه من طلبة العلم يجب اكرامه خادم العلم والفقراء الخاتم (ابراهيم البيجوري) » فدفعها الى المدير ، فقبلها ووضعها على رأسه ، ودفعت عنه هذه الورقة كل مظلمة ، وأنالته كل مكرمة ، ورفعت قدره عند المدير وعند الناس .

وكان الشيخ الازهري موقراً في الجامع وفي البيت وفي السوق ، ومبجلا عند الطلبة والعامة والحكام ، وكان أقصى أمل الطالب أن يخدم الشيخ وأن يحمل له نعله ، وإذا سبّه عدّ سبه إكراماً ، وتحمله مسروراً ، ورآه من أسباب الفتوح .

وكان الطالب الازهري المجاور ، يذهب الى بلده في العيد أو في الإجازة ، فيقبل البلد كله عليه يقبل يده ، ويتبرك به ، ويشم فيه عبق الازهر ، ويكون المرجع لأهله في الجليل من شؤونهم والحقير ، ويكون فقيههم والحاكم بينهم ، لا مردّ لحكمه ولا اعتراض عليه ، لأنه يحكم بشرع الله ، ويبين حكمه في فتواه .

هذا ما عرفناه . فما الذي جرى حتى تبدلت الحال ، ووقع حادث الشيخ أبي العيون [2] ؟

ما الذي نزع هيبة المشايخ من القلوب وأنزلهم من مكانتهم عند الحكام ؟ أأقول ؟ أنتم أيها الازهريون فعلتم هذا كله ! أنتم تنكبتم سبيل أسلافكم ،

---

(١) في كتابه الجليل « من أخلاق العلماء » .

(٢) وهو حادث مشهور كان هو سبب كتابة هذا الفصل في الرسالة .

فما الشيخ اليوم شيخ مسلّك ولكنه موظف محاضر ، وما التلميذ مريد طيّع ولكنه مشاكس مشاغب ، وما يطلب علماً ولكن يبتغي شهادة . أنتم ثرتم على مشايخكم وعلمتم الناس الثورة عليهم . أنتم أيها الطلاب . أنتم مددتم أيديكم الى مدرسيكم ، فجرأتم هؤلاء أن يمدوا أيديهم الى أبي العيون . أنتم اطلقتم ألسنتكم فيهم فشجعتم هذه الصحف أن تتطاول حزبية الى الكلام على شيخ الازهر . أنتم أيها الازهريون جميعاً جعلتموها جامعة فكان فيها ما يكون في الجامعات ، وقد كانت جامعاً لا يكون فيه إلا ما يكون في الجامع . لقد كان الازهر لله فصار للناس ، وكان للآخرة فغدا للدنيا ، وكان يجيئه الطالب يبتغي العلم وحده ، يتبلغ بخبز الجراية ، وينام على حصير الرواق ، ويقرأ على سراج الزيت ، ولكنه لا ينقطع عن الدرس والتحصيل من مطلع الفجر الى ما بعد العشاء ، ينتقل من شيخ الى شيخ ، ففي كل ساعة درس ، ولكل درس كتاب ، ولكل كتاب ساعة للتحضير والمراجعة ، لا يدع الدرس الا للصلاة في المسجد صلاة خشوع وتبتل ، أو للأكل فيه أكل قناعة وتقشف ،أو لشرب العرقسوس أو الخرنوب . هذه ملذاتهم من دنياهم ، لا يخرجون من المسجد الا عصر الخميس ، يؤمون الرياض والحياض، للاستجمام والاستحمام ، لا يأملون من العلم مالا وقد كان أقصى مرتب الشيخ الازهري الى عهد قريب ثلاثة جنيهات في الشهر ، ولا يبلغها الا نفر قليل ، فراضوا نفوسهم على القناعة ، وعودوها الصبر وألزموها الرضا . هذا المرصفي يحدّث عنه الاستاذ محمود حسن زناتي أنه كان في دار بالية في حي قديم وقد جلس على حصير ألقى عليه كتبه وأوراقه ، ومن حوله خيط من عسل القصب مرشوش على البلاط يدرأ عنه هجوم البق [1] لم يمنعه هذا الحصير الخلق في هذه الدار البالية من أن يشرح عليه الكامل . وأورثهم هذا الفقر عزة في نفوسهم : أورثهم كبر العلم ، وكل كبر

«١» من اخلاق العلماء .

مذموم إلا كبر العلم ، فلم يكونوا يحفلون أحداً من أبناء الدنيا ، لأنهم لم يتذوقوا لذتها حتى يداجوا فيها ، ولم يميلوا اليها حتى يتزلفوا اليهم من أجلها . كسروا قيودها وتخلصوا من رقها ، وهانت عليهم وهان أهلها . هذا هو اللورد كرومر ، وما أدراك ما اللورد كرومر ؟! يدخل على الشيخ محمد الأنبابي شيخ الازهر ، ويسلم عليه ؛ فيرد الشيخ التحية وهو قاعد ، فيعظم اللورد قعوده ويقعد الى جنبه فيقول له مغضباً : « يا سيدنا الشيخ ألست تقوم للخديو ؟ » . قال : « نعم » . قال : « فلم لم تقم لي ؟ » قال : « إن الخديو ولي الأمر وأما أنت فلست منا » . فيزيد ذلك اللورد إجلالا له ، ويكتبه في أحد تقريراته لحكومته [1] .

وهذا هو رياض باشا وكان رئيس الحكومة وناظر المالية يزور مدرسة دار العلوم ، وكان الشيخ حسن الطويل مدرساً فيها ، فلا يسلم الرئيس ويدخل حتى يبتدره الشيخ من آخر القاعة ، فيقول له : « يا باشا أما آن لكم أن تجعلوني معكم ناظراً ؟ » . فيدهش الباشا ويقول : « ما هذا يا شيخ حسن ؟ » فيقول : « ما تسمع يا باشا ؟ » قال : « فأي نظارة تريد ؟ » قال : « المالية » قال : « لماذا ؟ » قال : « لأستبيح أموالها ! [2] » فذعر الباشا وخرج يرتجف ، وقال لعلي مبارك باشا ناظر المعارف : « لا بد أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة » قال : « كيف ؟ وماذا أصنع مع علماء الارض ، وهو عالم عالمي ؟ [3] » .

كذلك كانوا . زهدوا في الدنيا فجاءتهم الدنيا ، وأعرضوا عنها فأقبلت

---

(١) من اخلاق العلماء .

(٢) تعريضاً برياض باشا .

(٣) من اخلاق العلماء .

عليهم ، وهابوا الله فهابهم الناس ، فكيف حالكم اليوم يا إخواننا الازهريين ؟

* * *

يا إخواننا ، إن هذا الازهر المعمور ، لبث خمسمائة سنة من عمره ، وهو منار العلم المفرد في الدنيا لولاه لتاهت في ظلمات الجهل ، وهو حارس الدين واللغة ، فأدركوه لا ينطفىء المنار ، ويهجع الحارس ، وتترك الدنيا للظلام واللصوص .

يا إخواننا ، ما عاش الازهر ولا عز بالعلم وحده ، وما العلم بلا عمل ؟ ولكن عز بالتقوى وبالعمل الخلق المتين . لقد كانت لعلماء الازهر أخلاق لا أقول ضاعت ولكن اختفت عن الناس تلك الاخلاق ، كانوا يجلُّون مشايخهم فيجلهم الناس كلهم . هذا هو الشيخ الباجوري شيخ الجامع كان يجلس بعد المغرب في الصحن فيقبل عليه العلماء والطلبة يقبلون يده ، وكان الشيخ مصطفى المبلط وهو أكبر منه ، ناظره في طلب المشيخة ولم ينلها ، يندس فيهم ويقبل يد الشيخ ، فانتبه اليه مرة فأمسك به وبكى وقال : « حتى أنت يا شيخ مصطفى ؟ لا . لا » فقال الشيخ مصطفى : « نعم . وأنا ! لقد خصك الله بفضل وجب أن نقره . وصرت شيخنا فعلينا أن نوقرك [1] » ، وكانوا يقدمون العلم على المنصب ، ويعرفون لأهله حقهم . هذا هو الشيخ الشربيني شيخ الجامع الازهر يدخل مع الطلبة على الشيخ الاشموني حتى يلثم يده . وكان الاشموني ربما قال له : « إزّيك يا عبد الرحمن ؟ » فيكون الشيخ كأنما حيّته من فرحته بذلك الملائكة [1] ، ولم يكونوا يدعون للعدو ثغرة يدخل منها اليهم ، ويجعلون خلافهم إذا اختلفوا ، بينهم . هذا هو الشيخ الأمير كانت بينه وبين الشيخ القويسني جفوة بلغت الحاكم ، وزاره الامير

«١» من اخلاق العلماء .

فسأله عنها ، وأوهمه أن القويسني أخبره بها وكان يريد معرفة حقيقتها ليزيلها . فقال الشيخ الامير : « ليس بيننا إلا الخير ، وما أظن الشيخ القويسني حدثك بشيء من هذا » وأثنى عليه ومدحه ونزل من عند الحاكم فمر به على ما كان بينهما وأنبأه بما كان ، فقال القويسني : « صدقت في ظنك ما قلت للحاكم شيئاً » قال الشيخ الامير : « هكذا أهل العلم يسوون أمورهم بينهم ، أما مظهرهم فيجب أن يكون قدوة في التآلف إمساكاً على عروة الاسلام ، وحفظاً لكرامة العلم وزال بذلك ما كان بينهما [1] » .

* * *

فيا إخواننا الازهريين ، سألتكم بالله ، ارجعوا بالازهر الى سبيله التي درج عليها . أعيدوه سنته الاولى . أفيضوا عليه الدين والتقوى . والتقوى روح العلم ، فإن فارقته كان جسما بلا روح . أحيوا فيه أخلاق الاسلاف ليكن لكم تقاهم وزهدهم ، فتكون لكم عزتهم ومكانتهم . يا إخواننا ، لم نجد والله خيراً في الجامعة الازهرية ، فردوا علينا الجامع الازهر !

«١» من اخلاق العلماء .

الأمانة

نشرت سنة ١٩٤٦

جعل النبي ﷺ للمنافق آية يعرف بها بين الناس ، ومن آياته أنه اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان . وهذه الثلاث (الصدق والوفاء والأمانة) أركان الحياة الخلقية الاجتماعية ، وقد تضافرت الآثار على ذم الكذب وأهله ، ومدح الصدق وأهله ، وبيان خطر الامانة وأنها عرضت على السموات والارض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وهن كن أقوى عليها ، وحملها على ضعفه الانسان ، وان المسلم ربما ألمّ ببعض الذنوب ولكنه لا يكذب أبداً كما جاء في الحديث .

ثم إنك مع ذلك كله تجد المنتسبين الى الاسلام اليوم ، من أرباب الصناعات وأهل السوق ، أكذب لهجة ، وأخلف وعداً ، وأضيع لأمانة من كثير ممن ليسوا مسلمين ، حتى صار المثل يضرب بالوعد الشرقي في خلفه وإضاعته والتأخر عنه ، وصار من يريد أن يؤكد وعداً يصفه بأنه (وعد أوروبي) !

اللهم إن هذا لمن العجب العجاب !!

* * *

إن الله بيّن خطر الامانة ، وانزلها هذه المنزلة ، وخوّف من حملها لانها جماع الاخلاق ، وسلكة [1] عقد الفضائل ، وعمادها ، فما من شعبة من شعب الاخلاق والخير الاجتماعي الا اليها مردّها ، وما خصلة من خصال الشر إلا والخيانة أساسها وحقيقتها ، وليست الامانة هي أن تحفظ الوديعة حتى تؤديها الى اصحابها (فقط) ، فان هذه صورة من صورها ، وشكل من اشكالها ، وإن السلطان في يد الموظف أمانة ، فان وضعه في غير موضعه ، أو اتخذه وسيلة الى جلب منفعة له أو لأسرته أو لاصحابه فقد خان أمانته ، والدرجات أمانة في في يد الاستاذ الممتحن يوم الامتحان ، فان أعطى منها واحدة لغير مستحقيها أو منع واحدة من يستحقها أو راعى في منحها شفاعة أو صداقة أو بغضاً أو موجدة فقد خان أمانته ، والقدرة على الحكم أمانة في يد القاضي فان زاغ عن الحق شعرة فقد خان ، والعمل أمانة في يد الاجير المستصنع ، فان قصر في تجويده أو افسد فيه شيئاً ولو كان الفساد خفياً لا يظهر فقد خان ، واعتقاد الناس بك الصلاح والتقى أمانة في يدك ، فان اتخذت هذا الاعتقاد سبباً الى جمع المال ، وعملت من لحيتك العريضة وعمامتك المنيفة شبكة لاصطياد الدنيا ، أو كتمت الحق ابتغاء الحظوة عند العامة أو الزلفى الى الحاكم فهي خيانة ، الى غير ذلك من الصور والاشكال .

بل إنك اذا دققت وتلطفت وجدت هذه الجوارح التي أعطاكها الله أمانة في يدك ، فإذا نظرت بعينيك الى حرام أو حركت به لسانك أو خطوت اليه برجلك ، أو مددت اليه يدك ، فقد خنت أمانتك ، بل إن عمرك كله أمانة لديك ، فلا تنفق ساعة منه الا فيما يرضى (صاحب الأمانة) !

«١» السلكة الخيط وجمعها سلك واسلاك .

فأين المسلمون اليوم من هذا ؟

لقد رأيت من قلة الامانة ، عند الصناع والتجار والعلماء والجهلاء ومن يظنّ به المغفلون الولاية ويرونه قطب الوقت [١] مالا ينتهي حديثه ولا العجب منه ، وما خوفني الناسَ أن اعاملهم ، حتى جعلني أحمل هما كالجبل ثقلا كلما عرضت لي حاجة لا بد فيها من معاملة الناس ، ولا والله لا أتألم من اللص يتسور عليّ الجدار ويسرق الدار ، كما أتألم من الرجل يظهر لي المودة ويعلن التقى ، فاذا كانت بيني وبينه معاملة ، وتمكن مني أكلني بغير ملح وتعرّق عظامي !

تذهب الى الخياط الحاذق الذي ألفته وألفك واستمررت على معاملته عمرك والخياط من شرور المدنية لا يستغنى اليوم عنه ، وقد انقضى زمان كان الرجل فيه يخيط لنفسه أو يخيط له اهله ، وكان الثوب يتخذ فيه لمجرد الستر والدفء ، ولم يبق لك منجى ان تؤم الخياط تحمل اليه (الجوخ) الثمين ، وتسأله أن يضرب موعداً لا يخلفه ينجز لك فيه ثوبك الذي تريده للعيد أو للزفاف أو للسفر ، ولكل واحد من أولئك وقت لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فالعيد لا ينسأ لك في ايامه ، والزفاف ان اعلنته لا يؤجل ، فيعدك ويؤكد الوعد ، فاذا جئت في اليوم الموعود وجدته لم يمس بعد قما شك ، فاذا زجرته او أنبته أخذك باللين وراغ منك وحلف لك مائة يمين غموس أنه نسي او مرض ، او أنه لم يعدك في هذا اليوم ولكن كان (سوء تفاهم) ، وأنك راجع في يوم كذا فواجد ثوبك معداً ، وتعود ويعود الى كذبه ، حتى يمضي العيد او الزفاف ولا يبقى للثوب فائدة ، وربما جعله قصيراً او ضيقاً او (معتلا) او (مضاعفاً)

«١» حكاية القطب والاوتاد لا أصل لها في نقل ولا عقل ، ولم يرو في ذلك الا حديث ضعيف في « الابدال » لا يثبت بمثله حكم ، وهي من بقايا الوثنية الاولى .

او (مجوفا) ... او على خلاف ما استصنعته عليه ولا حيلة لك فيـــه ، ولا سبيل الى اصلاح ما فسد ،فتلبسه مكرهاً او تلقيه في دارك حتى تأكله (العثة والأرَضة .

وهذه الحال من اخلاف المواعيد ، واختلاق الاكاذيب ، عامة في أرباب الصناعات في بلادنا لم ينج منها الا الأقل الأقل ممن عصم ربك . ولقد وقع لي أني كنت على جناح سفر الى العراق ، وقد أعددت له كل شيء ، واتخـذت له مكانا في السيارة ولم يبق الا يوم واحد فخطر لي أن ابعث الى الكواء [1] بحلتي الجديدة ليكيّها حتى اذا نزلت بغداد لبستها صالحة ، وبيّنت له استعجالي ونفضت اليه قصة حالي ، ونهيته أشد النهي عن غسلها ، لأنه يفسدها ويؤخرني عن غايتي فما كان منه الا ان غسلها ، طمعاً بفضل اجرة ينالها ، فأفسدها وجعلني اسافر وأدعها .

وآخر من الكوائين غسل معطفي بصابون له مثل رائحة الخنازير الوحشية ، فلم استطع لبسه وحملته اليه ووبخته ، فما كان منه الا ان أنكر ان يكون له تلك الرائحة (وإنها لتشم من مسافة فرسخ) ، وقلت : شمّها أليس لك أنف ؟ فشمها بمثل خرطوم فيل . وقال : ما بها شيء ! فكدت أنشق من غيظي وقلت لجماعـــة عنده : شموا بالله عليكم . فمدوا أنوفـهم اليها وعيونهم اليه ، وقالوا بلسان واحد مثل مقالته ؛ فاضطرت الى ان اخرج فأدفع الثوب الى فقير وإني لفقير الى مثله !

واحتجت مرة الى عامل يصلح لي طائفة من المقاعد ، استقبل عليها ضيفي واكرم بها زواري ، وهي وحدها التي أخشى اللصوص عليها ، لأنها خير ما في الدار ، حاشـــا الكتب ، فدلوني على رجل له دكان ظاهر في شارع كبير ، وفوقه لوحة كتب عليها اسمه وصناعته ووصف براعته وأمانتـــه ، فأنست به

«١» أي المكوجي .

وكان كهلا مشقشق اللسان ، وأخذته فأريته المقاعد واستأجرته لإصلاحها ، ودفعت اليه اكثر الاجرة مقدماً ، وتركته ووكلت أخاً لي صغيراً به ، وذهبت الى عملي لم أرجع الا المساء ، فوجدت الرجل قد بعج بطون الكراسي واخرج احشاءها وكسر عظامها وأرجلها ، ولم يقدر على اعادتها سيرتها الاولى لأنه جاهل بالصناعة ، فهرب وذهبت أفتش عنه حتى قبضت عليه ، وأعدته الى الدار ، فاجتهد جهده ، فكانت غاية ما استطاعه أنه جعل من مقاعدي المريحة آلات التعذيب ، ومقاعد للأذى ، إن لم يشق ثوب القاعد عليه مسمار ظاهر منها ، ثقبت ظهره خشبة بارزة ، أو كان مجلسه على أحدّ من شوك القتاد ، وقبض الاجرة كاملة غير منقوصة .

ولو شئت او لو شاء القراء لسردت ثلاثين واقعة ، ما هذا الذي ذكرت بأشدّ منها ولا اعجب ، فأين تقع الامانة من نفوس هؤلاء الذين يدعون انهم من المسلمين .

* * *

وكيف اصنع اذا كان هؤلاء (المسلمون) لا يوثق بهم ، ولا يطمأن اليهم أأعامل الفرنسي والرومي والصهيوني واقاطع بني ديني ووطني ؟

أما إنه لخطب جسيم ؛ فماذا تصنع المدارس ومعلموها والمساجد وواعظوها والصحف وكاتبوها ، اذا لم يعلنوا على الخيانة حرباً لا هوادة فيها ولا مسالمة حتى يكون النصر عليها ؟ وكيف لعمر الحق يكمل لنا استقلال ، او تتم سيادة او نجاري شعوب المدنية ونسابقها ، اذا لم تسد الامانة فينا ، واذا كان الواحد منا لا يستطيع ان يطمئن الى أخيه ولا يعتمد على أمانته ؟ واذا كنا نقلد الغربيين في الشرور فلماذا لا نقلدهم في الصدق في المعاملة والوفاء بالوعد والاستقامة في العمل ؟

أما إن من اشكال الأمانة وصورها ، أن القلم المتين ، واللسان البليغ ، امانة في يد الكاتب والخطيب ، فاذا لم يستعملاهما في إنكار المنكر ، والامر بالمعروف ، والدعوة الى الاصلاح ، كانا ممن خان امانته ، واضاعها ، وفرّط فيها ؛ فلينظر لنفسه كل كاتب وشاعر وصحفي وخطيب !



دفاع عن الفضيلة

نشرت في مصر سنة ١٩٤٦

هال بعض المصلحين منذ سنتين مارأوا من فشوّ التبرج والاختلاط في دمشق البلد العربي المسلم ، فقاموا يدافعون عن الفضيلة المغلوبة ويردّون الرذيلة الغالبة ، وانقاد إليهم الناس ، لأن الكثرة الكاثرة من أهل دمشق لاتزال متمسكة بدينها ، ولا تزال نساؤها في الحجاب الساتر ، ومشت الأمور في طريقها وكادت تصل إلى غايتها ، ودعاة الفجور ينظرون ويتحرقون ... لولا أن دفعت الغيرة على الأخلاق الإسلامية والسلائق العربية بعض العامة إلى الدخول على النساء في السينما وإخراجهن منها وترويعهنّ ، وإلى التجوال في البلد ونصح كل متبرّجة ووعظها وزجرها .. وقد أنكر العلماء وعقلاء البلد ذلك عليهم فكفوا عنه وأقلعوا ، ولكن دعاة الفجور لم يرضهم أن تنتصر دمشق للفضيلة وأن تهدم عليهم عملهم على رفع الحجاب وإباحة الاختلاط ، فاستغلوا عمل هؤلاء العوام وأعلنوا إنكاره وكبّروه وبالغوا في روايته ، وذهبوا يقيمون الدنيا ويُبرقون البرقيات ويُرعدون بالخطب ، وما أهون الإبراق والإرعاد ، وما أسهل إثارة الشبان الفاسقين على الستر والحجاب ، باسم (الحرية

الشخصية) التي تمتع عيونهم بما وراء الحجاب من جمال ، وتنيلهم مابعد حدود الفضيلة من لذائذ !

أيخرجون النساء من السينما ؟ أيعرضون بالنصح للمتبرجات الـكاشفات ؟ يا َللحدث الأكبر ، يا َللعدوان على الحرية الشخصية التي ضمنها الدستور ! أليست المرأة حرة ولو خرجت عـارية ؟ أليس الناس أحراراً ولو فسقوا وفجروا ؟ أليس كل امرىء حراً ولو نقب مكانه في السفينة [١] فأدخل إليهـا الماء فأغرقها وأهلهـا ؟ !

كذلك فهم الحرية هؤلاء الجاهلون ... أو كـذلك أراد لهـم هواهم ، وشاءت لهـم رغباتهم الجنسية وميولهم النفسية أن يفهموها ، ودفعوا الصحفيين فلبثوا أياماً طوالا لا كلام لهم إلا في الدفاع عن (الحرية ...) ، وهاجوا [٢] بعض النواب ، فجرب كل واحد منهم أن يتعلم الخطابة في تقديسها ، ثم عمدوا إلى فئة من خطباء المساجد حاموا عن الفضيلة ، فساقوهم إلى المحـاكم سوق المجرمين ، وأدخلوهم السجون ، وجرعوهم كؤوس المهانـة ، حتى صار من يذكر السفور بسوء ، أو يدعو إلى الفضيـلة والستر كمن يدعو إلى الخيانـة العظمى ، وصار النساء إذا رأين شيخاً في الطريق شتَمْنَه وسخرن منه ، وتوارى أنصار الفضيلة من وجه هذه العاصفة الفاجرة الهوجاء ، وهم جمهرة أهـل الشام وعلماؤهم وأفاضلهم وعقلاؤهم ، وحسب أولئك أن الظفر قد تم لهم ، وأن أهل الدين قد انكسروا كسرة لا تجبر ، فكشفوا القناع وانطلقوا يسرحون وحدهم في الساحة ويمرحون ... وكانت النتيجة أن انْحَطَمَ السدّ فطغى سيل الرذيلة

---

(١) اشارة الى الحديث المشهور

(٢) اي هيجوا

وعم ، وامتد في هاتين السنتين أضعاف ما امتد أيام حكم الفرنسيين الذين هم أفسق الناس ، وهذه حقيقة نثبتها بأسف وخجل ... وكانت النتيجة أن ازدادت جرائم التعدي على العفاف واستفحلت حتى رأت المحاكم من يتعدى على عفاف بنته وأخته ، ومن يفجُر بطفل رضيع ، وماذا يصنع هذا الوحش الذي أثارت (الحرية الشخصية) غرائزه فلم يجد إلا البنت والأخت أو الطفل الرضيع ؟
وكانت النتيجة أن دمشق التى تستر بالملاءة البنت من سنتها العاشرة شهدت في يوم عيد من أعياد الوطن ، بنات في السادسة عشرة وما فوقها يمشين في العرض بادية أفخاذهن ، ترتج نهودهن في صدورهن ، تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة..
وشهدت بنتاً جميلة زينت بأبهى الحلل ، وألبست لباس عروس ، وركبت السيارة وسط الشباب – قالوا إنها رمز الوحدة العربية ... ولم يدر الذين رمزوا هذا الرمز أن العروبة إنما هى في تقديس الأعراض لا في امتهانها ، ومشى الموكب أمام الناس وفيهم والد هذه البنت لا يستحيي ولا يخجل ، وأخرى قالوا إنها رمز سورية الأسيرة قد فكت قيودها ... وأمثال هذا الهذيان الذي لا معنى له إلا استغلال العيد الوطني في هدم أركان الفضيلة وتمزيق حجابها ... وأخذت صور هذا كله فنشرت في الجرائد وعرضت في السينمات ، ثم ازدادت جرأة الناس على نقض عرى الأخلاق حتى رأينا صور رجال منامع نسائهم على (بلاج) الاسكندرية منشورة في مجلة من المجلات التي لا تدع فرصة فيها تشهير بنا وفضح لنقائصنا إلا استغلتها ، ثم ازدادت الجرأة حتى صارت مجلات دمشق تنشر صور العرايا فيشتريها الشباب لهذه الصور ، لأنه ليس فيها ما تُشترى له .

ثم ... ثم ماذا ؟ الله وحده الذي يعلم ماذا يكون أيضاً ، وإلى أين يبلغ بنا المسير ...

وقد نزلت هذه الضربات على وجه الفضيلة متلاحقة متتابعة لا تصحو من واحدة حتى تحس بالأخرى ، وهم يريدون منا مع ذلك أن نسكت وألا نقول شيئاً ، لئلا نشوه (زعموا) جمال العهد الوطني

كلا . إن العهد الوطني هو الذي تنتصر فيه الفضيلة ويسود الحق ويحفظ العفاف ... كلا ، ولا كرامة ، إنها أعراض بناتنا وأخواتنا ، ولو غير الاعراض لهاودناكم عليها ، ولكن لاهوادة في العِرْض !

إنها حياة هذه الامة : لاتحيا امة بلا اخلاق ، افئن قامت فئة من العامة بما لا نرضى عنه ، وانتهكت حرمة هذا الحرم الاقدس : السينما ، وتجاوزت على حريات الفاضلات المطهرات : النساء المتبرجات ... نسكت كلنا عن نصرة الفضيلة إلى يوم القيامة ؟

إن من الامور مايتفق عليه أبناء الملل كلها ، وما يلتقي فيه أتباع الاديان جميعاً كما يلتقى سالكو شوارع مختلفة في ساحة من الساحات ، ومن ذلك الدعوة إلى العفاف ، إنها دعوة لابد منها ، فإذا لم يريدوها عن طريق الجمعية الغراء والمشايخ ، فلتكن عن طريق غيرهم ، المهم أن يجهر بها جاهر ونحن معه مؤيدون له ومحاربون لمن يحاربه ، ونحن نريد الجوهر لا المظهر

ثم ما هذه الحرية التي طبّلتم لها وزمرتم ، وهوّلتم وعظمتم ، وجعلتم الاعتداء عليها كفراً بدين الحضارة والديمقراطية ، أهي حرية المرأة أن تكشف ما تريد من جسمها متى أرادت وأين شاءت ؟ أهي حرية ناظر المدرسة في أن

يحوّل مدرسته إلى مرقص ؟ أهي حرية الفسوق والعصيان ؟

أهذه هي الحرية المقدسة ؟

إنكم - ايها السادة - بين امرين : إما أنكم تقولون مالا تفهمون ، وإما أنكم تستترون بهذه الاسماء الحلوة اغراض نفوسكم ورغبات اجسادكم ؟ وإلا فخبروني أي امة في الدنيا تصنع هذا الصنيع :

العرب ؟ إن العرب اغير الناس على الاعراض ، وإن كلمة العرض في لسانهم لا يقابلها كلمة في ألسنة الأمم تترجم بها !

المسلمون ؟ إن الاسلام امر بغض البصر وستر العورة ، ولعن الناظر اليها والمنظور !

الفرنسيون ؟ إن الفرنسيين يكشفون افخاذ الشباب في الملعب فعلام تكشفونها انتم في سوق الحميدية وهو للبيع والشراء ، وفيه الرجال والنساء وهو كالموسكي في مصر والشورجة في بغداد ، ما كان قط ملعباً ولا ميدان كرة ، وإن الفرنسيين ينشؤون بيوتاً للهو واللذة ، وبيوتاً للعلم ، وانتم جعلتم بيوت العلم بيوت لذة ولهو ، وإن الفرنسيين كانوا يستترون سيقان الجند ، فلما استلمتم انتم أمرهم كشفتم عن افخاذهم[1] .

الروس ؟ إن الروس فصلوا بين الجنسين في المدارس لما رأوا بالتجربة ان الاختلاط لا يأتي بخير ، وأنتم تسعون الآن بكل طريق لجمع الجنسين في المدارس .

العفاريت ؟ الجن ؟ فمن إذن ؟ أنكون نحن بدعاً في الأمم نأخذ من كل واحدة شر ما عندها ، ونريد ان نبدأ حياتنا الاستقلالية بهذا الخليط من الشرور مركباً تركيباً مزجياً ، كحضرموت ... إنه والله طريق الموت الحاضر

---

(١) وما استحسن عمل الفرنسيين ، ولكن اقيم الحجة على المخالفين .

لا طريق الحياة !

لا . لم أرد ان أنحو في هذا الحديث نحو الخطابيات ، ولم أنشئه لأخاطب به العواطف وحدها ، ولكن نحوت فيه نحو التدليل والتعليل ، وقررت حقائق بادلتها ، وأنا ادعو الى مناظرتي فيه كل مخالف في رأسه عقل ، وفي يده قلم ، وفي فمه لسان ...

ولم أوجهه للمسلم وحده ، بل لكل من قال أنا عربي ، لاأخص مسلماً ولا مسيحياً ، لان من صفات العربي التي تقوم عليها عروبته الشهامة والغيرة على الاعراض ، ومن ادعى العروبة ولم تكن له على العرض غيرة ، ولم يغضب لحرمة فهو كذاب دعي ليس بعربي

وسيقول ناس من القراء : هذا رجل معروف بالدعوة إلى الرجعية فلا تسمعوا له إنه يريد أن يعود بنا إلى الوراء ، ونحن نريد أن نتقدم

وهذا كلام لايناقش ولايرد عليه ، إنما يناقش كلام مؤيد بحجة ، إنما يدفع اعتراض قائم على منطق ، إنما يقرع الدليل ، فهل في هذا الكلام حجة أو منطق أو دليل ؟

إنهم حفظوا كلمات فهم يرددونها لايحاولون فهم معناها ، يقولون: رجعية . وما الرجعية ؟ هي الرجوع إلى الماضي ، اي إلى اخلاقه وعاداته ، فما يمكن ان يرجع إلى زمان مضى ، فهل الرجوع إلى مثل اخلاق المسلمين الاولين نفع او ضرر ؟ وهل يكون الداعي إلى تلك الاخلاق مصلحاً او مفسداً ؟

هذه هي الرجعية !

هي رجوع الى الدين ، افترجع فرنسا الى دينها ، اي الى كاثوليكيتها ،

ويظفر الحزب الديني فيها بأكثر مقاعد المجلس النيابي ، فلا ينكر عليها أحد ، ولا يتهمها بالتأخر ، ولا يصمها بالجمود . ونطلب نحن العودة إلى ديننا الحق ، فيقول السفهاء أنا متأخرون جامدون ؟

لا . هذا كثير ! هذا كفر بالمنطق ، وتعطيل للفكر ، وإلحاد في المدينة . هذا شيء نستحي من الأمم أن يكون فينا من يقوله !

ونحن إذ ننتقد شيئاً نبين أضراره ، فبينوا أنتم منافعه ، حتى إذا وجدنا المنافع أكثر أخذنا به ، ولو حملنا معه شيئاً من الضرر ، ونحن نعلم أنه ليس في الدنيا خير محض ولا شر محض ، وإن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما ، فلذلك حرما

فتعالوا نتناظر !

إنه لابد في كل مناظرة من مبادىء يتفق عليها الطرفان ليعودا إليها ، ويرتكزا عليها ، وما المنطق إلا رد الفروع إلى هذه الأصول ، فإذا كان المتناظران مختلفين في كل شيء ، يرى هذا أن العفاف نافع فيقول الآخر بل هو ضار ، ويدعي هذا أن اتباع الدين واجب فينكر الآخر هذه الدعوى ، ويرى هذا العمل على منع الفجور ، ويرى ذاك العمل على نشره .. فلا يمكن أن يكون بينهما كلام ؟

فلنتفق أولاً على الأصول :

هل العفاف وقصر الاتصال الجنسي على المشروع منه خير أم شر ؟

هل قيام المرأة على تربية أولادها بنفسها وإخلاصها لزوجها وبيتها خير أم شر ؟

هل مراقبة الله وخوفه وتمسك كل امرىء بفضائل دينه خير أم شر ؟

هذه ثلاث مسائل اطلب الجواب عليها .

وانه ليكون غروراً مـني وازدراء للخصوم وللقراء ، إذا افترضت أنهم يرون هذه الأمور شراً ، وحاولت إقامة البراهين على أنها خير وأتعبت نفسي والقراء في إثبات هذا الأمر الذي أظنه ثابتاً عند العقلاء جميعاً ، وإني أؤجل هذا الاثبات إلى حين الحاجة إليه وأبني المناظرة على هذه الأسس الثلاثة

فتفضلوا قولوا ، هل هذا الذى نحن فيـه يحفظ علينا عفافنا أم هو يضيعه علينا ؟ هل يعمر بيوتنا أم يقوضها على رؤوسنا ؟ هل يرضي ربنـا أم يسخطه علينا ؟ هل يجعلنا أمة قوية أم هو يذهب بقوتنا ؟

وإذا سلمنا جدلا بأن من الخير مشاركة الطالبات الطلاب في أفراح الجلاء ، فهل يشترط في هذه المشاركة أن يكشفن سيقانهن وأفخاذهن ، وأن ينتخب لها الجميلات منهـن لا النابغات ولا المجدات ولو كـن قبيحات . وإذا لبسن الجوارب الساترة والثياب الطويـلة أيبطل رواء العيد وتذهب بهجته ؟ أم أنتم تريدون النظر إلى أفخاذهن بحجة المشاركة في أعياد الجلاء ؟

وإذا حسُن أن نقوي بالرياضة أجساد الطالبات ، فهـل يشترط في هذه التقوية أن يختلطن بالرجال ؟

لا والله ، أحلفها يميناً غموساً وأضعها في عنقي ... إنكم لاتريدون الصحة ولا الرياضة ولا المشاركة بالعيد إنما تريدون التـلذذ بمرأى بناتنا باسم العيد والرياضة والصحة ، إنكم لصوص أعراض ... ولكن ليس الحـق عليكم ، الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب ، فنحن عميـان لا نبصر ، خرسان

لا ننطق ، حمير لا نغار ، وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا الا اللعنة التي نزلت على بني اسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم .

اللهم لقد بلغت ، اللهم لقد أنكرت المنكر .

اللهم لا تنزل علينا لعنتك ، ولا تحلل بنا غضبك .

* * *

من أخلاقنا

نشرت سنة ١٩٤٧

أعرف رجلاً انعم الله عليه بسعة المال ، وفطره على صدق الود وبسط اليد فأباح إخوانه ماله ، يغترفون منه اغترافاً ، ويأخذون منه علاً ونهلاً ، قرضاً حسناً لا يطالبون برده ، وهدية لا يسألون المقابلة بمثلها ، وهبة لا يُرتقب منهم عوض عنها ، ولا يسمعون كلمة منّ أو تذكير بها . وفتَح لهؤلاء (الإخوان) - وما كان أكثرهم - داره ، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمه وأهله ، وأقام عليهم خادماً وطاهياً ، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب ، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم ، وتوديعهم راحلين مشيعاً إياهم بالكرامة ، شاكرهم على (تفضلهم) بالزيارة ، سائلهم (التكرم) بالعودة .

ولبث هذا الرجل على ذلك حتى أضاع ماله كله ، فباع الدار وأثاثها ، وغدا فقيراً يحتاج الى (الورقة السورية) ، فلا يجد في كل أولئك (الإخوان) من يدفعها اليه ، لا وفاء دين ، ولا مقابل هدية ، ولا عوضاً من هبة ، ولا قرضاً حسناً الى أيام السعة ، اللهم إلا قرضاً بربا ، ولا يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً .

* * *

ولعلّ الرجل أخطأ حين عمد الى هذا (الكرم الجاهلي) فأخذ به ، وترك التأدب بأدب القرآن الذي يقول : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً) ؛ والذي جعل المبذرين إخوان الشياطين . ولعله لقي جزاءه ... فما سقت القصة للحكم عليه ، وإنما قصصتها لأنها ذكرتني بطائفة « من أخلاقنا » ، هى كالداء في جسم الأمة ، لا يجمل بالكتّاب وحملة الاقلام السكوت عنها والرضا بها ، وهم أطباؤها وأساتها ، وعندهم دواؤها.

ذكرتني بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارىء شبيهاً ومثيلاً ، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متذللاً متواضعاً ، مظهراً للتقى والامانة ، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت في حاجة اليه في يومك أو غدك ويذكرك الكرم والثواب ؛ وربما استعان عليك بمن لا يرد طلبه عندك فتعطيه ما يريد ، تضعه في كفه خالياً به ، تستحيي أن تشهد عليه شاهداً ، أو تأخذ به كتاباً ، مع أن الله أمر بكتابة الدين الى الأجل المسمى أمر ندب واستحباب ، لا أمر إيجاب وافتراض ، فيأخذه منك ويذهب شاكراً فضلك ، مثنياً عليك ثناء يخجلك ويضايقك ؛ ثم لا تراه بعد ذلك ولا تبصر له وجهاً فتفتش عنه لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدين ، وتجددت حاجتك اليه ، فيروغ منك ، وينأى عنك ... فتطرق بابه ، فيقال لك هو غائب عن الدار ، فتعود اليه في الصباح فيقال هو نائم ، فترجع بعد ساعة فيقال خرج ... فتبتغي اليه الوسائل وتتشفع اليه بالاصدقاء ... فيلقاك شامخ الانف مصعّراً خده ، يقول : (يا أخي ، أزعجتنا بهذا الدين ... ما هذا الالحاح الغريب ؟ أتخاف أن آكله ...!) وينتهرك وأنت تداريه ... ثم إن كان (رجلاً طيباً) دفع اليك الدين ، ولكن قرشاً بعد قرش ، و (ورقة) بعد (ورقة) فتريق في استيفاء دينك ماء وجهك ، وتنفق فيه الثمين من وقتك ، ثم لا تنتفع منه

بشيء . وإن لم يكن (صاحب ذمة) أكل الدين كله ، وصرخ فيك حيثما لقيك : (ما لك عندي شيء . اشتك للمحاكم !) ، وهو يعلم أنه لا سند في يدك ، ولا بينة لك عليه ... وهبك أخذت منه كتاباً بدينك ، أفتصبر على طول المحاكمة ومتابعتها وتأجيلها وتسويفها ، و (رسومها ومصارفها) . . إن ضياع المال أهون من إقامة الدعوى به [1] .

ومثل هؤلاء المقترضين (الأفاضل) مستعيرو الكتب ، أولئك الذين تركوا في قلبي غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أني لا أعير أحداً كتاباً . ولم انج مع ذلك منهم ، ولم يردّ لي الى الآن كتاب (كشف الظنون) الذي نسيت من استعاره مني منذ إحدى عشرة سنة ...

ولهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب ، منها أن استاذاً محترماً في قومه جاءني مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الخازن من خزانة كتبي ، ليراجع فيه مسألة ويرده إليّ عاجلاً ، ففعلت ؛ وانتظرت أربع ... أربع سنوات والله ثم ذكرته به ؛ فغضب وقال : « لإيش العجلة يا أستاذ ، لم أراجع المسألة بعد ... » !

والذي يذكر منهم صاحب الكتاب ويتنازل فيرده اليه ، يرده مخلوع الجلد ممزق الاوصال . وأنكى منه المستعير المحقق المدقق الذي يرى في الكتاب موطناً يحتاج الى تعليق ، فيكتب التعليقة التي يفتح الله بها عليه ، على هامش كتابك بالحبر الصيني الذي لا يمحى ولا يكشط ، ويذيّلها باسمه الكريم !!

وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذي يتظرف ويتخفف ، فيرى أن من الظرف سرقة الكتب ، فاذا زارك وتركته في المكتبة وخرجت لتأتيه بالقهوة أو الشاي

«١» ولو سألتني دليلا لنبأتك أنها كانت لأسرتنا قضية بقيت في المحاكم ثلاثاً وثمانين سنة .

أخذ كتاباً فدسّه تحت إبطه ، او وضعه في جيبه ثم ذهب به وأنت لاتدري..

* * *

وربما كان هذا المدين المماطل ، وذلك الذي يأكل الدين وينكره ، والذي يستعير الكتاب ويمسكه ، ربما كانوا عند العامة من اقطاب الوقت وأولياء الله الكبار ؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى وبدلوا معناه ، فكان التقي في صدر الاسلام هو الذي يتقي المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن ، ولا يدخل جوفه ولا جيبه الا طيباً حلالاً ، ويفر من مواطن الشبهات ، ولا يطلب المال الا لإمساك الرمق ونيل القوام ، والعيش عيش القناعة والرضا ، ولا يأخذه الا من حلّه. ولم يكن الرجل ليشهد للرجل بالتقوى الا إن صحبه في سفر ، أو عامله في مال ؛ فصار التقي اليوم من يكبّر عمامته ، ويطوّل لحيته ، ويوسع كمه ، ولا تفارق يده سبحته ، ولا يقف لسانه عن ذكر ؛ ومن يتوقر ويطيل المكث في المساجد . وهذا كله حسن لا اعتراض عليه ، غير أن حسنه ينقلب قبحاً أبشع القبح اذا اتخذه صاحبه أحبولة يصطاد بها الدنيا ، كذلك الذي كان وصياً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة ، اغتر أبوهم بلحيته وسبحته فوصى بهم اليه ، فجرعهم كؤوس المذلّة والجُوع ، ونشأهم في الازقة نشأة اللصوص ، وأكل اموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجميل : (إن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) ، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها ، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة ... وينكر أشد الانكار على من يهمل السنن فيشرب بشماله أو يحلق لحيته ، والناس يتبركون بلثم يده . فكيف السبيل الى إفهام هؤلاء الناس ماهي حقيقة التقى كيلا يعظموا اللص ويجعلوه ولياً مباركاً ، ولا يغتروا بالصلاح المجاني الذي لا يكلف صاحبه مالاً بل يجمع

به المال ، ويعلموا أن الله الذي وضع في نفوس الشباب شهوة الجسد وضع في نفوس (هؤلاء) المشايخ (لست أعني المشايخ كلهم) شهوة المـال ، وأنه لا فضل لأحدهما على صاحبه ؛ وأن الشيخ التقي هو الذي لا يقيم للمال وزناً ، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف ؛ وأن الشاب الصالح هو الذي لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة ببذله المال ...

* * *

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب منا حـين يخوض خضم الحياة ، ويرى الاختلاف بين ماعلموه من الاخلاق في المدرسة ، وما تواضع عليه الناس في الحياة ، يقف حائراً مدهوشاً لا يدري ما يأخذ وما يدع ؛ فـلا هو يرتضى لنفسه التفريط في أخلاقه : صدقه وأمانته وعزة نفسه ، ولا هو يرتضي الحرمان من المتع واللذائذ والمناصب العالية والمرتبات الكبيرة يناله جزاء تمسكه بمـا علّموه من الاخلاق. حدثني صديق لي أنه انتسب في شبابه الى الشرطـة ، فجعلوه رئيس مصلحة السير في بلدة من بلاد الشام ، وكان ذلك منـذ خمس وعشرين سنة أو أوفى من ذلك ، وكان مقره في (مخفر) في ظاهر البلد ، فمر عليه رتل من السيارات فيه حجاج آيبون ، وكان نظام تلك الايام أن سيارة لا تجتاز على مخفره الا بوثيقة وإذن ، لا أدرى ما صفتها فقـد نسيت دقائقـ حديثـه ، ولم يكن معهم ذلك (الإذن) فوقفهم ومنعهم من المرور إلا به .
(قال) فغاب السائق هنيهة ثم عاد وفي يده صرة وضعها على مكتبي فيها أربعون ريالاً مجيدياً ، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول ... وهذه الصرة ثمن (فنجان قهوة) رجاء السماح لهم الخ .. قال : فلما سمعت ذلك قفّ شعري وصحت به : أتريد أن ترشوني يا كذا و كذا ، وأمرت به فوقف ، واستلمت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع اليه الامر وأنا أرى أنه سينزل به

أشد الجزاء ، فإذا به يأمر بإطلاقه ، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام ، وأن يبعث اليه بالمال ليجري التحقيق . (قال صديقي) وذهب المال ولم يعد ، وتركت العمل . ولو أني بقيت لطرحت عن عاتقي ثقل الاخلاق التي تجعلني غريباً بين زملائي ، وتحرمني الغنى ، وتكسبني غضب الرؤساء فلا يصيبني ترفيع ، ولا يصل الي خير . وليست هذه القصة فريدة في بابها ، ولا هي نادرة من النوادر ، بل هي قصة كل يوم ، وهي الداء الذي يزداد ويسيطر والأساة عنه غافلون . وأين أساته وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسي الحكم ، هي الدنيا لهم وهي الاخرى ، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهي الاحلام ، ومستيقظ قد ألهاه هواه ، فهو يملأ الدنيا بكاء ونحيباً لأن صاحبته أسهرته بعد النجوم ولم تأته ... أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه أو افسق فأعطته إياها . وأهل العلم يعيش اكثرهم على هامش الحياة لا هم له الا مرتبه يقبضه من (دائرة الأوقاف) في مطلع كل شهر ، ثم لا تراه ولا يراه أحد الى الشهر الذي بعده ، أو (حاشية) يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه قراءة تبرك لا قراءة تحقيق ، فلا يرجح ولا ينتقد ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية ، ولا ينظر مشكلة من مشاكل العصر ليرى حكمها . ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم في الدين ولا يؤخر ، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر . والشباب الناشئون لجهلهم حقائق الاسلام ، وبعد ما بينهم وبين المشايخ ، وقصر أيديهم وأفهامهم عن نيل الكتب (ذات الشروح والحواشي) قد زهدوا في كل ما هو شرقي واستهانوا به ، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعياً ، وكل سفسطة سميت فلسفة ، وكل كفر بالدين والعرض دعي أدباً ، وأعانهم على ذلك أن اكثر المدرسين من الذين لم يقدر لهم فهم علوم الاسلام والغوص على كنوز كتبه ، ولست أطلق القول واجنح الى

التعميم ، فإن في كل فئة من هؤلاء الطيبين والمصلحين ، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت . فمن أين يرجى إصلاح اخلاقنا واوضاعنا ؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح ، ولم نتفق بعـــد على (الاخلاق) التي ينبغي أن نتخلق بها ، فمنا من يرى المثل الأعلى في أخلاق الجاهلية : كرم الى حد التبذير ، وشجاعة الى حد التهور ، كصاحبنا الذي استهللت بحديثه هــذا المقال ، وعامة طائفة (الزكرت) في الشام ، (وهي أشبه بالفتوة في مصر) واكثر البدو ، ومنا من يميل الى التخلق بأخلاق اجدادنا في القرن الماضي عـلى ما كانت عليه بلا زيادة عليها ولا نقصان منها ، ومن يخالفهم مخالفة الضد للضد فيرى أن نقتبس الاخلاق الغربية برمتها . ويتشعب بهؤلاء الرأي فيميـل كل الى الأمة التي تعلم في مدارسها أو رحل الى أرضها ؛ ومن يرى اقتباس الجيـد النافع من كل أمة من غير أن يحدد أو يعين . ولا دواء لهذه الفوضى في رأيي ، ولا صلاح لأخلاقنا ، الا بالرجوع الى الاسلام الصحيح الذي جاء به سيـدنا وسيد العالم محمد ﷺ ، لا الاسلام الذي يفهمه الحشويون والمتاجرون بالدين ، ولا الذي تفهمه العامة . فاذا فعلنا فثمــة كل خير ، ولا يكون ذلك الا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل ، ودرسوا المشكلات ، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس ، واستمدوا الاحكام من موردها ثم ترجموا هذه الكتب القديمة الى لغة العصر .

داء الشباب

نشرت سنة ١٩٣٨

... وهل داء الشباب الا الميل الجنسي الذي يملأ نفوسهم ، ويسيطر على أرواحهم ، ويتراءى لهم في كل جميل في الكون ، شيطاناً لعيناً يقود الى الهاوية وإبليساً[١] من أبالسة الرذيلة ، يدعو الى دين الهوى ، وشرع الشهوات ، ويحدر عقل من يستجيب له فينزل به من مكانه في الرأس الى غير مكانه ، ويجعل صاحبه عبداً للجسم ، مؤتماً بالشيطان ؟

وهل يأتي ممن كان إمامه إبليس ، وشرعه هواه ، إلا قطّ في شهر شباط ؟ بل ما يبلغ والله أن يكونه ، فان القط تشغله الشهوة شهراً في العام وسائر أيامه للصيد والوثب والسعي للرزق وما خلق الله له القطط ، وعبد الشهوة من الناس تتعبده الشهوة في كل حين ... وللقط طريق واحد الى بلوغ شهوته هو (الطريق) الذي (شقه) الله لبقاء الجنس ، تبعاً للسنة التي سنها ، أما عبيد الشهوة من البشر فلهم مائة طريق ، تسعة وتسعون منها تخالف سنة الله ، وقوانين الحياة ، وتأباها العجماوات ، ويترفع عنها الحمير ، ولا يرتضيها لنفسه (صاحب اللعنات) ابليس... والقط في شهر الشهوة ، لا ينسى قِطّيته[٢]

---

(١) نونت الكلمة تنوين التنكير .

(٢) القطية للقط (مصدر صناعي) على وزن الانسانية للانسان..

ولا يدع صيد الفار ، ولا السعي للعيش ، والرجل اذا تعبــدته الشهوة ينسى انسانيته ، ويهمل الواجب عليه ، ويقعد عن المشي في مناكب الارض في طلب الرزق ، بل لقد تبلغ به السفاهة والجهالة أن يفرّ من الحياة منتحراً جباناً ذليلاً لأن ... لأن امرأة لم تعطه من نفسها الذي يريد ، ولو عقلَ عقل القط لتركها الى غيرها ، وليس يبالي القط ما دام قد قام بقسطه من حفظ النسل ، أكانت صاحبته بيضاء مبرقشة أو سوداء حالكة ، ولم نعهد قطاً قطع نفسه بأسنانه ،أو ألقى بها في البركة ، حزناً على حبيبته (القطة)... والقط (بعد ذلك) يبقى عزيزاً يطارد القطة مرفوع الرأس ، مشدود العضل ، بادي القوة ، والرجــل اذا استعبدته الشهوة يصبح ذليلاً حقيراً ، كافراً بالرجولة ، فيهمل درسه اذا كان طالباً لأن صاحبته (أو شيطانته) لم تدع له وقتاً ولا عقلاً للدرس ؛ واذا كان موظفاً أنسته عيناها أمانة العمل ، وحرمة المصلحة، وواجب الشرف ،وقدسية العدل ؛ واذا كانت صاحبة سره (سكرتيرته) في تجارته نسي التجارة ، وأضاع الامانة والربح ، وأهمل السعي والعمل ... فلا يكون من وراء الشهوة الا ذل النفس ، وموت الشرف ، والضعة والتسفل : المعلم سيد تلميذته ، والمدير أمير سكرتيرته ، والطالب عزيز حيال رفيقته ، فاذا جاءت الشهوة ، ذل المعلم فكان هو التلميذ وهي السيدة ، وذل المدير فكان هو الأجير وهي الآمرة ، وذل الطالب فكان من رفيقته بمثابة كلبها .. يتبعها ويبصبص لها !

أوليس من الذل أن تكون حياتك معلقة بغيرك ، وسعادتك بيد سواك ، فأنت مضطر اليه ، وأنت لعبة في يديه ، إن أقبل عليك سعدت ، وإن أعرض شقيت ، وإن مال الى غيرك اسودت أيامك ، وتمنيت الموت ؟

هذا والله الذل الذي لا ينفع معـــه المال الكثير ، ولا الجاه العريض ،

ولا ... « ملك انكلترا وتوابعها[1] ... » ، وهذه هي حقيقة الحب ، الحب الذي أَلّهه الشعراء !

* * *

على أن الحب في الاصل جميل مقدس ، وعلى الحب قام الوجود كله وائتلف وسار الى غايته ، والشهوة نافعة لازمة لم تخلق عبثاً ، ولا أداة للشر ، بل خلقت حياة للجنس وعصمة من أن يمحي أو ينقرض ، ولسنا نحقر الحب ولا نذم الشهوة ، وإنما نذم الغلو فيهما ، وولوجهما من غير بابهما ، وأخذهما على غير الوجه الذي خلقه الله لهما ... نذم منطق الشهوة ، وللشهوة منطقها الذي يسلب الدّيّن دينه والحكيم لبّه ، ويريه أن له الحق في كل النساء ، وأنه لم تخلق امرأة الا للذته (هو) ومتعته ، ويصنع له إبليس أدلة هذه الدعوى فيقبلها بعقله الذي انحدر من رأسه ، ويتلقاها بأعصابه الهائجة المجنونة ، ثم يدله ابليس على سبل تحقيقها ، فيسلكها لا يبالي الدين ولا العرف ولا المروءة ولا شيئاً مما تواضع على إجلاله الناس ويتم إبليس عمله ، فيدخل في رؤوس نفر من الادباء ، ثم ينطق بلسانهم ، ويخط بأقلامهم ، هذا الأدب الوقح البذيء ، أدب أبي نواس من الاولين ، وآباء نواس من العصريين ، الادب الذي يستقر في أدمغة الشباب استقرار صناديق البارود في اصول البيوت ، فلا يلبث أن يتفجر عند الشرارة الاولى ، تخرج من عين امرأة ، فينسف عقل صاحبه ودينه ، واخلاق الامة وصيانتها ، ولا نعدم مع ذلك من الناس من يعجب بهذا الادب ويكبره ويسمي صاحبه بأسماء الجهابذة الاعلام من أرباب البيان وحملة الاقلام ...

---

(١) الذي لم يمتنع ادوار الثامن من تركه كله ليلحق ارملة اسمها سمبسون - والقصة مشهورة.

وهل في الادب المكشوف ، الا كشف سوأة من سوءات الفكر ، وعورة من عورات الضمائر ، يحرص العقلاء على سترها كما يسترون عورات الجسم ؟

أستغفر الله ماذا أقول ؟ إن الناس قد كشفوا عورات الجسم على السواحل وفي المصايف ، وأبدوا كل سوأة ، وافتخروا بهـا ؛ وسموها جمالاً وكمالا ، وصوروها وملأوا بها جرائدهم ومجـلاتهم ، أفيلام الشباب إن جن جنونه ، واشتعلت في اعصابه النيران ؟

أخطبوا أيها المدرسون ما وسعكم الجهد ، واهرَؤوا ما انفسح لكم سبيل الهراء ؛ وقولوا للشباب كن صيناً عفيفاً . إنها لن تجدي عليه خطبكم ، ولا يستقر في نفسه هراؤكم ؛ إنه يخرج فيسمع إبليس يخطب بلغة الطبيعة الثائرة في السوق على لسان (حال) المرأة المتبرجة ، وفي الساحل على لسان الاجساد العارية المغرية ، وفي السينما على لسان المناظر المتهتكة المثيرة ، وفي المكتبة على لسان الجرائد المصورة والروايات الخليعة الماجنة ، وفي المدرسة على لسان اصحابه الفساق المستهترين ... ولسان المدرسين حين يدرسون شعر أبي نواس المقرر رسمياً في المنهج !

إن الشاب تتعبده الشهوة فيخضع لها ، لأن سهامها تنصب عليه من كل جانب ، فلا يطيق أن يتقيها ، فيصورها له خياله عالماً مسحوراً عجيباً ، وجنة فينانة غريبة ، فيتمنى دخولها ، فلا يجد من دونها حجاباً ، بل يجد من يسوقه اليها ويحفزه عليها ، فلا يخرج منها أبداً ، ولا عليه إن ماتت الامة أو عاشت ، فهل فكر أحد من اطباء الاخلاق في هذا الداء ؟

بناء الاخلاق ينهار ، وسوق الزواج يبور ، ونسل الامة ينقطع ، والمخازي والرذائل تعم وتنتشر ، والقادة والمصلحون وأرباب الامر يرون ذلك كله ، فلا يبالونه ولا يفكرون فيه ، ولا يفتشون له عن علاج ... مع أن العلاج

هين ميسور والعقاقير دانية قريبة ، لا ينقصها الا يد تمتد اليها فتأخذها لتجرعها المريض ؛وأين تلك اليد؟

* * *

إن الله الذي وضع الشهوة في النفوس جعل دواءها الزواج ، فاذا تعذر الزواج فهناك طرق للوقاية من الفاحشة ، وهنالك السدود من دونها والحجب : هنالك الدين ، فاذا علمتم الشاب دينه ، وعرفتموه بربه ، ونشأتموه على التوحيد الخالص ، والايمان الصحيح حتى يعلم أن الله مطلع عليه ، لاستحيا من الله أن يأتي الفاحشة بسمعه وبصره ، كما يستحي أن يأتيها على مشهد من أبيه الذي يجله، أو استاذه الذي يحترمه ، ويعلم أن من حق الله عليه ، وقد أعطاه هذه الاعضاء وأنعم بها عليه ألا يستعملها إلا في طاعته ... هذا أول سلاح تدرأ به المعصية ، وهذا معنى قوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » أي لا يستطيع أن يزني وهو مؤمن أن الله مطلع عليه ، ناظر اليه ، ولمنعه الحياء من الله إن لم يمنعه الخوف من العقاب .

وهنالك الشرف ، فاذا ربيتم الشاب عليه ، وجعلتموه يحس به ويقدره قدره ، وأفهمتموه معنى المروءة وقيمة العرض ، لمنعه من الفاحشة ما كان يمنع الجاهلي الشريف ، من أن ينظر الى جارته حتى يواري جارته مأواها .

وهنالك الصحة ، فلو عودتموه الرياضة ، وعرفتموه قيمتها ، وأنبأتموه أن الله جعل مع العفاف الصحة والسلامة ، ومع الفاحشة الضعف والمرض والمصائب السود لاقتصد في اتباع الشهوة ، إن لم يكف عنها ، ولم ينظر اليها الا من سبيلها ، وسبيلها الزواج .

وهنالك طيب السمعة ، وحسن الذكر في الناس ، وهنالك الكثير من

الاسلحة والحجب .

* * *

والعلاج كله في يد وزارة المعارف وآباء الفتيات .

أما وزارة المعارف ، فتستطيع أن تعنى بالاخلاق العامة ، فتبذل جهدها في مراقبة الجرائد والمجلات والروايات ، وتبث الوعاظ ينشرون في الناس الفضيلة ويرغبونهم عن التهتك والعرى .

وتستطيع قبل ذلك كله أن تهتم بأخلاق التلاميذ ، فتوكل بهم من يفهمهم (قبل سن البلوغ) حقائق الحياة الجنسية بأسلوب علمي يضرب فيه المدرس المثل بتلاقح الازهار ، واجتماع الحشرات والطيور ، ويبين لهم بشاعة الفاحشة على مقدار ما يتسع له القول واضرار (العادات السرية السيئة (١)) ويكون حكيما في بيانه ، فلرب بيان مثل هذا ، يخلو من الحكمة ، فيقود الى الرذيلة بدلا من ان يصرف عنها .

وتستطيع وزارة المعارف أن تعلي من شأن درس الدين ، وتختار له من المدرسين من يكون قدوة في سمته وخلقه وسيرته ، فان المدرس يفعل بسيرته في نفوس الطلاب مالا يفعل بمحاضراته وتدخل هذا الدرس في الفحوص والامتحانات العامة ، وتجعل الطلاب (يرسبون) اذا قصروا فيه ، لأن الطلاب لا يمكن أن يعنوا بدرس لا (يرسبون) إن قصروا فيه .

وتستطيع وزارة المعارف أن تلزم المدرسين بأن يكونوا مثالاً كاملاً

---

(١) من الناس من ينفر الشباب من العادة السرية (أي الاستمناء) بتهوين أمر الزنا، وانه لا يضر ضررها ، مع ان ذلك كذب والحكم الشرعي فيها انها مكروهة كراهة تحريم الا اذا كانت عن اضطرار او للخلاص من الوقوع في الزنا ولم يكن فيها ضرر جسدي محقق [راجع حكمها في حاشية ابن عابدين في باب الصيام] .

الاستقامة والعفة والمروءة ، وأن يكونوا قدوة للطلاب صالحة ، فإنا قد رأينا من ليس كذلك ، رأينا من يصحب طلابه الى دور اللهو والفسوق !

وتستطيع وزارة المعارف أن تضع القوانين الصارمة لحماية عفاف الطلاب والطالبات من انفسهم ومن غيرهم .

أما آباء الفتيات الذين لا يزوجوهن الا بيعاً ، فهم رأس البلاء ، ولكنه لا ينفع معهم الكلام .

* * *

أما أنتم يا إخوتي الذين يقرؤون هذا الفصل من الشباب ، فإني انصح لكم (وأنا شاب مثلكم[1]) ، بأن تصرفوا ميولكم الى جهة علوية ، فان الميل كالبخار المتصعّد من القدر قد يجد سبيله فيدير الآلة ، ويسيّر القاطرة ، وقد يحتبس فينفجر به القدر ، وقد يسيل على الأرض هدراً ، فأنا لا أحب أن تسيل ميولكم هدراً ، ولا أن تضيق بها نفوسكم حتى تنفجر ، بل أحب ان (تتساموا) بها فتسوقوها في طريق الفن والإبداع .

إن من يفكر في المرأة ، ويزداد به الشوق اليها ، ولا يجدها زوجة لأن الآباء يضنون ببناتهم حليلات ويبذلونهن للناس خليلات ، يستطيع أن يصب شوقه في القطعة من الشعر او القصة من القصص ، او أن يصور شوقه نغمة جديدة ، او صورة بارعة يشعر اذا صنعها بمثل ما يشعر به من بلغ ما كان يريد ، ويجد الاطمئنان ، ويمشي في طريق النبوغ .

وإن الشاب اذا دأب على المطالعة والبحث ، ورغب في التفوق على رفاقه في المدرسة ، او الفوز على خصومه في الجرى او الملاكمة ، او استغرق في تجارة فشغلته ، او صناعة فملأت حياته لا يجد في نفسه بقية للشهوة ، إنما تستعبد الشهوة من كان فارغ الرأس واليد والوقت .

---

(١) نشر هذا المقال من اكثر من عشرين سنة !

إن الشباب والفراغ والجدة مفسـدة للمرء أي مفسدة !

* * *

وبعد فهـذا داء عضال فتاك ، فأين اطباؤه ، وأين من يتنبه اليه ؟ أين الكتاب الباحثون فيه ؟ أين أولو الأمر المَعْنيون به ؟ أين الغُيُر على الدين والاخلاق ؟ ألم يبق منهم أحد ؟!

★ ★ ★

أخلاقنا

نشرت سنة ١٩٣٨

نحن اليوم (في أكثر بلدان الشرق الإسلامي) في دور يقظة ، ومطلع نهضة ، ولكن نهضة جسم وروح ؛ أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها ، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها ، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها ؛ وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والمثل العليا . فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس ، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب ، وروح الديمقراطية الإرادة المشتركة وضمان المصلحة العامة ، وروح المدرسة تنشئة جيل المستقبل على المثل العليا ، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير ... فهل امتدت نهضتنا إلى الروح ، أم هي قد اقتصرت على الجسم وحده ، لم نُعن إلا به ، شأننا في كل أمر من أمورنا حين نهتم بالقشور ونقف عند الظواهر ؟

الجواب عند القراء ، لا حاجة إلى إثباته في هذا المقال . ولكن الحاجة ماسة إلى كتّاب ومربين وعلماء ، يَستَقرون أخلاقنا التي نحن عليها ، ويصنّفونها ويقوّمونها ، ويرون ما يجب أن يبقى فيعملون على تثبيته ونشره ،

وينظرون ما ينبغي أن يبدّل أو يعدّل ، فيسخّرون المدرسة والصحافة والقوانين لتبديله وتعديله ، لتنشأ أمة المستقبل على الأخلاق الصالحة التي تستطيع أن تبلغ بها ما تريد من مجد وعلاء ، وتتبوّأ المكان اللائق بها بين الأمم ، وتلقي هذه الأخلاق التي ورثناها من الحكم التركي الطويل ، وبلغت بنا قعر الهاوية التي نحاول اليوم النجاة منها ، ونعود إلى أخلاقنا الإسلامية التي قبسها منا الغربيون فأفلحوا بها ونجحوا ...

* * *

من هذه الأخلاق التي يجب أن نتخلص منها اننا لانعرف التعاون ولا نقدر أن نعمل مجتمعين . فالفرد منا عامل منتج ،ولكن الجماعة عاجزة عقيمة ، ومن نظر إلى انتشار الشركات في الغرب على اختلاف أنواعها ، والجمعيات على تنوع غاياتها ، والأحزاب والنوادي ، ورأى ما عندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل ... وعلة ذلك (الأنانية) المفرطة ، والأثرة الجامحة ، وحب الذات الطاغي ، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شيء في الجمعية أو الشركة ، رئيسها إن كان لها رئيس ، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس ، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة ، وأن يكون له الرأي ان أخذت الآراء ... بل انا نرى كلا منا يعطل أعمال الآخرين ويبطلها ، ويعمل على هدمها ، بينما نراه مؤمناً بلزومها ، معتقداً بالحاجة اليها ، ساعياً الى القيام بمثلها ، فهو يعرف الحاجة الى ناد أدبي ولكنه يحارب النادي لأنك أنشأته أنت ؛ وهو يعلم الحاجة الى مدرسة دينية ويدعو اليها ، ولكنه اذا رآها قد فتحت ونالت قسطاً من النجاح أصلاها حرباً حامية ، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها . ذلك

أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة ، ولكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة ، فلما رآك أنت السابق اليها والذاهب بفخرها ، خان المصلحة وعصى الله ليرضي أثرته ويستجيب لانانيته... وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسعى الى تأليفها بحماسة وجد ودأب قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لايتحدث إلا بحديثها ، ولا يشتغل إلا لتأسيسها ، فإذا تم له الفلاح بعد التعب والكفاح وقامت الجمعية ولم يكن هو الرئيس أو هو الناموس انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسعى الى هدم ما بناه بيده ...

هذا داء من أشد أدوائنا الخلقية ، إن لم نعالجه فشت جرثومته في جسم الأمة ، فشلّت أعضاءها وعطلت أعمالها :

متى يبلغ البنيان يوماً   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

وأين هو الاخلاص ، وأين هو الصدق ، فيمن يدعو إلى الخير أو الدين أو الفضيلة ، وغايته استغلال الدين والخير والفضيلة لمصلحة نفسه وإطاعة هواه ؟

* * *

ومن هذه الأخلاق أننا لا نعرف قيمة الوقت ، وأنا نضيع أوقاتنا سدى ، ونذهب أعمارنا عبثاً لا نعرف لها قيمة وهي أثمن ما نملك . وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته ، وينفقه في علم أو أدب أو شيء مما ينفع الناس ، لم يعدم من الثقلاء من يضيع عليه وقته ، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء ، وما أظن أن في القراء من لا يذكر حادثة في هذا الباب ... كنت ذاهباً الى المدرسة ذات مرة ، وكان علي محاضرة لم يبق دون موعدها إلا مسافة الطريق ، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريقي فاعترضني رجل كبير كان

ناظر المدرسة الثانوية التي كنت فيها وله في البلد حرمة ومقام ، فأقبلت عليه أحييه وأفهمته برفق أن عليّ محاضرة قد حان موعدها فقال : طيب .. لحظة . وانطلق يتكلم ، فلا والله ما سكت إلا بعد ما مضت نصف ساعة ألقى هو فيها المحاضرة عليّ ، وأنا أتململ وأتحرك ويربدّ وجهي وأحس النار تشتعل في عروقي. فلما انتهى قال :

— أظن أننا وقفناك ... عدم المؤاخذة !

* * *

هذه علة أخرى من عللنا الأخلاقية ... لاشك في أنها من أشدها وأدواها لأن حفظ الوقت آكد وسيلة الى النجاح ، وخير طريقة لرفعة الفرد والمجموع. أذكر أن الدكتور نمر تحدث الى قراء المقتطف في العدد الخاص بعيد المقتطف بين لهم أن أثمن ما استفاده من الأمريكان في كليتهم هو تقدير الوقت ، وأن ذلك هو الذي أعانه وزميله الدكتور صروف على النجاح وأتاح لهما تحقيق هذا المشروع العظيم ، والأمريكان خاصة والغربيون على التعميم يعرفون كيف يستفيدون من أوقاتهم ، فيقوم أحدهم في اليوم بأعمال لا تقوم بمثلها الجماعة منا في أسبوع . وكذلك كان أجدادنا الذين تركوا هذه الآثار العلمية الضخمة ، وكان فيهم من بلغت تصانيفه الثلاثمئة فما فوقها .. كانوا يحسنون الاستفادة من أوقاتهم ، ولا يدعون دقيقة واحدة تمرّ إلا في عمل مفيد ، أو راحة واجبة ، أو قضاء حق لله أو للجسم أو للعيال .. والوقت لا يضيق بعمل إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به . ولو أحصى الواحد منا ما يذهب من عمره هدراً في (المقاهي) أو دور اللهو ، وفي الأحاديث الفارغة ، ومطالعة الصحف الجوفاء ، والمجلات المؤذية ، وقدر ما يمكن أن يعمل في مثل هذا

الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الامر ورأى شيئاً عظيماً

وانظر الى التلميذ إذا دهمه الامتحان كيف يقرأ الكتاب في ليال ويحفظه كله ، والموظف إذا اضطر الى العمل ، أو الصحفي إذا كان موسم من مواسم الصحافة ، والمؤلف إذا طمع في الجائزة الكبرى ؛ انظر الى هؤلاء كلهم ، وانظر الى هؤلاء الأفراد الممتازين الذين يشتغلون بالسياسة ويبرزون فيها ، ويؤلفون في الأدب وينبغون فيه ، ويطالعون كثيراً من الكتب ، ولا يقصرون في حقوق أنفسهم وأهليهم ، وحقوق الناس ، تعلم أن الوقت واسع جداً ، ولكن الجاهل المهمل يضيقه على نفسه

* * *

ومن الأخلاق التي يجب أن نتعلمها تقدير المصلحة العامة واهمالنا هذه المصلحة باب آخر من أبواب الأثرة (الأنانية) منشؤه أن أكثر الحكومات التي تتالت على بلدان الشرق الإسلامي في هذه القرون الأخيرة لم تكن من الشعب ولا إلى الشعب ، ولم تكن تحرص على مصلحته ، فزالت ثقته بها ، ونظر اليها نظره الى عدو مقاتل ، وغدا يرى كل أذىً يلحقه بها ، أو مال يستلبها إياه ، أو حق لها يضيعه ، يرى كل ذلك بطولة وفخراً ، وغدا كل واحد منا يسعى جهده ليفرَّ من الخدمة العسكرية أو يحتال بحيلة تنجيه من دفع الضرائب ، أو يتوسل بوسيلة الى اختلاس مال الخزينة . ولعل له في ذلك عذراً ، هو أن الخدمة العسكرية كانت لحماية الحكومة دون الشعب ، والضرائب لحياتها هي ؛ وكان مال الخزينة مالها ينفق على أفرادها . ولا تزال الموازنة عندنا الى الآن مصروفاً ثلثاها على الموظفين رواتب لهم وأجوراً ، والثلث أو ما دونه على المصلحة التي أنشئت من أجلها الحكومة

ونحن في حاجة الى التخلص من هذا المرض . نحن في حاجة الى الإيمان بأن مصلحة الفرد في مصلحة المجموع وأن رفعته في رفعة الأمة ... يجب أن تسأل الأم ابنها كل ليلة : ماذا عملت لأمتك ؟ بماذا خدمت اليوم دينك ؟ هل راقبت ربك في عملك ؟ هل امرت بمعروف أو نهيت عن منكر ؟ هل أحسنت الى سائل ؟ هل تبرعت بقرش لجمعية خيرية ؟ هل تعلمت مسألة نافعة ؟ هل كنت مهذباً مع رفاقك ؟ ويجب أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال عند ما يضع رأسه على الوسادة قبل أن يستسلم الى النوم

* * *

ومن هذا الباب اطاعة القوانين واحترام النظام ، ذلك الذي لم نتعلمه بعد ولا نعرفه أبداً لأن زماناً غبر (ولم يتبدل بعد) كانت القوانين والأنظمة توضع فيه لغير مصلحتنا وتفرض علينا فرضاً فتعودنا ألا نطيعها وألا نحترمها ، ولكنا دخلنا اليوم في طريق الاستقلال (أو كأنْ قد) وصرنا نضع قوانيننا (الى حد ما) بأنفسنا فيجب أن يتبدل ذلك كله وأن يرسخ في نفوسنا احترام القوانين وإطاعتها مادام فيها طاعة الله ومصلحة الناس

ومن هذا الباب أو ما هو شبيه به احترام الراحة العامة . نمت ليلة في فندق كبير في بيروت ، فنزل في الغرفة اللاصقة بغرفتي جماعة من أكابر حلب حلّوا بعد نصف الليل فبعثوا أحدهم بحاجة لهم إلى السوق ، فلما بلغ الشارع ذكروا حاجة أخرى يأمرونه بقضائها فأطل أحدهم من شرفة الطبقة الخامسة وناداه وكلمه بصوت يوقظ الموتى ، فلم يبق حيّ في الفندق إلا قام . ولما عاتبوه ولاموه لم يستطع أبداً أن يفهم أو يتصوّر أنه أتى أمراً نكراً

وانحدرت مرة من الأعظمية الى بغداد في سيارة عامة من هذه السيارات التي يسمونها هناك (الباص) فركب معنا جزار معه خروف مسلوخ وضعه

على ركبته وألقى برقبتـه على ثيابي ، ورأيت الناس ينظرون اليه نظر المقرّ الموافق فاضطررت الى النزول من غير أن اشتبك معه بقتال .

وكثيراً ما نسمع رجلاً أو جماعة يمرون في الشارع قبيل الصبح فيأخذهم الطرب فيغنون بمثل الصوت الذي ذكره ربنا في الكتاب ، ولا يقدّرون او يتصورون أنهم يسيئون الى أحد .

ولا يمضي على الواحد منا يوم لا يرى فيه ما يسوء ويزعج من بصاق في الترام أو المقهى ، أو حديث في المكتبة العامة ، او خصومة في المسجد ، او غير ذلك من المزعجات المنغصات التي لا يزيلها الا عناية المدرسة بتعليم الطلاب احترام الراحة العامة ، وحث الصحف الشعب على ذلك .

* * *

ومن الاخلاق التي يجب أن نسرع الى تعلمها احترام الواجب والاستقامة والاصغاء الى صوت الضمير . إن المعلم لا يتورع اذا أمره رئيس أو رجاه صديق أو نالته منفعة ، ان ينجح التلميذ الذي يستحق السقوط في الامتحان وأن يزيد في الدرجات وان يفعل كل شيء ؛ والقاضي لا يمتنع عن تبرئة الظالم وعقاب المظلوم ؛ والوزير لا يتقاعس عن إيثار الشفاعات والوساطات على الكفايات والشهادات ؛ والطبيب لا يبالي بأن يجهض أو يأتي كل أمر يستطيعه ما دام في ذلك لذة له أو فائدة ؛ والموظفون يقبلون الرشوة والناس يعطونها ولا تكاد تجد من عرف الواجب عليه وأكبره إكباراً ، وضحى في سبيل القيام به بكل شيء ولا أعني ان كل المعلمين أو القضاة او الوزراء او الاطباء متنكبون سبيل الشرف مضيعون للواجب ، ولكن الذي أعنيه أن فيهم من هذا شأنه ، وان احترام الواجب لم يذع فينا ولم يصبح شعاراً دائماً لنا ، وأن المدرسة والصحافة والقانون وواضعه ، كل أولئك مقصّرون

لا يولون هـذا الامر ما يستحق من العناية والاهـتمام في حين أنه من الأسس الثابتة والدعائم الكبرى في بناء الأمم .

ونحن في حاجة الى تعلم الصدق ، لأن الكذب قد فشا فينا وعم وأصبح أسهل شيء علينا ، فنحن نكذب في الامور الهينة ونكذب في الجليلة ، ونعلم أولادنا الكذب . من منا لا يقرع بابه فيقول لابنه : قل له إن أبي ليس هنا ! ومن منا يلقى رفيقاً له أو رجلاً يعرفه فيقول له : كيف حالك أو زيك ؟ فلا يقول له : بغاية الشوق ، وهو لا يشتاقه ولا يفكر فيه ، وقد يكون مبغضاً له يرى البعد عنه غنيمة ... فمجاملاتنا وحياتنا الاجتماعية كلها قائمة على الكذب . ومن جرب ان يصدق يوماً كاملاً رأى العجائب ، وقد أدرك ذلك العامة فجاء في أمثالهم (الصادقة) : الكذب ملح الرجال ، والعيب على الذي يصدق .

* * *

هذا وشبهه (وما أكثر أشباهه) روح النهضة وقوامها ، فاذا لم تعتن به به الحكومات والاحزاب والجمعيات والمدارس ، ومن يشتغل بالوطنية ، ويبث في نفوس الاطفال ، ويوضع في نظم التربية والتعليم ، كانت نهضتنا جسماً لا روح فيه !

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يا أيها الأغنياء

نشرت سنة ١٩٣٩

ألم يأنِ لكم أن تخشع قلوبكم ، وتلين أفئدتكم أفقُدّت من حجر ؟ ألا تكلفون نفوسكم تحريك اجفانكم وفتح عيونكم لتروا صرعى البؤس ، وضحايا الفاقة ، ماثلين لكم في كل سبيل . فتأخذكم بهم رحمة الانسان ، وتعرو قلوبكم لهم رقّـة المؤمن ؟ إني لأحاول ان افهم كيف تزينون لأنفسكم حالكم ، وتبررون إهمالكم ، فلا استطيع ... لا استطيع ان اتخيّل كيف يهنأ صاحب القصر بطعامه وشرابه ، وكيف يدلل صبيته ، ويضاحك عياله وعلى عتبة قصره وتحت شبابيكه صبية مثلهم برءاء ما جنوا ذنباً ، اطهار ما كسبت ايديهم جريرة ، ، يبكون من الجوع ويشتهون قطعة من الرغيف الذي يلقيه الغني لكلبه السمين ، يتمنون ويتمنى آباؤهم قرشاً من الجنيه الذي يرميه الغني في الهاوية الخضراء التي يسمونها (مائدة القمار) او يذيبه في كأس السم التي يدعونها (الشمبانيا) ثم يخرج جنيهاً غيره بعد لحظة ليتبعه الاول ، ويتبع به عشرات ... يتمنون هذا القرش الواحد ليعيشوا به يوماً ، ويملؤوا به بطونهم خبزاً ، فكيف تضنون على الانسان المسكين بالقرش ، وتنفقون الالوف على الشيطان ، وعلى خراب الابدان والاوطان والاديان ؟

إننا نقرأ في الصحف من أنباء أوربة واميركة ان لأغنياء القوم مآثر وعطايا

ولهم في كل مكرمة السهم الراجح والقدح المعلّى، ونسمع فيهم من يعطي العطيّة وهو مستتر مستحٍ لا يحب ان يدعى باسمه ، وإنما يتسمى من التواضع والحياء بـ (فاعل الخير) ... فما لأغنيائنا الذين يقلدونهم في عيوبهم ومثالبهم ، لا يتشبهون بهم في مزاياهم وفعالهم ؟ وما لأغنيائنا [1] دون أهل الارض قد اختصوا (بفضيلة ...) الترفع عن الفقراء ، والتعالي على ابناء هذة الأمة التي منها انحدروا وبفضلها عاشوا ، وإنكارها إنكاراً ظنوا معه انهم من طينة غير طينتها ، وأنهم ابناء ماء السماء والناس بنو (ماء الأرض ...؟)

أكانت علّة ذلك أنهم شرقيون ، وكان السبب هذا الشرق المظلوم ، المتهم بكل نقيصة ؟

قد يقول ذلك المفتونون بالغرب من ضعاف الاحلام ومرضى العقول ، في حين ان الكرم والإيثار بضاعة شرقية ، من الشرق قد صدرت ... ولقد بلغ بالعرب حبّ الكرم مبلغ الافراط ، وزاد حتى كاد ينقلب مذمة يؤخذون بها ، فكيف يستقيم في المنطق (مع هذا) ان يكون هؤلاء الاغنياء بخلاء لأنهم شرقيون ، او لأنهم عرب ؟ وهذه عادات العرب ، وهذا دينهم وهو القانون الأوحد الذي يحلّ مشكلة الغني والفقير ، والذي يردّ عن العالم هذا الوحش الكاسر الذي جاء يحتويه بين فكيه اللذين هما الشيوعية و (الرأسمالية) ويدعه أثراً من الآثار ، فكيف تظهر مشكلة الغني والفقير في البلد الذي يدين أهله بهذا الدين ؟

* * *

لا . ليست الشرقية علّة هذه المشكلة ، ولكن العلّة كفر هؤلاء القوم

«١» لا اعنيهم جميعا . واني لاقر ان في الاغنياء كرماء ، وفي المثرين محسنين .

بالشرقية ودينها وعاداتها كفراً لا يصلح معه تنبيه ولا بيان ، وإنما يصلحه ان ينشأ ابناء هؤلاء الاغنياء الاشحّة على الخير ، الاسخياء على الشر ، نشأة اخرى ينقلبون معها ناساً آخرين ، ولا يكون ذلك الا بالمدارس والأدب . ولقدكان عندي في إحدى مدارس دمشق فصل (صف) فيه ابناء افقر الفقراء ، وابناء اغنى الاغنياء ، وكانوا في الفصل منفصلين كأنهم في معسكرين ، وكان هؤلاء يأتون الى المدرسة بالسيارات ويوصلهم الى بابها الخدم يحملون لهم كتبهم كيلا تتعب بها أيديهم الناعمة ، ويدخلون الفصل مزهوين بثيابهم الجديدة ، وأولئك ينظرون محسورين . فما زلت (والله) بهم أبيّن لهم ان الفضل بالعلم والخلق والجد لا بالمال والثياب والمظاهر ، واضرب لهم الامثلة بعمر وعلي وابن عبد العزيز ولنكولن والشيخ طاهر ، وأنزل بالاغنياء لأعلمهم فضيلة التواضع ، وارتفع بأولئك لألقنهم فضيلة العزّة ، حتى صار بنو الاغنياء يستحيون ان يأتوا بالسيارات ويتوارون حياء وخجلاً اذا جاءتهم عند منصرف التلاميذ لتحملهم الى دورهم وقد كانوا لا يستحيون ولا يخجلون . وكانت النتيجة ان المعسكرين قد انقلبا إخواناً متصافين وظهر في كليهما تلاميذ نابغون ما كانوا لينبغوا أبداً لولا أن القوا من نفوسهم مذلة الفقر وكبرياء الغنى واستبدلوها بعزة الكرامة وعظمة التواضع !

فيا ليت ان المدرسين ينتبهون جميعاً الى هذا الامر فيسدون الى الامة يداً ويكسبون من الله أجراً ، فإنه لا شيء أشد على نفس الفقير من ان يتحكم فيه أو يسمو عليه ابن الغني . وأنا (قد) احمل ما أرى من صلف الغني وأوهم نفسي أنه قد كسب ماله بيده وجده فحق له أن يستمتع بثمرته ، أما ان أرى الصلف من ابنه فلا ... فيا أيها الاغنياء لا تحملوا ابناءكم على رقاب الناس ، فإنكم لا تدرون كم عدواً تكسبون لهم ، وماذا تفسدون من طبائعهم حين

تأبون الا أن تدللوهم هـذا الدلال ، وتترفعوا بهم الى حيث تبلغ أيديكم وأموالكم ، وحين تمكنونهم من أولئك الذين ساقهم الفقر اليكم ، واضطرهم فكانوا لكم خولاً او أجراء ، فيشمخون عليهم بآنافهم الصغيرة ويذيقونهم ألوان الأذى ، والطفل (في الطبع) لا يعرف الرحمة ، ولا يدري ما العقل فكيف وهو ابن الغني قد ورث القسوة وتطبع عليها وقلد فيها أباه ؟ وإنا لنرى نحن المدرسين من ذلك العجب ... هذا تلميذ يأخذ كل يوم من أبيه ما يقيم أود أسرة من هذه الأسر الجائعة فلا ينفقه الا في الشر ، والمال يذهب من حيث أتى ... رأيته يضنّ على رفيق له فقير بقرش يقرضه إياه قرضاً ليشتري به رغيفاً يتغدى به ، ويشتري بسبعة عشر قرشاً فرنيّة (كاتو) يطعمها على مرأى منه لكلب له صغير مدلل يسوقه معه الى باب المدرسة ثم يعود به الخادم في السيارة . وأبوه الغني يسمع بهذا فلا ينكره ولا يأباه ، كأن الله قد خلق الناس بقلوب ، وخلق هؤلاء بجيوب ، فأبدلهم بالعواطف المال ، فهم لا يحسون ولا يشعرون ولا يدركون ان الله ما نقص من مال الفقير إلا ليتخذ له في الآخرة إن صبر ذخراً ، ولا زاد في مال الغني الا لينظر أأعطى وشكر ، أم بخل واستكبر ، ثم لا يكون الغني الا خازناً لهذا المال يحاسب به يوم القيامة فيشدد عليه الحساب . أفرأيت خازناً في مصرف أو شركة يظن أن المال ماله فيخالف فيه أمر اصحابه ، ويمنعه عمن هو حق لهم ؟

المال أيها الاغنياء مال الله فإن زاد لم يمكن إنفاقه الا على الخلق (عيال الله) ،فأروني كيف تأكلون الذهب ، وتلبسون (البنكنوت) ، وتسكنون صناديق الحديد ؟ إن هي الا معدة تمتلىء بما يقذف فيها والجوع يحسّن لصاحبها كل أدام ،وجسد يستقر بما يلقى عليه والنظافة له أحسن حلية ،وبيت يُكِنّ من الحر والقر ولذائذ محللة ميسورة ،وما وراء هذا الا أكل يفسد الهضم ،أو زناً يهد الجسم

وخمر تحرق الاحشاء ، وبلايا معها بلايا اخرى من عذاب الضمير والغفلة وضياع الايمان ، أو مآثر تنفع الناس وترضي الله ، ويجد صاحبها مكافأتها الاطمئنان والمجد في الدنيا ، والثواب من الله في الآخرة ، وهذه حكمة واحدة من حكم الله في الغنى والفقر لو تدبرتموها لفتحت آذانكم فسمعتم كلمة الحق ، وكشفت الغشاوة عن عيونكم فقرأتم في خلق الله وفي كتابه آيات الهدى ، ولكن اللذاذات قد شغلتكم يا أيها الاغنياء الاغبياء !

* * *

على أنه ليس أشدّ على الفقراء من منع الغني المترف صاحب الاطيان والمتاجر وبخله وصلفه وتبذيره ... الا الموظف الكبير الذي ينال وهو قاعد على كرسيّه لا عمل له الا تشريف أوراق الدولة بتوقيعه الكريم ينال الثمرة التي يتعب فيها الفلاحون ، يجدون ويشتغلون في وقدة الضحى تحت الشمس المتسعرة ،وفي زمهرير الليل تحت النجوم التي ترتجف اشعتها من البرد ، ليقدموا لهذا الموظف الكبير ثمن سيارته التي يسوقها ابنه خلال الحقول تياهاً مستكبرا وقصره الذي يلوح بين بيوت القرية كالجبار العابس الباسر ، وثمن كأسه المحرّمة ولذاته المنكرة ، ويذهبون فيأكلون خبز الشعير وينامون على الحصير . هذا الموظف الذي لا يكفيه وحده ما يدفعه أربعون من صغار (المكلفين) تباع فرشهم من تحتهم وقدورهم وثيابهم لتؤدى من ثمنها الضريبة . هذا الموظف يستعلي ويستكبر ويقبض يده عن الاحسان ويبسطها في سبل السوء ، ويتشبه بأولئك الاغنياء الاغبياء وقد يسبقهم في ذلك اشواطاً ، ومن كان في شك مما اقول فليذهب الى القرى والدساكر .

ولسنا والله شيوعيين ولا يرانا الله ندعو الى هذه اللعنة (الحمراء) ولا

نؤلب الناس بعضهم على بعض ، ولكننا ندعو الى (الشعور) الذي لا يكون الانسان الا به إنساناً ، والاحسان هو شعبة من شعب الدين الاسلامي ... فمن اختار من الاغنيـــاء وأرباب المرتبات الضخام ألاّ يكون إنساناً ولا مسلماً فليفعل !



حق الضيافة

نشرت سنة ١٩٤١

قد أكون على موعد يفوتني بفواته خير عظيم ، ولا يبقى بيني وبينه الا مقدار ما ألبس ثيابي وأمشي اليه ، فيجيئني ضيف لا حاجة له عندي ، ولا خير له في زيارتي ، ولا يبتغي مني الا ان يدفع الملل عن نفسه بالبقاء ساعتين او ثلاثاً عندي ،فيسقط في يدي ، واحار في امري : إن استقبلته ضيعت موعدي وان رددته اضعت « حق الضيافة » وتعرضت لسوء الاحدوثة؛ ثم اختار اهون الشرين فأرحب به وأدعوه ، وآمل ان افهمه حقيقة حالي واعجل له بالقهوة فينصرف... واجلس بين يديه متململاً متضايقا ، واتلطف في إفهامه والاعتذار اليه ، فلا يحفل بي ولا بموعدي ، ولا ينظر الا الى نفسه ورغبته في قطع الوقت بهذه الزيارة ، فيقعد آمناً مطمئناً ، يحدثني حديث السياسة ، ويسألني عن الروس واليابان ، والصين وتركستان ، ويعرض عليّ رأيه في الانظمة التي ستعم العالم بعد الحرب ... ويفيض ويسهب ، وأنا اتقلّب على النار ، ويبقى على ذلك حتى لا يبقى لي منفعة من الذهاب ، ولا يمكن تدارك ما فات ، فينصرف ليتحدث عني بأني لقيته بجفاء وخشونة ، وكلمته باقتضاب وإيجاز ، ولم أوفّه « حقوق الضيافة » !

وقد اكون مستغرقاً في مطالعة ، او منصرفاً الى كتابة قد جمعتُ لها ذهني ... فيجيئني ضيف ، فأنزل اليه لأسمع منه لغو الحديث ، فيتفرق ما اجتمع من ذهني ، وتفسد عليّ مطالعتي ، وإن أنا بعثت من يقول له : « ليس هنا » اكون قد كذبت ، واذا اعتذرت اليه بمطالعتي او كتابتي اكون قد قصّرت في « حقوق الضيافة » !

وقد يأتي الضيف ومعه ولده ، فيعبث بالكراسي والمناضد ويكسر الكأس ، وربما امره أبوه بأن يتسلى باللعب مع اولاد الدار ، فينطلق كالجنّ فيفسد كل ما يمر عليه ويزعج الاهل ويأتي كل كريهة ، فاذا زجرته او كففته او افهمت أباه انه ليس من الذوق ولا من التهذيب ان يحمل ابنه – اعني عفريته – الى بيوت الناس ، اكون قد فرطت في « حقوق الضيافة » !

وإن كانت وليمة او عقد ودعوت عشرين رجلا ، جاؤوك ومعهم عشرون ولداً ، فتنقلب الدار الى مدرسة او الى مارستان ويتحول المضيف الى معلم او قاضي اولاد ، وقديماً قال المثل العامي : « قاضي الاولاد شنق نفسه » ... فإذا وقفت على الباب خادماً يمنع دخول الاولاد ، غضب الآباء المدعوون ، وانصرفوا ساخطين على هذا الذي لا يعرف « حقوق الضيافة » !

وقد يكون لك عدو تعرّض لك بأنواع الاذى ، وأراك فنون العدوان ثم نشأت له حاجة عندك ، فزارك في دارك ، وأبى أن يشرب قهوتك حتى تقضي حاجته ، وربما كانت حاجته أن تنجح ابنه في الامتحان ... فإذا قضيتها خنت أمانتك وعاد الى مضارتك ... وإن أبيت عليه وأعرضت عنه ، وأفهمته أن الامتحان أمانة ، وان ابنه ضعيف كسلان لا يجوز نجاحه ، كنت الملوم المعاتب ، لأنك لم تحفل « بحقوق الضيافة » !

* * *

والضيف يزورك حينما يحلو له لا حين يحلو لك ، ويبقى ما طاب له البقاء عندك ، ولا شأن له بفراغك ولا بشغلك ، ولا بضيق وقتك ولا بتعب أهلك ففي الغداة تجوز الزيارة ، وفي الضحى وعند الزوال ساعة الغداء وفي الظل وقت الراحة ، وفي الاصيل وفي الليل . وقد يصل الزائر هذه الاوقات كلها بعضها ببعض ، فيشرفك بزيارته من الصباح ويلبث (يؤنسك) الى وقت المنام ، ووقت منامه هو لا منامك أنت ، وربما زارك أقرباؤك ، او أقرباء أقربائك بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ؛ وأقاموا عندك (صلة الرحم) أياماً ولياليَ ، ونغّصوا عليك عيشك ، وافسدوا نظام دارك ، وأنت مضطر الى السكوت لا تستطيع أن تقول شيئاً يمسّ (حق الضيافة) . وربما زارك الزائرون في محل عملك ، فشغلوك عنه وأكسبوك غضب رؤسائك ، وسخط زملائك .

* * *

ولقد كان الكرم والشجاعة عماد الاخلاق عند العرب وشعارها وجماع امرها ، لمكان البداوة من حياتهم ، فقد كانوا يعيشون في قفار قاحلة وقرى كالقفار ، لا فندق فيها ولا مطعم ولا خان ، وما للنازح فيها عن داره الا أن ينزل ضيفاً على كريم يؤويه ويقريه ، ولم يكن في بلادهم شرطة ولا نيابة ولا سجن فلم يكن للرجل الا سيفه يعتصم به ، فتعودوا الشجاعة والكرم حتى صار ذلك طبعاً لهم وخلقاً ، وبالغوا فيها وجانبوا القصد ، فبلغوا التبذير وقاربوا التهور ، وكان عذرهم في ذلك ان الرجل منهم يُطعِم حتى يطعَم ، ويقري الطارق الغريب كي يُقرَى هو طارقاً غريباً ، واستمر ذلك الى الاسلام بل لقد بولغ فيه بعده حتى أتى القوم بهذه العجائب التي نقرأ أخبارها في الكتب

وانتهى ذلك الينا فنشأنا على تقديس (حق الضيافة) وتقديمه على سائر الحقوق ، ورفعه مكاناً علياً لا يناله النقد ولا التقويم ، واتهام من يقول فيه مثل مقالتي باللؤم والبخل . لذلك أقدمت عليها متردداً يدفعني اليها أننا في مطلع حياة جديدة يجب في مثلها تمحيص الاخلاق والعادات وتقويمها والإبقاء على النافع منها وطرح مالا فائدة منه بعد ما تغير الزمان ، ولا يكون ذلك الا بالخروج من ربقة التقليد الذي لا يفيد . ومنه تقليد أجدادنا الاولين في هذا الكرم القبيح الذي ذمه الله وسماه تبذيراً ، وجعل أهله إخوان الشياطين ، والقصد في الامر والتوسط فيه ، ووضع الامور في مطارحها ولو أن حاسباً مستقرياً نظر فيما ينفق عندنا في كل سنة على الولائم والاعراس والمآتم من الاموال لهاله الحساب ، ولرأى ان هذه الاموال التي تنفق فيما لا طائل تحته ، ولا موجب له الا التقليد الضار ، يمكن ان ينشأ بها من المدارس والمصانع ما يرفع أمتنا درجات في سلم الارتقاء في آن قريب ، فضلاً عما يكون فيه من راحة البال ، واضطراد الاعمال ، ودفع المكاره التي ذكرت أمثلة عليها في مطلع هذه المقالة.

واذا كانت هذه الحاجة هي التي علمت اجدادنا هذا الكرم ، فأي حاجة تدفعنا الى الاستمرار عليه ؟ وما هو الضرر الذي ينال الضيف إن قلت له : أنا الآن مشغول فزرني إن شئت في وقت آخر ؟ ولِمَ نخاف من ذلك وهو من آداب ديننا ، وقد كان من خلائقنا قبل أن يتخلق به الافرنج ؟ وماذا يضر الاهل والاقربين أن يهنؤوا بالمولود فلا يشربوا (الكراوية) ، وأن يحضروا (العرس) فلا يأكلوا الرز واللحم والبقلاوة ، وما هم في صحراء كصحراء العرب يحتاج فيها الى القِرى ، ولا هم جياع قد حضروا للطعام ، وليس المقصد الا الاجتماع وقد حصل ؟ لقد خبرني صديق صادق مطلع أن نفقات عشر ولائم فقط من أوسط ما يكون في الاعراس أو المآتم تكفي لفتح مدرسة ابتدائية

تتسع لمائتي تلميذ ، فما قولك بنفقات الولائم كلها وسكاكر الاعياد وهدايا الولادة والعرس ؟

* * *

أنا لا أرتقب من الامة أن تقرأ هذه المقالة وتنام ليلتها فتصبح وقد نبذت هذه العادات وحددت آداب الزيارة ، وتنكبت سبيل التبذير ، فإن هذا مالا يكون ، وإنما ارتقب أن أجد من القراء من وهبه الله الجرأة في الحق ، والرغبة في الاصلاح فيسن للناس سنة (في هذا الباب) حسنة يكون له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، كما صنع في دمشق شيخها الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله . وعادات الافرنج في الزيارات والولائم أصلح في الجملة مما نحن عليه اليوم ، وتقديرهم للوقت أشد ، وهذا كله من آداب الاسلام ، والسلف كلهم كانوا على مثله ، فلنقتبسه عن الافرنج اذا كنا لا نتبع فيه سلفنا الصالح ، ولنجعل للزيارة آداباً وأوقاتاً ، ولنعلم أن (حق الضيافة) لا يقدم على حق المواعيد ، ولا حق العمل ، ولا حق الاهل ؛ وأن ردّ الضيف أهون من احتمال الاذى ، وإخلاف الوعد ، وترك العلم ، وإضاعة الاشغال ولنجعل إمامنا قول الله جل وعز « يا أيها الذين آمَنوا لا تدْخُلوا بُيوتاً غيرَ بُيوتِكم حتّى تستَأنِسوا وتسلِّموا على أهلِها ذلِكُم خيرٌ لَكم لعلَّكم تذكَّرون فإن لم تجِدوا فيها أحداً فلا تدْخُلوها حتى يُؤذنَ لَكم وإن قيلَ لَكم ارجِعوا فارْجعوا هو أزْكى لَكمُ والله بما تعمَلون عَليم». صدق الله العظيم.

العربيّة والإسلاميّة

نشرت سنة ١٩٤٦

سيقول القراءمن المصريين : ما العربية وما الاسلامية ، وهما شيء واحد؟ ومن قال بالعربية قال بالإسلام ؛ لأن العربية لم تكن شيئاً مذكورا لولا الاسلام . ومن قال بالاسلام قال بالعربية ؛ لأن الاسلام دين ، نبيّه عربي ، وقرآنه عربي ، وقبلته في بلاد العرب . والنداء الى التوجه اليها بلسان العرب؟!

لا يدري القراء من المصريين أن هذا حديث المجالس في الشام والأندية والمدارس ، لا يمر يوم دون مناظرة فيه بين الشباب المسلمين الدين يحسبون أن من الاسلام محاربة الفكرة العربية وترك قيادها لغيرهم ، والشباب القوميين الذين يظنون أنهم يستطيعون تجريد العربية من الاسلام والدعوة اليها على أنها قومية من القوميات .

وكذلك كانت الحال لما كنا ندرّس في مدارس العراق حين اشتدت الدعوة القومية على عهد سامي شوكت (في وكالة وزارة المعارف) واستجاب لها المدرسون خوفا وطمعا . ومنهم من استجاب لها عن إيمان بها ، ولم يبق ثابتا على إسلاميته الا ثلاثة : عبد المنعم خلاف ، ومظهر العظمة ، وعلي الطنطاوي ، نقلوا جميعاً الى شمال العراق ، الى مناطق الاكراد . فاستقال الأول وعاد الى

مصر ؛ وعاد الثالث الى الشام بعد شهور ؛ وثبت الثاني الى نهاية حركة رشيد عالي الكيلاني .

غير أن الفرق بيننا وبين العراق ، أن الدعوة القومية هي الغالبة على شبابه والقوميون الملحدون قلة في الشام . واكثر أهل الشام يقولون بالاسلام وبالعربية . والكلمتان على لساني أنا وكتاباتي من اكثر من ربع قرن ، كالمترادفتين ؛ أقول الاسلام وأريد العربية ، وأكتب العربية وأقصد الاسلام

لذلك أجهدت ذهني ، وكددت فكري ، حتى استطعت إدراك جوهر الخلاف بين الفريقين . وما ذاك عن جهل مني بحجج الطرفين وأقوالهما ، فلقد حفظتها من كثرة ما سمعتها ؛ بل لغموض صورة الدعوة العربية حتى في أذهان أصحابها ، وأنهم حين يكتبون فيها ، أو يجادلون عنها ، يأتون بشيء هو الى الفلسفة الغامضة ، والخطابيات الفارغة ، أدنى منه الى التعريف العلمي الواضح

وجوهر الخلاف إنما كان على بناء الدولة . هل تكون إسلامية ، ويكون الاسلام هو الرابطة بين افرادها فيدخل فيها المسلمون جميعاً ويكونون أمة واحدة ، أم تكون عربية ، وتكون الرابطة رابطة الجنس ، فكل عربي هو منا ولو لم يكن مسلما ، وكل أعجمي ليس منا ولو كان مسلما ؟

أي أن ثمرة الخلاف كما يقول الفقهاء ، في العربي غير المسلم ، والمسلم غير العربي ، أيهما الذي يجب أن نتولاه نحن العرب المسلمين ؟

وأنا سأحاول أن أثبت في هذا الفصل ، أنه ليس بين الاسلام والعربية تناف ولا تباين ، وأن المسلمين أمة واحدة وأنها اشد تماسكا ، وأدنى الى الوحدة من مجموع العرب ، وأن هذا الخلاف ليس له ثمرة ، لأن إخواننا العرب غير المسلمين ، عاشوا معنا ، وسيعيشون معنا ، ما ضقنا بهم ولا ضاقوا بنا ، وما ظلمناهم ولا شكوا من ظلمنا ، وأن الشباب المسلمين هم أحق الناس بحمل لواء

العربية المسلمة ، والدفاع عنها، والعمل على تمجيدها وفيما يلي تفصيل هذا الاجمال:

من الوجهة النظرية

إن في (نظرية الدولة) آراء كثيرة يدرسها طلاب كليات الحقوق أشهرها رأي رينان . ونحن نطبقه على هذا البحث ، لا لأننا نجد لزاما علينا أن نتبع الغربيين حتما في مذاهبهم ، ونفكر برؤوسهم ، بل مجاراة لمن يقول بذلك من الشباب وقلبا لدليلهم عليهم ، وإلا فنحن نعلم أن لدينا من رأي الاسـلام في إقامة الدولة ما هو أصح من رأي رينان صحة ، وأكثر نفعاً لنا ، وتحقيقاً لمصلحتنا ، وإن كان رأي رينان هذا لا يبعد كثيراً ، ولعله أخـذه من رأي الاسلام الذي كان على إلمام بأحكامه .

الدولة عند رينان لا تبنى على الارض وحدها ، فرب دولة معترف بها تكون أرضها محتلة فيها أعداؤها . ولقد شاهدنا في الحرب الاخـيرة دولا كثيرة بلا أرض ، وكان في مصر طائفـة منها ، كل دولة في جناح من فندق شبرد . ونشاهد الآن دولة عموم فلسطين . ولا تبنى على اللسان فإن أمامنا دولاً فيها اكثر من اسان كسويسرة ،ودولاً لها لسان واحد كانكلترا وأمريكا؛ ولا على الدين (من حيث هو صلة بين العبد وربه[1]) فقد تتعدد الأديان في الدولة وتتعدد الدول في الدين ، بل على ما سماه (الارادة المشتركة) فكل كتلة جمع بين أفرادها تاريخ واحد وأمل واحد ، وكانت موحيات تاريخهـا ، وكانت مطامحها في مستقبلها ، متشابهة في نفوس أفرادها ، كانت هذه الكتلة أمة وحق لها أن تنشىء دولة . وشرح هذا المتن الموجز معروف مشهور

فلنبحث عن هذه الادارة المشتركة في الكتلة العربية وفي الكتلة الاسلامية؟ هل للعرب إرادة مشتركة ؟ هل تتحد موحيات الماضي ومطامح المسـتقبل في

---

(١) والاسلام منه ماهو دين بهذا المعنى ومنه ما هو تشريع وما هو اخلاق .

نفوس العرب جميعا ؟اذا قرأت أنا وعربي من جبل لبنان الماروني تاريخ الغزوات الصليبية . فهل يكون أثر هذا التاريخ في نفسي مثل أثره في نفسه ؟ هل يطمح مثلي الى الوحدة ، ويشاركني في المثل الأعلى الذي أتمثل المستقبل عليه ؟

من الوجهة الواقعية

بل تعالوا ننظر الى الواقع ، هل استطاعت جامعة الدول العربية بعد هذه السنين الطويلة والمحاولات الكثيرة ، أن تجد لها هذه (الارادة المشتركة) ؟ ألم تبد هذه الارادة في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في كراتشي بصورة اوضح واظهر على رغم أنه مؤتمر وليس جامعة دول ، وأنه جديد مرتجل لم تعد له العدة ولم يبذل في سبيله جهد ؟

من وجهة المصلحة

وقد مضى عهد القوميات واصبح تاريخاً يدرس في المدارس ، وانقسم العالم اليوم الى قسمين كبيرين مختلفين : قسم في شرق الأرض وقسم في غربها . وما اختلفا في الحقيقة على عقيدة ولا مبدأ ! وما اختلفا الا علينا نحن الامم الضعيفة . وما استعدا الا للحرب في سبيلنا أيهما يفوز غنيمة باردة أو سخنة بنا. فهل من المصلحة أن نبقى متفرقين منقسمين أو أن نتحد ونتقارب ونقيم من انفسنا قسماً ثالثاً محايداً ، لا يقاتل على غنيمة ولا يدع أحداً يجعل منه غنيمة ؟[1]

وإذا ثبت أن المصلحة في الاتحاد (وذلك ثابت قطعا) فهل تؤلف كتلة من ثمانين مليونا مشكوكا في اتحاد ابنائها في الذكريات والآمال والارادة

---

(١) وهذا ما نحاول ان نكون عليه الآن .

العامة ؟ ام كتلة من خمسمئة مليون ؟[1]

هذا ومن المفهوم المعلوم من الدين ومن العقل ومن الماضي بالضرورة اننا لا نتخلى عن هؤلاء العرب غير المسلمين ولا نعدهم غرباء عنا ، بل هم إخواننا في العيش ما أحبوا اخوتنا ، لهم مالنا وعليهم ما علينا . وهذي نصوص ديننا وهذي وقائع تاريخنا ، شاهدة على دعوانا . فلا مجال لإثارة العصبيات ، والافساد بين الاخوان من هذه الناحية ، فلا يطمع في ذلك المفرقون المفسدون ..

وبعد فما هي حدود الاتصال بين العربية والاسلامية ؟

من الوجهة المبدئية

أما الاسلامية فمعروفة واضحة ، وللمسلم تعريف شامل وحدّ منطقي ، فما هو حد العربي الذي يشمل الافراد ويخرج الأضداد ؟

إني لم أجد لدعاة العربية الى اليوم هـذا التعريف الجامع المانع للعربي . من هو العربي ؟ أما من عرفنا من قوميي العراق ، فان العربي عندهم هو عربي النسب ، أي أنهم على مـذهب العنصرية (Racisme) ومقتضى ذلك أن يكون بشار مثلا شاعراً فارسياً ، وابن الرومي شاعراً يونانياً ، بل إننا لو ذهبنا هذا المذهب لكان ملك الانكليز غير إنكليزي . ولكان من الواجب الحجر عليه خلال الحرب الماضية لأنه من رعايا الألمان ؟

ومن منا اليوم يستطيع أن يرتفع بنسبه الى ربيعة أو الى مضر ، أو الى أي فرع من فروع الشجرة العربية ، الا أن يكون نسبا ملفقاً كأكثر أنساب الاشراف الذين مَنحوا الشهادةَ بأنه منهم الملكَ الصالح ... فاروق !

---

(١) يبلغ المسلمون اليوم بالاحصاء نحو خمسمئة مليون .

وأما من عرفنا من قوميي الشام فإن لهم أقوالا أشهرها أن العربي هو من يتكلم العربية لغة أصلية له ، ويعيش في بلاد العرب ، ويشارك العرب آمالهم وآلامهم . وهذا التعريف كالنحاس المطلي بالذهب ، إن مسسته برفق كان ذهباً له وميضه ولمعانه ، ولكنك إن وضعته على المحك خرج نحاسا ! لأن من غير العرب الذين عاشوا في بلاد العرب ، كالأرمن في الشام والأروام في مصر من ينشىء أولاده على الكلام بالعربية كأهل البلاد من العرب ، ثم إنه يعيش بينهم ! أما المشاركة في الآمال والآلام فشيء خفي لا يعلمه الا الله ، ولاتظهره الا التجربة ، ولا يصح أن يكون مقياساً منطقياً . واذا أردنا أن نحصي سكان بلدة ما من العرب ، فكيف نقيم الامتحان العام لمعرفة آمالهم وآلامهم وما يشاركون فيه وما يخالفون ؟

ثم إن من العرب من يتكلم في بيته تظرفاً أو تقليداً بالفرنسية ، ويقيم في غير بلاد العرب ، وليس في نفسه أمل لأمته ، ولا ألم عليها . لا يهتم الا بخاصة أمره وجوالب لذته وراحته . فهل نعد هذا من غير العرب ؟ وماذا يكون : فرنسيا أو إنكليزياً أو ماذا ؟

أما الاسلام فعقيدة يعبر عنها قول معين ، وعبادة وخلق ، فمن نطق بالكلمة المعبرة عن العقيدة ، وأدى فروض هذه العبادة ، وتخلق بهذه الاخلاق ، فهو واحد من المسلمين ، مهما كان لونه وجنسه ولسانه .

من الوجهة الاسلامية

والاسلام لم يكتف بإسقاط الجنسية من حسابه ، بل لقد حاربها ، ومنع كل دعوة الى عصبية جنسية أو قبلية ، وسماها دعوة الجاهلية . وجاء منذ أربعة عشر قرنا بما انتهى اليه العالم اليوم ، حين أسقط حواجز القوميات وأقام كلا من

كتلتيه على عقيدة ومبدإ ، فقسم الاسلام الناس الى قسمين : الذين آمنوا ، والذين كفروا . ووجه الخطاب اليهم ، بهذا العنوان ؛ فكان من الذين آمنوا ـ وهم افراد الدولة الاسلامية ـ رجل رومي هو صهيب ، ورجل حبشي هو بلال ، ورجل فارسي هو سلمان ، ثلاثة رموز للدول الكبرى يومئذ . وكان من الذين كفروا العربي القرشي الهاشمي عم محمد وأخو أبيه وابن جده أبو لهب . وكان لهؤلاء الثلاثة منزلة رفيعة في الدولة الإسلامية ، فكان بلال وزير الدعاية يعلن مبادىء الاسلام (بالأذان) خمس مرات كل يوم . وكان سلمان معدوداً على لسان النبي من أهل بيت النبوة . ونزل في شتم أبي لهب قرآن فنحن نقرأ في صلاتنا ذم أبي لهب

ولكن الاسلام لم يطمس الوقائع التي تجعل للعروبة مكانا ظاهرا في دولته فالنبي عربي ، والعرب قومه ومنهم أصحابه الاولون الذين نشروا الدين ، وأبلغوه أهل المشرق والمغرب . والقرآن كتاب عربي ، والحج الى بلد عربي ، فكل مسلم مضطر بذلك الى حب العرب وتقديرهم ، وتعلم لسانهم ، وزيارة أرضهم .

ولولا الاسلام ما انتشرت لغة العرب ، ولا أقبل الناس عليها ، حتى أن مسلمي الصين اليوم يتكلمون العربية . وعرّب الاسلام آلاف المدن ، فهل يستطيع شباب الدعوة العربية اليوم أن يعربوا قرية واحدة تركية أو كردية باسم العربية ؟

ولما نقلت الى شمال العراق : الى كركوك ، كان الطلاب كارهين لدرس العربية ومدرسه لما كان يسوؤهم به من الدعوة الى القومية العربية وهم أكراد وأتراك . فلما دخلت أحسست هذه الكراهية في نفوسهم ، فخطبتهم خطبة قلت لهم فيها إن العرب كانوا أضل أمة فهداهم الله بهذا الدين الذي نتشرف جميعا

بالانتساب اليه ، والذي منع دعوة الجاهلية ، وحرم العصبية ... الى أن قلت لهم : فتعلموا العربية لا من أجل هؤلاء القوميين من العرب ، بل من أجل محمد الذي تحبونه ، والقرآن الذي تقرؤونه ، والله الذي تعبدونه .

ففاضت العيون بالدمع ، وخشعت القلوب ، وامحت الكراهية من الوجوه وصار درس العربية أحب الدروس اليهم

وذهبت مرة الى السليمانية سنة ١٩٣٨ وهي قصبة الاكراد ، فمررت في آخر السهرة على مسجد فيه عين ماء لنشرب منها ، وكانت ليلة صيف ، وكان معي شباب يجادلونني في العربية والاسلامية ، فوجدنا على بساط في أرض الجامع شابين كرديين من طلبة العلم الديني منبطحين على وجهيهما وأمام عيونهما مصباح وكتاب في اصول الفقه ، فيه عبارة معقدة ، فهما يحاولان فهمها وتفسيرها ، ويستعينان بإعرابها ورد ضمائرها الى مكانها ...

فقلت : ألا ترون ؟ إن هذين يشتغلان بلغتكم العربية اكثر من اشتغالكم أنتم بها ، لأنها عندهما دين ، فهل تستطيعون أن تجعلوا فتى كرديا غير متدين يقبل باسم قوميتكم هذه على العربية ؟ فسكتوا

من الوجهة التاريخية

ثم إني أحب أن أسأل من هم هؤلاء العرب الذي تفخرون بهم ، وتعتزون بأمجادهم . هل هم عرب الجاهلية والعهود التي كانت قبلها ، والتي لم يدركها نور التاريخ ، ولم يصل اليها علم المؤرخين الا قليلا ؟ أم عرب دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وهاتيك المدن والمدارس والمكتبات والمؤلفات ، وذلك العلم والأدب ؟

أما الجاهلية ، فإنا لا نعرف شاعراً واحداً فيها ذكر العرب أمة ، وافتخر

بالعروبة جنساً . إنما كان فخر كل شاعر بقبيلتـه ، ببكر أو بتغلب أو بعبس او بكندة ، وهــذي هي المعلقات ، وهذه اشعار الجاهلية ، فهل فيها فخر بالعرب ؟

إن الذي جعل العرب كتلة واحدة من الكتل التي اندمجت في الوحـــدة الاسلامية ، هو الاسلام

وكل ما كان للعرب بعد من مجد وعظم وعلم وسلطان وحضـارة وفخار إنما صنعه الاسـلام ، فكيف يتفق في منطق هؤلاء القوميين أن نفخر بالفعـل وننكر الفاعل ، وأن نمجد أثر الاسلام ولا نقر بالاسلام .

يقول بعض المتحمسين من شباب القوميين إن في العرب قوة كامنة انتفضت مرة فكانت الاسلام . وستكون لها انتفاضة جديدة تخرج بمظهر آخر ،ولكن لا هم ولا نحن ولا أنتم تعرفون ما هو المظهر الآخر !

وهم يعظمون محمدا ويكبرونه ، ولكنهم لفرط الحماسة (وحماسـة الشباب أحيانا تقوى على حساب العقل)يسيئون الى محمد الذي يعظمونه ويصمونه بأكبر ما يوصم به رجل وهم لا يشعرون .يصمونه بالكذب : هو يقول لهم إنه رسول من الله ، وإن هذا القرآن ليس من عنـــد نفسه ، وهم يقولون لا بل إنه هو الذي ألف من عبقريته ونبوغه هذا القرآن

أفرأيت الى أين تصل حماســـة الشباب (وكدت أقول حماقة الشباب) بأصحابها ؟

ويأتون بكلام له رنة ودوي كدوي الطبل ، وإن كان فارغا من المعنى فراغ الطبل من الشحم واللحم . يقولون (وهذا شعار حزبهم) : أمة واحدة ذات رسالة خالدة

ومازالوا يهتفون بذلك ويرددونه حتى اقتنعوا بأنه من كلام النبوة الاولى مع أنه لا معنى له . لأن العرب كما بينا من قبل ، ليسوا بجالهم الحاضرة أمة واحدة ، بل المسلمون هم الأمة الواحدة . ولأن هذه الرسالة إن لم تكن الاسلام كانت مجرد كلام

من الوجهة التطبيقية

والقومية (كل قومية في الدنيا) إنما تقوم على دعائم ثلاث : اللغة ، والعادات ، والتاريخ

أما اللغة فإنها بعلومها وفنونها ، كالفلك الذي يدور على قطب واحد ، وقطبها القرآن ، وما أنشئت هذه العلوم كلها الا خدمة له ، النحو لمنع اللحن فيه ، واللغة لتحقيق عربيته ، والبلاغة لإثبات إعجازه ، والتفسير لشرح معانيه الى غير ذلك مما هو معروف

ودعاة الاسلامية كانوا ولا يزالون ، وسيكونون أبداً هم أئمة اللغة وفرسان بلاغتها ، وأرباب البيان فيها . وما عهدنا للآخرين كاتبا بيّنا ولا راوية ولا عالما معترفا بإمامته وتقدمه في علوم اللغة

وأما العادات العربية (على أنه ينبغي الابقاء على حسنها ، والتخلص من سيئها) فما رأينا في دعاة العربية من يتمسك بها ! ولقد رأينا اكثرهم يعيش عيش الافرنج ، ويأخذ اوضاعهم في طعامهم وشرابهم ولباسهم بل ربما تزوج من نسائهم وكلّم أهله (طبعاً) بلسانهم

وأما التاريخ فواحد . تاريخ العرب هو تاريخ الاسلام . لو حذفنا منه

الاسلام وما نشأ عنه لم يبق للعرب شيء ، فالعرب ولد مجـــدهم وتاريخهم يوم مولد محمد

* * *

الخلاصة ان العربية والاسلامية كدائرتين : صغيرة وكبيرة ، إحداهمـــا وسط الاخرى الا هلالاً دقيقاً ، هو موضع الاختـــلاف بينهما . أي ان بينهما باصطلاح أهل المنطق عموماً وخصوصاً عاما الا من وجه واحـد ، هو مسألة المليونين من العرب غير المسلمين ، والاربعمئة مليون من المسلمين غير العرب ، أيها أحق بأن نتولاه ؟

وكل ما يقول به دعاة العربية (فيما عدا إنـكار الوحي وقطع الأخوة في الاسلام يقول به دعاة الاسلامية) بل نحن أحق به وأولى ، نحن أعلم بالعربية وبتاريخها وامجادها ، ونحن نعمل اكثر منهم على تمجيدها بالاسلام وإعلاءشأنها ، ونحن اصدق منهم إن قلنا عن أمة محمد (أمة واحـــدة ذات رسالة خالدة) . والعجيب ان يظن أحد أننا تخلينا عن القيام بالدعوة الى العربية ، لا ... ماتخلينا عنها ولكن ندعو اليها تحت راية القرآن التي عز بها العرب وشرفوا وصار لهم في التاريـخ ذكر ، وفي الدنيا مقام

إننا نحب العرب لأنهم قوم محمد ، واللسان العربي لأنه لسان القرآن ، وموطن العروبة لأن فيه مشاعر الحج والقبلة التي يتوجـــه اليها المسلمون من اقطار الارض ، ويدعون الى الصلاة اليها بلســـان العرب الذين نزل بلسانهم القرآن: حي على الصـــلاة ،حي على الفلاح . ولكننا لا ندعو الى عصبية ، ولا نعدل بأخوة الاسلام أخوة

ونحن ندعو الى الوحدة العربية ، لكن على أن تكون طريقاً الى الوحدة

الاسلاميـــة ، ولا ننكر اخواننا في الوطن واللسان من النصارى ، لـكننا نسألهم ألا يطلبوا منا وهم مليونان ان نقطع لأجلهم روابط أخوتنا باربعمئـة مليون مسلم غير عربي ، ويحبوننا ونحبهم ، ويشار كوننا عقائدنا وعبادتنا.

وفيهم بعدُ دولتان من اكبر دول الارض : باكستان وإندونيسيا ، لا تدخر إحداهما في نصرنا وسعا ، ولا تبخل علينا بدم ولا مال !

وهل قطعوا هم حبالهم من حبال البابا في إيطاليا ، وغير البابا في إيطاليا ؟ حتى نقطع حبالنا من حبال اقوام يحبوننا ويخلصون لنا ؟



عربيّة إسلاميّة

نشرت سنة ١٩٥٦

دعتني من اشهر جمعية الارشاد في الكويت الى القـــاء محاضرات وكانت المحاضرات في بهو صلاح الدين ، الذي يتسع لثلاثة آلاف وكان منها محاضرة عنوانها بين العربية والإسلامية ، احتشد لها الفريقان : الاسلاميون والقوميون وجمعوا جموعهم ، وجاؤوا وعيونهم محمرة ، وقد استعدوا للمعركة ، وتوقعوا جميعاً (وتوقعت أنا) الشر ، ثم فكرت ، وقلت في نفسي - أنا من أكثر من عشرين سنة في معارك متصلة « بين العربية والإسلاميـــة » أجادل القوميين ، وانكر عليهم دعوتهم الى العربية ، وهم يأبون عـلى دعوتي الى الاسـلام ، وكتبت في ذلك ما يجيء ان جمع في كتـــاب كبير ، ولم يخطر لي أن أنظر يوماً في العربية والإسلامية ، ما حقيقة أمرهما ، وهل بينهما تناقض كالتناقض بين الوجود والعدم ، بحيث لا تجتمعان ولا تنعدمان ، فلا يكون المرء عربياً مسلماً ، ولا يكون إلا عربياً أو مسلماً ؟ .

هل بينهما تضاد كالتضاد بـــين السواد والبياض ، بحيث ينعدمان جميعاً ، ولكن لا يجتمعان ؟ ما حقيقة الصلة بينهما ؟ .

وجعلت هذا موضوع المحاضرة ، فلما انتهت نظر كلّ من الفريقين في وجوه الآخرين يفتشون عما كانوا يتوهمونه من العداوة والخلاف فلم يجدوه ، وخرجوا كالاخوة المتضامنين .

فأحببت أن أعود اليوم الى هذا الموضوع ، رغبة مني في تصحيح رأي الاسلاميين في العربية ، والقوميين في الإسلام وفي احلال السلام بينهما محل هذا الخصام .

* * *

انه ليس بين العربية والإسلامية تناقض ولا تضاد ، بدليل أني (أنا نفسي) عربي واني مسلم ، وان الصفتين قد اجتمعتا فيّ ، فلو كان بينهما تناقض أو تضاد ، لكنت مناقضاً نفسي وهذا محال . وأكثر القراء يجمعون في أنفسهم بين الصفتين فهم عرب ، وهم مسلمون . والرسول صلوات الله عليه وصحبه كانوا عرباً وكانوا مسلمين . والقرآن كتاب الإسلام وكتاب العربية ، فهو الدين لمن أراد الدين ، وهو البيان والبلاغة لمن أراد البلاغة والبيان .

واذا شئت تحديد الرابطة بين العربية والإسلامية ، وجدت بينهما باصطلاح اهل المنطق عموماً وخصوصاً من وجه ، ولا احب أن أكون رقيعاً فأخاطب جمهرة القراء باصطلاحات المنطق ، بل أحب أن أقرب الامر اليهم ، فاصوره لهم دائرتين كبيرة وصغيرة ، والصغيرة وسط الكبيرة ، الا هلال منها خارجاً عنها ، فاذا رمزنا بالكبيرة للاسلام ، وبالصغيرة للعربية ، وجدنا أن العربية تنطوى في الاسلام الاجانباً منها ، فهناك ما هو عربي إسلامى ، وما هو إسلامي غير عربي ، وما هو عربي غير اسلامي ، وإذا لم يكن بد من الاختلاف والتنازع ، فبين المسلم العربي والعربي غير المسلم ، أما نحن المسلمين العرب ، فاننا نناقض أنفسنا حين

نفرق بين صفتين قائمتين بنا ، ونحن قائمون بهما ، ونجعل للتناقض سبيلا الى الدخول بينهما .

والفكرتان من التداخل بحيث لا يكاد يظهر الخلاف بينهما ، وبحيث أن أشد الناس بعداً عن الاسلام من غلاة القوميين ، أعني من النصارى وممن لا يدين بالاسلام ، لا يستطيع أن يجرد العربية من الاسلام ، وماذا يبقى له من العربية اذا لم يكن فيها محمد ﷺ وصحبه وأتباعه الذين فتحوا الارض ، وشادوا المدائن ، وأقاموا هذه الحضارة ، وإذا لم يكن فيها القرآن ، الذي وضع هذه العلوم كلها .

ما الذي يبقى من العروبة إن لم يكن فيها محمد والقرآن ؟ .

هل تبقى الا المعلقات وبطولات حرب البسوس التي لم تزد على (خناقة) في حي ، وموقعة ذي قار التي طار العرب فرحاً بها ، حين غلبوا فيها فصيلة من جند كسرى ؟ وغمدان والخورنق والسرير ؟ اين هذا من الحضارة التي اقامها محمد ﷺ وأتباعه ، والبطولات التي اظهروها ، والمجد الذي بنوا ، فارسوا أسسه على الصخر وساموا بشرفاته النجم ، وتركوه يزاحم بمنكبه في ميدان الخلود الدهر .

ان غير المسلمين من القوميين لا ينكرون ، ان الذي أخذ بيد العرب حتى دلهم على طريق المجد ، وسلك بهم مسالك الفتح ، ووضع في رؤوسهم فكر العالم ، وبين أصابعهم قلم الكاتب ، والبسهم تاج السيادة في الدنيا ، وأقعدهم مقعد الاستاذية من البشر جميعاً ، هو محمد ﷺ .

فلننظر الى أشد المسلمين بعداً عن العربية ، أعني الاعاجم ، هل يستطيع أحد منهم أن ينكر أن محمداً عربي ، وان القرآن عربي ، وان الله كان أعلم حيث يجعل رسالته ، ولو كان في الأرض أولى بها من العرب لجعلها فيهم ، إنه لم يختر لها

المتمدينين الذين يعيشون في المدائن في ظـلال الايوان ، ولا في القسطنطينية بجوار الابراج والقباب ، ولم يختر لها رجـلًا من بلاد الكروم والاعناب ، ما اختار الا هذا الشعب الصحراوي القوي العبقري الذي لم يتعفن برطوبة المـدن الموبوءة ، ولم يتلوث باوضار الحضارة المزورة ، بل بقي على الفطرة ،على خلال الخير وسلائق الطهر ، وانه هو الذي حمل المصباح الذي اوقده محمد عليه الصلاة والسلام ، فضوأ به للدنيا كلها طريق الحق والعدل والخير ، وان القرآن الذي يتلونه في صلاتهم عربي ، لا يفهم الا بتعلم العربية ، وان الكعبة التي يتوجهون اليها ، ولا يرون أمنية تعدل الحـج اليها والتعلق باستارها ، هي بنية عربية في بلدة عربية ، وان الارض التي انبثق منهـا نور الاسلام ، وهبط اليها الوحي ، ودرج على ثراها محمـــد وصحبه ونشق هواءها ووطىء حصاها ، ثم ثوى بين احشائها هي ارض عربية ؟ .

لذلك ترى المسلمين في كل بلد يحبون العربي ، ويتبركون به ، ولقد رأيت العجائب من ذلك ، رأيتها بعيني لما ذهبت إلى باكستان والهند والملايا واندونوسيا.

ولذلك جعل الاسلام كل بلد فتحها ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب بلداً عربياً بلسانه ، عربياً بقلبه ، وجعل من غـير العرب من هم اليوم أئمتنا وأساتذتنا نحن العرب في لغتنا ، في اللغـة والنحو والصرف والبلاغـة ، وجعل منهم كبار شعرائنا وكتابنـا ، ولا أحب أن أمثـل بأبي عبيدة وسيبويه والزمخشري وبشار وأبي نواس وابن الرومي ، فإن المسألة أشهر وأعرف من أن يمثل عليها ، وما ثَمَّ متعـلم إلا وهو يعرفهـا ويسوق عشرات الاسماء شاهداً عليها .

ونحن اليوم لانرى جماعة من المسلمين إلا وهم يعرفون العربيـة أو يعرفها

علماؤهم على الاقل معرفه فقه بها وفهم لها وتوسع فيهـا ، في الصين وتركستان وبخارى والهند وجاوه . وهذا كله من أثر الاسلام .

* * *

فليس بين العربية والاسلامية ما يدعو الى هذا الخلاف المستمر بين الدعاة اليهما ، انما الخلاف بيننا وبين من يحاول أن يجعـل من القومية دينـاً يناوىء به الاسلام ، أو يجعل من العربية أخوة يستغني بهـا عن أخوة الاسلام ، يريد أن يفك باصابعه العقدة التي عقدها الله من فوق سبع سماوات ، حين قرر أن المؤمنين أخوة ،وان الأخوّة هي أخوة الايمان ، لا أخوّة اللغة والجنس واللون والبلد. وان نقطع صلتنا باربعمائة مليون من أخواننا المسلمين غير العرب لنسترضي بهم مليونين من العرب غـير المسلمين ، وهؤلاء العرب غـير المسلمين عاشوا معنا ، راضين عنا ، الفا وثلاثمئة سنة ما قالوا شيئاً ، حـتى جاءت بدعة القومية ، وجاء القوميون منا يقولون عنهم ما لم يقولوا هم أنفسهم .

الخلاف بيننا وبين من يخالف احـكام ديننـا ، وكتاب ربنـا . واذن يكون خلافاً بين كفر وإيمان ، لا بين عربية وإسلامية ونحن نأبى الكفر سواء أكان صاحبه أعجمياً أو كان عربياً قرشياً هاشمياً .

وكان أول من نبهني إلى أن هذا الغلو منا في النفور من كل دعوة عربية ، خالي الاستاذ محب الدين الخطيب أول دعاة العربية في مطلع هذا القرن ،وأول دعاة الاسلام بعد ذلك ، وقال لي ، إنكم تخليتم عن قيـادة الدعوة العربية ، وتركتموها لهؤلاء فصبغوها بهذه الصبغة الجاهلية ، وأنتم في الحقيقة أهلها وأنتم أحق بهـا .

وأنا أريد أن نعود إلى حمل لواء العربية ، العربيـة المسلمة ، وأن نعيد لها

عزها ومجدها ، وما عزها ولا مجدها إلا بالاسلام ، وأن نكون مسلمين يدعون إلى الاسلام ، وأن نكون عرباً نعتز بالعربية ، وأن نجمع بينهما في أنفسنا وعلى السنتنا وعلى أقلامنا ، وأن نعود إلى البيان العربي الذي نزل به القرآن ،ونحيي لغة العرب التي جاءت بها الشريعة ، وأن نعرف تاريخ العرب لأنه تاريخ الاسلام ، وأن نحافظ على سلائق العرب وأخلاق العرب التي أقرها وارتضاها الاسلام ، وأن نكون مع كل داع إلى هذا قائل به ، فإن جاء من ينكر نبوة محمد ﷺ ويراه عبقرياً مجرد عبقري ، أو يريد أن نقطع حبل الأخوة الذي يربطنا باخواننا المسلمين ، أو أن يحل اخوة الارض واللغة والجنس والبلد مكان اخوة الاسلام . قلنا له : لا ،لا،ولا كرامة ، إن الاسلام قبل كل شيء، ولو أعطينا الدنيا بكنوزها وامجادها ولذاتها ، على أن ننزل عن ذرة واحدة من ديننا ، لأبيناها وبصقنا عليها احتقاراً لها ، لان الدنيا كلها لا تعدل في نظر المسلم ذرة من الاسلام .



في القهوة

اذيعت سنة ١٩٥٨

ليس هذا بالحديث الذي يعلو بسامعيه الى سماء الفن والعاطفة والفكر ولكنها قصة من قصص البلد ، لا ترتفع بهم عن أرض الواقع ، إنه مشهد من مشاهد الحياة ، وكذلك تكون أحاديث الاذاعة ، يوماً من الماضي ويوماً من الحاضر ، ومرّة للاستمتاع بجمال الفن ، ومرة للعمل على اصلاح المجتمع ، وحديثاً للخاصة من المتعلمين وحديثاً لجمهور السامعين فمن لم يعجبه حديث فيها ولم يجد فيه ما يبتغي ، فليرقب آخر فلعلّه الذي كان يريد .

وهذه القصة أنه حكم عليّ البارحة بلا ذنب أذنبته ، ولا جرم ارتكبته ، وابلغت القرار بنفيي وابعادي عن الدار ، التي أنا (ولا فخر) ربّها وصاحبها ، وانذرت بألا أعود الا اذا مال ميزان الليل ، ودنا السحر ، ذلك ان الدار كانت تعجّ بالمدعوّات الى حفلة نسائية[1] ، فكأنها الحمام قد انقطع عنه الماء ولو انه سمح لي لما اطقت البقاء ، وكنت امرأً حليف البيت ورفيق الكتاب ، أعود الى بيتي من قبل المغرب ، وان أنا سهرت مرة في الشهر أو الشهرين ، فإنما اسهر الى الساعة العاشرة لا أعدوها ، فكيف امضي اكثر الليل خارج الدار ، والى أين

---

(١) بمناسبة زواج ابنتي الثانية .

أذهب ؟ حرت في أمري ، وضاقت عليّ السبل ، ثم ازمعت دخول قهوة من هذه القهوات ...

... وقصدت قهوة كنت أعرفها ، فدخلتها متردداً مستحيياً ، أحسب أن عيون الناس كلهم قد توجهت اليّ ،وانظارهم قد انصبت عليّ ، ادور بين المجالس اكاد اتعثر بنارجيلة او سهوة (طربيزة) حتى وجدت صديقاً لي رآني فقام يستقبلني هاشاً باشاً متعجباً ، ودعاني فجلست ...

ـ قال لي : عجباً ، أراك في القهوة ؟

ـ قلت : هذا حكم القدر .

وضحكت وقصصت عليه القصة ، ثم اخذنا نتحدث ، فكان عن أيماننا اثنان يلعبان بالنرد (الطاولة [1]) ، وكلما نقلا حجراً خبطاه خبطاً منكراً ، فاحسّ بصوته (طَخْ) كأنه ضربة على رأسي ، وعن شمائلنا آخران ، يلعبان الورق وحولهما جماعة من الشباب ، وكلما القى احدهما ورقة صرخوا صرخة اشعر كأنها تثقب طبلة أذني ، ومن ورائنا حلقة فيها نوادر ، فكلما جاءت نادرة قهقهوا قهقهة ترج القهوة رجّاً ، وخلال ذلك ، ترتفع الصيحات (من عاوز ميّ ؟) (واحد قهوة مظبوط) ، (شاي خفيف) ، (هات بصّة) ، (نَفَس عجمي لهون) ، (عشّي) ، (مين بدو عشّى !) والرادّ يزلزل الجوّ باغنية من أغاني فريد الاخرس ـ عفواً أقصد الاطرش ! وما كان ثمّة الا من ينفخ من فمه أو من أنفه دخاناً ، فكل رجل مدخنة ، والهواء فاسد مفسد ، فما مرّت عليّ عشر دقائق حتى أحسست كأنْ قد دير بي (دخت) ، وان أعصابي قد تحطمت ، فقمت لأذهب

قال صاحبي : الى أين !

قلت : الى حيث ... الى حيث أجد الهواء ، والهدوء ، والراحة ...

قال : ألا تشرب شيئاً ؟

---

(١) وهي حرام كالورق ، وكذلك كل لعبة مدارها على الحظ ، بخلاف الشطرنج وامثاله من اللعب التي يكون مدارها على البراعة والمعرفة .

قلت : قد شربت كأس الأذى حتى الثمالة فدعني اخرج ، فما بقى بي طاقة على الاحتمال ...

قال : اخرج معك .

قلت : تفضل .

ولما صرنا في الشارع ، ونشقت الهواء ، واستراحت أذناي ، تشهدت وقلت له : هل تجيء القهوة كل يوم ؟

قال : كل يوم!

قلت : أعوذ بالله . وما تجدون فيها ؟

قال : نأكل وتشرب ونلعب ونتسلى مع الاخوان .

قلت : ولم ؟ أوليس في دارك ما تأكله وتشربه ، أليس لك زوج وأولاد تلاعبهم ، وتتسلى بهم ؟

قال : طعام القهوة أشهى.

قلت : ولم كان أشهى !

قال : ان معه الفجل والبصل والنعنع والمخللات والمقبلات.

قلت : هذا كله عند الخضري ، فلم لا تأتي به الى الدار ، وتأمرهم أن يقدموه اليك مع الطعام ؟ وما هو ذنب امرأتك وأولادك حتى تتركهم كل ليلة ؟ تهجر بيتك وأنسه وهناءه ، وتأوي الى هذه القهوات التي تصم الآذان وتحطم الأعصاب ، لا ترجع الى دارك حتى يكون الاولاد قد ناموا ، وربما تأخرت في الصباح فلم تقم من منامك حتى يكونوا قد ذهبوا الى مدارسهم ، فلا يرونك ولا تراهم الا مرة في الجمعة ، فكأن هذه القهوة قد فجعتهم بك ، وحرمتهم منك ، وصيرتهم أيتاماً وأبوهم حي .

وتشكو بعد ذلك أن زاغ الأولاد ، أو ساءت أخلاقهم ، أو فسدت تربيتهم ؟تترك التعب كله للمرأة المسكينة ، فلا يكفيها هم الطبخ والنفخ ، والكنس والمسح وهم الأولاد واكتنّ[1] وأهدأ ، طول النهار ، حتى تهجرها في الليل ؟

ان المسكينة لا تصل الى المساء حتى يكون قد انهد جسمها ، وضاق صدرها وطلعت روحها ، وهي تأمل أن تجيء لتتنفس عنها ، فإذا أنت تركض الى القهوة . . .

قال : ما هذا يا استاذ ؟ أنت قاضٍ وتقضي عليّ ، قبل أن تسمع مني ؟ أو تظن أني أفر من الدار لولا ان الدار صارت عليّ جحيماً ؟ أو تحسب أن هؤلاء الذين تمتلىء بهم القهوات يتركون بيوتهم لو كانت بيوتهم جنات ، وهل يهرب أحد من الجنة ؟ إني أكدح النهار كله ، اقاسي هم الكسب ، ومعاناة الناس ، فلا ينتهي النهار حتى يكون قد نفد صبري ، وضاق صدري ، فامشي الى الدار أرجو أن أجد فيها الأنس والسلام ، فلا أجد الا الحرب والخصام ، ان أبدت المرأة للضيوف لطفها ورقتها كان حظي منها غلظتها وشدتها ، وان أرت الاجانب عندما تخرج جمالها ، لم أر منها أنا زوجها الا قبحها وابتذالها ، كأن كل خير فيها لغيري وكل شرّ فيها لي ، فمن ذلك أفرّ ؟

ـ قلت : لو فررت الى أنس وطيب لعذرتك ، أما هذا المكان الفظيع الشنيع . . .

ـ قال : ثق أني لو اضطررت الى ما هو افظع واشنع ، لما ترددت في الاقدام عليه على أن اخلص من البيت ونكد البيت.

---

(١) اكتن من العامي الفصيح .

ـ قلت : عجيب والله ، أما أنا فلو دعيت الى أبهى السـهرات ، وأعظم الحفلات ، لما آثرت ذلك على بيتي .

ـ قال : لعلك مستريح في بيتك فلا تبغي منه بديلا.

ـ قلت : إي والله ،أنا مستريح ، ولله الحمد.

ـ قال : افتظن أن الناس كلهم امثالك ، أو تحسب أن كل أهـل كأهلك توفر لزوجها الراحة والهناء .

ـ قلت : وأنت هل تريح امرأتك وتهنيها ؟ ألا تشكو هي منك مثـل الذين تشكوه أنت منها؟واذا كنت تفتقـد الحب والعطف ، فان أقرب طريق يوصلك الى الحب والعطف ، أن تبـدأ أنت فتحب وتعطف ، فهل جربت هذا مرة ؟

ـ قال : وماذا اصنع سألتك بالله ؟

ـ قلت : ان تعرف ان لزوجك عليك حقا ، وإن لولدك عليك حقا ، وان تؤدي لكل ذي حق حقه .

صحيح انك تروح العشية الى دارك تعبان ضجران ، وأن لك أن تستريح وتهدأ ، ولكن لا تنسَ أن المرأة في تعب كتعبك وضجر كضجرك ، وانهـا ترقب مجيئك لتأنس بك ، وتلجأ الى كنفك ، وتتخلص بك من هم العفـاريت فاعطها ما تطلب منك تعطك ما ترجوه منها.

لا تعطها المال ، ولا الهدايا ، بل الوجه الطلق ، والثغر الباسم ، والتحية الحلوة ، انك مهما كنت في تعب ، وجاءك ضيف عزيز فانك تتلقاه بالسـلام والابتسام ، فلم يكون هذا الضيف أحق ببرّك وخيرك من امرأتك؟

فاذا انتهيت من طعامك ، تخيّر لها من حـديث يومك، مما رأيت وسمعت

ما تملأ به وقتها وتملأ به بالحب قلبها ، وهي تحدثك بطريف الحديث ، بما يسرّ ويمتع ، لا بما يزعج ويغضب ، ويحفظ كلٌّ متاعبَه ساعةً لنفسه ، لا ينفضها في وجه صاحبه من أول لحظة ،ولا تقعدا ساكتين كأنكما صنمان في متحف ،فان من آفات الحياة الزوجية أن الزوجين لا يتحدثان الا قليلا ، لا لأن الاحاديث تنفد وتنتهى ،بل لأنهما لا يحفلان الحديث ولا يريدانه ، والاحاديث لا تنتهي أبداً ، والدليل أن الزوجين يكونان جالسين ساكتين فاذا جاءهما قريب أو قريبة تدفق كلاهما بالحديث ، واستبقا اليه وتزاحما عليه .

ولقد قرات مرة أن زوجين عجوزين كانا كلما قعدا تهامسا بشيء ثم انطلقا يضحكان ، فسئلا من أين يجدا دائماً هذا الكلام المضحك فقال الرجل : اننا اتفقنا على شيء نقطع به حبل السكوت بيننا ، هو اننا اذا لم نجد ما نقوله ، همست في أذنها : واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ، فقالت : ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة .فنضحك ونجد ما نقول .

لا اطلب من الزوجين ان يلتا ويعجنا [1] طول الليل ، لا ، بل بأن يتحدثا ساعة ثم يقبل هو على كتابه أو جريدته وهي على خياطتها وحياكتها .

وخير من ذلك ، واجدى ، ان يختار الرجل كتاباً من كتب الحديث كرياض الصالحين للنووي أو كتب السيرة أو الاخلاق أو التاريخ ، فيقرأ لزوجته وأولاده كل يوم صفحة ويفسرّها لهم، وكلما مرّ أمر بخير تواصوا بالعمل به ، وكلما مر نهى عن شرّ تواصوا بالامتناع عنه ، فيجتمع لهم من ذلك العلم والعمل والبيان والالفة والسلام .

ـ قال : يا استاذ ، أنت في واد ، ونحن في واد ، إنك تتكلم بالخيالات

---

(١) الات والعجن من العامي الفصيح .

كأنك لا تعرف الواقع ، ولا تدري ما حال الناس ، وهل تظن أن نساءنا عاقلات عالمات يخاطبن بالمنطق ، ويقدرن النكتة واللطف ، أني أكلمها من الشرق فتجيني من الغرب ، وأسوق اليها النادرة اللطيفة فأرى منها الهجمة العنيفة ، قلت لامرأتي اذا قرب موعد رجوعي فاتركي شغل الدار على حاله ، فان شغل الدار لا ينتهي واكثر الرجال لا يهمهم نظافة أرض الدار بقدر ما تهمهم نظافة وجه المرأة ونظافة لسانها ، ولا يبالون بحسن الطبخ قدر ما يبالون بحسن الخلق ، والبسي خير ثيابك وألبسي الأولاد ، وأعدي لزوجك ما يريد ،هيئي المائدة ورتبي له المكان على النحو الذي يعجبه ويرضاه ، واستقبليه بالبشر والعناية ، والابتسام والرضا فيلقاك بمثل ذلك ، ولو كان الرجل اغلظ الناس ، لما استطاع أن يقابل هذا الخير الا بخير منه أو بمثله .

ولتثق المرأة أن الرجل اذا استراح في بيته لم يفكر في قهوة ولا ملهى ولو أن كل رجل وجد في بيته الراحة والأنس لأ قفرت القهوات وأغلقت أبوابها فالذنب كله ذنب المرأة ، هي التي تكرّه الدار الى الزوج ،وتحبب إليه السهر فتجني عليه وعلى نفسها .

ـ قلت : أما أنافأرى أن الصلاح من الرجل ،والفساد من الرجل ، ونساؤنا خاصة من خير نساء الأمم ، وأطوعهن وأخلصهن ، ولكن الرجال لا يعرفون كيف يستفيدون من طبيعة الخير فيهن ، الرجل هو المسؤول ، الأب أولاً والزوج ثانياً ، وعليه أن يبدأ هو باصلاح ما أفسد .

ـ قال : انك تظلم الرجال ، ان البلاء كله من النساء .

* * *

وبعد فلقد دخلت كثيراً من بلاد الله ، فلم أجد في بلد ما نراه في بلادنا

العربية ، من هذه القهوات ، التي يجتمع فيها الآلاف المؤلفة من البشر يقعدون يعضون الساعات الطوال لا يعملون شيئاً ، لا يستفيدون ولا يفيدون ، يسيئون الى صحة أجسادهم ، والى عواطف زوجاتهم ، والى تربية أولادهم ، ويسيئون الى أمتهم وبلادهم ، هذه الأمة التي هبت اليوم تجدد بناء مجدها ، وتستعيد في الارض مكانها ، ولها في عنق كل ابن من ابنائها ألا يضيع ساعة من وقته ، ولا ذرة من جهده ، الا في العمل لها .

فمن المسؤول عن خراب البيوت ، واضاعة الاوقات ، وإفساد الأولاد النساء كما يقول صاحبي ، أم الرجال ؟

فكّروا أيها القراء !



أسئلة

نشرت سنة ١٩٤٧

كان حديثَ الناس في الأسبوع الذي مضى ، وحديثَ الصحف ، هذه الـ (أربعون الف جنيه) التي تبرع بها البدراوي باشا وشهد عليه بها الشهود ، وجاءته عليها رسائل الشكر وبرقيات التهاني ، حتى إذا شبع من الثناء ، وروي من المدح ، وانتشى من الفخر ، ونال ما كان يريده من تبرعه ، ولم يبق وراءه غنم يناله ، ما بقي إلا الغرم بالـ (أربعين الف جنيه) عاد فجحد قوله ، وأنكر هبته ، وطعن على الشهود ، وكذب الناقلين ، فعاد المهنئون له يعزونه ، والمادحون إياه يهجونه ، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيه ، والنيل منه ، وأذهب هذا القدح لذة المدح الأول ، واشتاق إليه لما فقده ، ولكن عزّ عليه أن يشتريه بـ (أربعين الف جنيه) ، وأن يؤديها كاملة فيكذب نفسه ، ويثبت قول من شهد عليه ، فافتداها بعشرة آلاف رفعها إلى السدة الملكية ، فردتها عليه ، ولم تقبلها منه . وقالوا ، إنه سيدعى الشعب إلى اكتتاب عام يشترك فيه الغني والفقير ، يحقق به ما كان التبرع له ، وهو انشاء معمل للـّقاح ، يقي الناس من هذا الوباء الذي يحصد بمنجله النفوس ، ويقطع الأعناق ، ويودي بالأسر .

* * *

انتهيت من قراءة هذا الخبر ، فنشأت في نفسي أسئلة كبـيرة ، أحببت إذاعتها لاني أتمنى أن أجد مجيباً عليها :

أولها : السؤال عن هذا التفاوت العجيب بين الناس الذي صار شعار الحياة المصرية ، وآيتها ... من أين جاء ؟ وكيف تركه العلماء والمصلحون وأصحاب الرأي ، وذوو السلطان ، ينمو ويمتد حتى يصير كالدوحة العظيمة ، ولم يقطعوه وهو بعد غصن طرى ؟

وكيف انتهت الحال إلى أن يكون في مصر نفر من المصريين والاجانب اجتمعت في أيديهم الملايـين ، وملايـين من المصريين دون الاجانب فرغت أيديهم من كل شيء .

وكيف امتد هذا التفاوت إلى غـير المال ؛ فكان في مصر نفر هم أكابر أدباء العربية ، ونفر هم أئمة علماء الاسلام ، ونفر هم أعـلام الفلسفة والحقوق وعلوم الطبيعة ، وجماهير لاتحصى ، (إلا في دفاتر الاحصاء عند الحكومة) ، لا تعرف من العربية ولا من الاسلام ولا من هذه العلوم شيئاً ، بـل هي لاتعرف القراءة ولا الكتابة ، وصارت مصر بحيث لو ذهب منهـا مئتا رجل فقط ، من عشرين مليوناً ، صارت زعامة مصر الثقافية ، بين الاقطار العربية ، خبراً بعد عين .

وكان في مصر ، بل في القاهرة نفسها العمارة التي تشتمل عـلى خمس عشرة طبقة ، والاكواخ التي لا شباك لها ولا ماء فيها ولا مرحاض ، وفيهـا أفخم السيارات تسير بجانب عربات الكارو ، تحمل أهـل القاهرة من حي إلى حي ، وفيها شارع فؤاد وشارع سليمان ، وفيها الزمالك وجاردن سيتي ، وفيها مقابل ذلك زين العابدين والدراسة وبولاق ، وفيهـا فندق شبرد ووراء حديقته أزقة مسدودة لاتراها الشمس ، ولا يمر منها الهواء ، ولا ينيرها الكهرباء ،ولاتعرف

الطريق إليها مصلحة التنظيم ..

إن الناس يتفاوتون في بلدنا ، وفي بـلاد الناس كلها ، ففيهم الغني والفقير ، والعالم والجاهل ، وعندنا العمارات الكبيرة ، والدور الحقـيرة ، ولكن المسافة بين عالينا ونازلنا قصيرة متحملة فليس في دمشق كلها عمارة كـا (ايموبليا) ولا كنصفها ، إن أعلى عمارة فيهـا في ست طبقات ، ولكن ليس في دمشق أيضاً ، بيوت كبيوت مصر القديمة أو عشش الترجمان ..

وعندنا فقراء ، ولكن فقراءنا لهم ثياب نظيفة تسترهم ، وأحذية تحملهم ، وبيوت تكنهم ، وعندنا مالكون للأرض ، ولكن الناس يملكون معهم ليسوا عبيداً لهم ، ولا اجراء عندهم ، ما عندنا هـذه (الاقطاعية ...) إلا في حماة وأمثالها ، وهي مناطق محدودة ، وسائر الارض مقسمة بـين الناس ، يملك الواحد منهم ربع الفدان فما فوقـه ، ولا يرى نفسه دون مالك الآلاف ، ولا يذل له ولا يرى له عليه فضلا .

لذلك يعجب الشامي عندما يقدم مصر ، ويرى هذا التفاوت فيها ، ويسأل من أين جاء ؟

وثانيها : السؤال عن الكتاب والعلماء ، لماذا لايدعون إلى تخليص البلد من هذا الداء العياء ، وتعديل كفـــتي الميزان وتحقيق طبيعة العرب في المساواة ، ومقصد الاسلام في العدالة لاأريد المساواة المطلقة التي لاتبقى غنياً ولا فقيراً ، فهذا مالا يكون ولا ترضاه سنن الكون ، ولا طبائع الأشياء . لايكون إلا في أذهـان الفلاسفة والشعراء ، وأصحاب الأغراض من الدعـاة ، يشعبذون به على الناس ، ويتخذونه سلمـاً إلى غاياتهم ، ووسيلة إلى أغراضهم ، ولكن أريد المساواة المعقولة ، التي لا ينزل بها انسان إلى مـــنزلة البهيمية في طعامه وشرابه ومسكنه ، ولا يرتقي إنسان إلى الألوهية ، يدعيها كذبـــاً وبهتاناً كما ادعاها

فرعون من قبل ، وأن يكفل لكل مصري (مهما كانت مهنته ، وكان عمله) طعامه وشرابه وكسوته ومسكنه ، كما يليق بالانسان أن يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ، وأن لا يترك في مصر رجل واحد ، يعيش كما تعيش السائمة ، يأكل قريباً من طعامها ، وينام مثل منامها ، في الطرقات ، والحقول ، وعلى الأرصفة ، وفي الأكواخ ؛ وأناس يطعمون كلابهم الشكولاطه ، وينفقون أموالهم في المراقص ، ويذيبون ذهبهم في الكؤوس .

فماذا يصنع العلماء والكتاب ؟

وثالثها : السؤال ... إذا كان يجوز لمثلي السؤال ، عن الحكومة مالها تقر هذه الحال ، في كثير من قوانينها وأنظمتها ، فتجعل المدارس الأولية متفاوتة الدرجات ، ولا تسوق ابن الغني وابن الفقير بعصا واحدة ، وتحشرهم في مدرسة واحدة ، كما تفعل وزارة معارفنا في الشام ؛ وما لها تعنى بالمشروعات الضخمة الكمالية ، قبل اتمام الضروري كأن القصد تنويع الحلوى للأغنياء ، قبل تقديم الخبز للفقراء ؟ !

وما لها لا تضع ، ثانياً ، القوانين التي تؤدى إلى إبطال هذا التفاوت ، وإلى رفع المنخفض وخفض المرتفع ، حتى تقترب الدرجتان ، وتتدانى كفتا الميزان ، فتعمل بالإسلام في أخذ الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء ، وحينئذ تأخذ هذه ال (أربعين الف جنيه) قسراً بلا رجاء ولا شكر ، أو تعمل عمل الأمم الغربية ، فتكثر الضرائب على الدخل وعلى المواريث وتشرف على المعامل والشركات والمصارف ، ويكون لها الرأي في كل ما يمس المصلحة العامة - وهذه (اشتراكية) ليست من مبادىء الإسلام ، ولكنه لا يمنعها إن دعت إليها ضرورة ، والضرورات لها أحكام ، وتعريف الضرورة وأحكامها ،

مبيّن في كتب الفقه ليس هذا موضع بيانه .

ورابعها : سؤال عقلاء مصر وقادتها ، ألا تخافون أن تأتيكم هذه الحال بالشيوعية ؟ ألا ترون بوادرها ؟ ألا تعرفون أخطارها؟ ألا تقدرون أضرارها؟ فلماذا تلبثون نائمين ولهيب النار يقترب من منازلكم ، فلا يلبث أن يشعلها عليكم ، فيجعلكم فيها كالمحبوس في الجحيم ؟

إن الناس لا يقبلون على الشيوعية عن معرفة بها ، ولا عن حب لها ، ولكن دعاتها رأوا ما هم فيه ، وعلموا أنهم يتمنون أن يجدوا الخلاص منه ولو على يد الشيطان فأوهموهم أن الشيوعية هي سبيل الخلاص ، وأنها طريق السعادة وأنهم إن كانوا دعاتها ملكوا بها قصور الأغنياء ، وحقولهم وسياراتهم ، فلذلك تعصبوا لها ولا يدرون ماذا فيها ، فهم منها كما قال عبد الله بن عمر ، لمن لامه على ترك مؤازرة ابن الزبير في دعوته إلى الاصلاح : أرأيت بغلات معاوية الشهب اللائي يحج عليهن ؟

قال : نعم . قال : ذلك مايريد ابن الزبير !

إنهم يئسوا منكم ومن دينكم ، فأروهم أنكم معنيّون بهم ، وأن دينكم لا يرضى ما هم فيه . إن الإسلام دين العدالة ، دين المساواة ، دين الخير ، أفنرضى أن يستعبد بعض الناس بعضاً في قرن العشرين الميلادي ، وقد أنكر ذلك عمر في القرن الأول الهجري ؟

فلماذا لا تأتونهم بحق الإسلام ، لتخلصوهم به من باطل الشيوعية ؟

أما والله إذا صار هذا البلد (لاسمح الله ولن يسمح) شيوعياً فأنتم ياأيها العقلاء ، وياقادة الرأي ، المذنبون ، لا العامة ولا الدهماء ولا الأغرار من الشباب !

وخامسها : سؤال المصريين جميعاً ، ألم يروا هؤلاء الأجانب ، أصحاب المتاجر والمعامل والمصارف لم تمتد يد منهم بقرش لرد هذا الوباء ، ومساعدة المنكوبين به ، ورفع البيوت التي هدمها ، وإطعام الأطفال التى يتمها ، والنساء اللاتي أيّمها ؟ ألم يأن لهم أن يتنبهوا إلى أنهم أحق بخيرات بلادهم ؟ لا بالنهب والسلب والثورة وأخذ المال من أصحابه ، لا ، ما ذلك أردت ، ولا يريد هذا عاقل ، بل بأن تطرحوا عنكم ثوب الكسل ، وتشمروا عن ساق العمل وتنزلوا للميدان ؛ وتتعلموا حب المال ، والرغبة في الأسفار ، وتتقنوا فن الاقتصاد ، وصيد الدراهم ، والتعاون على الكسب . بذلك تخلص إخوانكم الشاميون من سيطرة الاجانب ، وانقذوا بلادهم منهم ، ثم ذهبوا فغزوهم في بلادهم ، وانتزعوا أموالهم من أكفهم ، وزاحموهم ، في مانشستر ونيويورك وبونس ايرس والكونغو وبومباي وطوكيو ، وكل بلد في الدنيا ، ما خلت مدينة من تجار الشام .

إن بعض العراقيين يقولون مازحين : إن الشاميين يهود العرب !

يهود العرب .. طيب والله ! .. وهل نقاوم اليهود إلا بهذا ؟ بارك الله في تجار الشام — وإن كنت (أشهد الله) أكره نفراً منهم ، لما رأيت من طمعهم وجشع نفوسهم . وأتمنى أن أشد أصابعي على اعناق أغنياء الحرب منهم ، ولكن الحق أحق أن يقال ، ولا تنجح أمة إلا بأمثال هؤلاء التجار .

هؤلاء الذين يشيدون مجدها ، ويثبتون بناءها ، ويحفظون مالها . فمتى يكون المصريون مثل هؤلاء ؟ ومتى أجيء مصر ، فلا أرى فيها إلا لوحة عربية باسم عربي ، على مؤسسة عربية ؟ !

يا مصر ، هذا هو الطريق ! وهذا والله كلام صديق !

أسلوبٌ جديدٌ في التعليم

نشرت سنة ١٩٤٦

لي أخ كان كلما غشي المدرسة الثانوية رق جسمه ونحل، وعراه ذبول، فأعفيته منها وأبقيته في الدار سنوات ثلاثا لم ألزمه فيها مطالعة شيء من دروس المدرسة وانما كنت أدله على بعض كتب الأدب والتاريخ مما لا يثقل عليه ولا ينال من صحته، وما تجزل فائدته وتعظم المنفعة به، فقرأ فيما قرأ تاريخ الطبري كله والأغاني ... فلما أزف موعد امتحان الكفاءة منذ سنتين قلت له: لو دخلت هذا الامتحان مع رفاقك فلعل الله يكتب لك النجاح. فأطاعني واستعد للامتحان شهراً واحداً ثم دخله فكان من الناجحين، على رغم أن الناجحين في تلك السنة كانوا دون الثلث، وعاد الى مثل ما كان عليه، حتى كان امتحان الشهادة الثانوية (البكالوريا) هذه السنة، فدخله كما دخل الأول ونجح فيه أيضاً.

هذا النجاح الغريب دفعني الى التفكير في الموضوع الذي أكتبه اليوم، وجعلني أسأل نفسي فأطيل سؤالها: ألا يمكن أن نسهل للطلاب هذه الدراسة؟ واذا كانت هذه الغاية وهي شهادة الكفاءة (والصحيح أن تسمى شهادة الكفاية) تدرك بمسيرة شهر واحد في طريق سهل لاحب، فعلام نمشي اليها ثلاث سنين في طريق صعبة معوجة من ينقطع فيها اكثر ممن يبلغ آخرها؟ أليس لنا بدّ

من أن نضيع زهرة شباب أبنائنا في المدرسة لنعلمهم مالا يكاد ينفعهم في حيَوَاتهم ، اذا هم خرجوا منها ، ولم يقدروا أن يشتغلوا بعده بما يشتغل به العامي الجاهل من أعمال اليد ، واشغال السوق ؟ ألا يمكن أن نعلم كل طالب ما ينتفع به ويميل اليه ونعفيه من علوم يكرهها ولا يعتقد فائدتها له في حياته ؟

فقالت النفس : لقد أقمت بناءك على غير أساس ، وجعلت من هذه الشاذة قاعدة ، وأصّلت عليها أصلا . إن أخاك هذا وإن أخذ الشهادة فليس له علم من درس يوماً بيوم ، وسار على الجادة خطوة فخطوة ، ولم يقفز من فوق الاسطحة ولم يتسور الجدران ، وهذه العلوم كلها لازمة لا استغناء عنها ، وأسلوب التعليم صالح لا داعي لتبديله .

فرجعتني والله الى الشك وكدت أدع الموضوع . ثم فكرت فرأيت أن لكل عمل نتيجة ، ولكل مسير غاية ، والغاية من المدرسة إما أن تكون الشهادة أو العلم أو الإعداد لخوض لجّة الحياة والنضال عليها . أما الشهادة فلا بحث فيها لأنها عرض لا جوهر ، ووسيلة الى غيرها لا يصح الوقوف عليها ، ولا القناعة بها ؛ وهي بعد كاسمها (شهادة) قد تكون مزكاة عادلة ، وقد تكون شهادة زور تعطى لغير أهلها ، وتمنح من ليس من مستحقيها . وما ينفع الفقير المفلس أن يشهد له الناس جميعاً بأنه الغني ذو القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟ أما العلم فاسألوا المتعلمين ماذا بقي لهم من دروس الثانوية ، بل تعالوا أحدثكم ما جربته بنفسي وما شاهدت عليه تلاميذي ، ولقد كنت في دراستي الثانوية مجلّياً دائماً أو مصلّياً ، ولم أكن فسكلا [1] ، ولقد اشتغلت بالتعليم الاولي والابتدائي والثانوي ، الأهلي والرسمي والديني ، أربع عشرة سنة ،

---

(١) هو آخر خيول السباق .

قبل أن أليَ القضاء ، في مدارس الشام والعراق ولبنان ، وعرفت الآلاف من الطلاب . وأقل ما أستفيده من هذا أني اذا تكلمت أتكلم عن خبرة واطلاع .

أقول : إني وجدت بالتجربة أنه لم يبق عندي الآن مما أمضيت في تعلمه السنين الطوال ، الا ما كان طبعي منصرفاً اليه من علوم الدين واللسان والتاريخ والفلسفة ، وما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية (لا الطَبَعيَة كما يقول بعضهم ...) فلا أكاد أعرف منه الآن الا أشياء عامة جداً . أما التفاصيل والدقائق واعيان المسائل فقد نسيتها كلها . ولو سئلت عما اعرفه من المثلثات (مثلا) لأجَبْت صادقاً أني لا أعرف الا شيئاً اسمه الجيب والتجيب (تمام الجيب) والمماس . لا أعرف ما هو على التحقيق ، حتى موضوع العلم على وجه التحديد فقد نسيته ، مع أن علامتي في السنة التي قرأنا فيها المثلثات كانت تسعاً من عشر وكنت المجلّي (الأول) في صفّي (أي فصْلي) أما الكيمياء العضوية فلا أعرف منها الا أن فيها شيئاً اسمه (الميتان) وتركيبه جزء من الفحم وأربعة من مولد الماء أي الهيدروجين ، وقد درست جغرافيه بلاد الدنيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، وكنت مع ذلك كلما سمعت باسم مدينة جديدة يأتي في أخبار الحرب اجدني أجهل مكانها ، وأذهب فأسأل عنها الكتب والمصورات استوي في ذلك أنا ومن لم يقرأ الجغرافية قط [1] . وكل من عرفت من الطلاب هذه حالهم لا يستقرّ في رؤوسهم الا ما يختصون به أنفسهم ، وإلاّ خلاصات موجزة ، أفما كان خيراً لهم لو أقرأناهم هذه الخلاصات من الأصل ؟

ولست أقول ، دعوا هذه العلوم لا تقرئوها التلاميذ ، ولكن أقول إن هذا الخلط بين العلوم الكثيرة يؤدي الى إضاعتها كلها ، وهذا سرّ ما نشكوه

---

(١) والاستاذ أنستاس الكرملي يرى أن تسمى الجغرافية علم (التفريسع) من قولهم فرع الأرض ...

من ضعف الطلاب في مصر والشام والعراق في اللغة وهي أداة العلم كلـه ، وما نلمسه من عقم القرائح ، وفقد المخترع والباحث . ولو أنا رجعنا الى طريقـة أجدادنا الذين كانوا يتعلمون علمين أو ثلاثة فإذا احسنوها شرعوا بغيرها لـكان أجدى علينا . فمدارسنا إذاً لا توصل الى الغاية العلمية النظرية ، فلننظر الى الغاية العملية هل تبلغنا إياها ؟ هل تعد مدارسنا التلاميذ إعداداً جيداً للنجاح في الحياة وضمان الكسـب الطيب والعيش الرغد ، مـع الخلق القويم والإيمان الديني والقومي ؟ الجواب مشاهد ملموس هو أن مدارسـنا لا (تـكاد) تخرج اليوم الا أطباء أو محامين أو موظفين . أما الوظائف فعددها محدود لا يمكن أن يتسع لكل المتعلمين ولا ينبغي أن يتسع لهم . أما الاطباء والمحامون في دمشق فقد صاروا من الآن اكثر من اللازم بكثير ، وغدا جلّهم يقتنع بالكسب القليل أما التجارة والزراعة وسائر طرق الرزق فإن اكثر أهلهـا أو كلهم ... ممن لم تخرجهم المدارس بل خرّجوا أنفسهم في مدرسة الحياة الكبرى ، ولا نستطيع أن نَغْلُوَ فنقول بأن خريجي المدارس يمتازون من الناس بأخلاقهم الشخصيـة والاجتماعية ، أو أن المدارس جعلتهم طبقة مختارة ممتازة من طبقات الشعب بل إنهم كغيرهم من الناس ، منهم الصالح ومنهم الفاسد ومنهم من هو بين ذلك !

والسبب في هذا كله أن نظام التعليم في بلادنا كالبيت العتيق الخرب ، المختل الهندسة ، الذي لا يفتأ اصحابه يتعهدونه بالترميم والاصلاح ولكنهم لا يجرؤون على هدمه من أساسه وبنائه من جديد على هندسة صالحة ، ونمط صحّي نافـع . إننا نحبس التلاميذ ست سنين للدراسة الثانوية ، ونحشو رؤوسهم بمعلومات اكثرها لا ينفع في الحياة . وماذا لعمري استفدت أنا من دراسة المثلثات والهندسـة النظرية و (حفظ) معادلات الكيمياء وقوانين الفيزياء في القضاء أو في تدريس الأدب أو في فن الكتابة ، وتلك هي اعمالي في حيـاتي ؟ سيقول قائل ، ومن

كان يدري أنك ستكون أديباً أو قاضياً ، أفما كان في الامكان ان تكون مهندساً أو صيدلياً ؟ بلى ، ولكن الدراسة العالية حددت طريقي في الحياة ، فلماذا لم أحدده قبل ذلك بسنوات ؟

هذه هي المسألة ، كما يقول شكسبير . إن الدراسة العالية هي المقصودة بالذات ، وما قبلها ثقافة عامة هي بمكان المقدمة اليها والتمهيد لها ، أفلا يستطيع الشاب الواعي دراسة الحقوق مثلا ، من غير إحاطة بدقائق الكيمياء والفيزياء والرياضيات ؟ أو لا يجزئه ويكفيه أن يعرف عنها الشيء المجمل المختصر ؟ وطالب الطب هل يستحيل عليه تحصيله من غير معرفته بعلل الشعر واختلافات الكوفيين والبصريين ؟ لقد شاهدنا محامين بارعين وقضاة لا يعرفون شيئاً من المشتقات ولا تحول التابع ولا صفات البروم ، وشاهدنا أطباء كباراً استطاعوا أن يعملوا عمليات في شق البطن وفتح الجمجمة ، على جهلهم الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، وشروط عمل اسم الفاعل .

* * *

فما العمل ؟ أنا أرى ، اذا كان في الدنيا من يسمع رأيي ، ان نجعل مدة الدراسة الابتدائية والثانوية معاً سبع سنين على الاكثر يتمكن فيها الطالب من العربية بالمران والتطبيق وتنبيه السليقة لا بحشو رأسه بالقواعد وقتل وقته بمعرفة أوجه الاعراب حتى يقيم لسانه ويتنزه عن الخطأ الفاحش ، ويبصر مرامي الكلام ودقائق معانيه ، ويتعلم من دينه ما يمسك عليه إيمانه وخلقه ويرغبه في الخير ويصرفه عن الشر ، ويمنعه عن الحرام ؛ ويعرف من الرياضيات الشيء العملي الذي لا يستغنى عنه من غير اشتغال بالنظريات المجردة ، وما لابد من معرفته من علوم الطبيعة وقوانينها الأساسية وأسرار المخترعات ، وأن يدرس

الصحة والجغرافية والتاريخ العربي[1] وأن يعرف مبادىء لغة من اللغات الغربية وامثال ذلك فما أردت الاستقصاء بل التمثيل .

فاذا تخرج الطالب منها عرضنا عليه فروع الجامعة ، فاذا اختار فرعاً منها حضرناه له في سنتين أو ثلاث ، علمناه فيها ما يتصل به ، فيكون في كل كلية قسم تحضيري فيه من العلوم ما يحتاجه طالبها ، فيتلقاها الطالب برغبة فيها وحب لها لأنه هو الذي اختارها ، ووافقت هواه ، وظهر له النفع منها ، وينجو بذلك من خلق شاعراً من حفظ طلاسم الرياضيات ، أو الرسوب دونها والانقطاع عن المدرسة وحرمانه التحصيل من أجلها ، وهو من بعد لا يحتاج اليها أبداً ، ولا يتعلم كل طالب الا ما يحتاج اليه مع اختصار مدة الدراسة وتقوية الاختصاص ، وكسب الوقت الذي يستطاع الاستفادة منه في تقوية الاجسام الرياضية ، ومعرفة الوطن بالسياحات ، والعناية بالتربية الخلقية والوطنية ... ومن شاء بعدُ الاكتفاء بالدراسة الثانوية ودخول معركة الحياة لم نسلبه وقته

---

(١) وهنا مسألة مهمة جداً لا أعلم أحداً نبه عليها او انتبه لها ، هي أن تاريخنا السياسي الذي يدرس الآن في مدارسنا سلسلة فضائح من انقسام الى ثورات الى قتل الى استبداد . حاله في ذلك كحال تواريخ الامم كلها ، واذا استثنيت امثال العمرين وثالثها ابن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين لم نكد نجد من الملوك من تصلح سيرته لتكون قدوة ، والتاريخ العظيم الذي يجب تدريسه هو تاريخنا العلمي الفياض بالمكارم والمفاخر ، ولذلك عنى علماؤنا بتراجم الافذاذ اكثر من عنايتهم بالتاريخ العام . ومن العلماء من أثر في عصره أبلغ الاثر حتى وجب أن ننسب العصر اليه لا الى خليفة الوقت كأحمد بن حنبل والغزالي وابن تيمية . هذا بعد أن يدرس كل تلميذ تاريخ بلده الذي يعيش فيه . وإن من اقبح العيب ألا يعرف الطالب العربي أين تقع سر من رأى وماذا فيها الآن ، وإلام صارت الكوفة ، وأن يعرف التلميذ الدمشقي تاريخ الثورة الفرنسية قبل أن يعرف من بنى القلعة وكم مرة احترق الاموي وأين أبواب دمشق ومن أنشأ حي الصالحية .

وسلحناه بثقافة عامة يعلو بها مستوى السوقة واصحاب المهن ، ومن أراد التخصص فتحنا له بابه ، وعجلنا له دخوله وقويناه فيه . وهذا إيجاز للاقتراح والشرح حاضر إن احتاج اليه القراء .

أما التعليم الديني فلنعد فيه الى مثل الطريقة الازهرية الأولى مع إصلاح يسير فيها ، فقد ثبت أنها انفع وأجدى ، دنيا وأخرى ، وأن تلك الثورة عليها حتى تم العدول عنها ، والقضاء على الجامعة الازهرية ، كان فيها إغراق أدركناه الآن . وأنا أعرف الازهر الجديد وأعرف كليات ثلاثاً أنشئت على غراره في دمشق وبغداد وبيروت علّمت فيها كلها ، واشهد لله شهادة حق أن الازهر القديم كان في الجملة خيراً منها ، إذ كان أهله يطلبون العلم لله وللعلم فصار أهلها يطلبونه للشهادات والوظائف ، وكانوا يصبرون على تلك الحواشي المطولات وإن تكن عقيمات ، فصار هؤلاء لا يقرأون إلا خلاصات يجوزون بها الامتحانات . وكانوا علماء عاملين لدينهم أهل تقى وورع في سمتهم وسلوكهم ، وسرهم وعلنهم ، فصار بعض المدرسين واكثر التلاميذ ... صاروا على حال من عرفها فقد عرفها ومن جهلها فلا يسأل عن الخبر .

وأنا لا أعمم ولا اطلق القول ، وإنما أعني الكثرة ممن اعرف ، ولعل فيمن لم أتشرف بمعرفته خيراً لم يصل الىّ علمه ولا بلغني خبره _ هذا على ان تكون المدارس الدينية بمثابة مدارس الاختصاص لا يدخلها الطالب الا بعد ان يدرس هذه الدراسة الثانوية ويفهم علومها ويأخذ شهادتها . لأنها ثقافة عامة يحتاج اليها عالم الدين وعالم الدنيا والموظف وصاحب العمل الحرّ .

* * *

ولا بأس بعدُ بارتياد مناهل العلم في غير بلادنا ! على ان يطلب فيها العلم المبني على المشاهدة . اما علوم الرواية وما أصوله عندنا ، كعلوم العربية فلا ،

وهذه الحماقة التي كان أتاها الفرنسيون إذ أرسلوا شبابنا يتعلمون العربية في باريس لا يجوز أن تعاد ، وحسبنا أن صَلينا نحن نارها ، وتجرعنا صابَها ، (ولا نزال نتجرعه . . .) وان اضحكنا الناس علينا ، وزدنا طلابنا على ضعفهم في لغتنا ضعفاً . وعلى أن نختار الطلاب الموفدين من ذوي الدين والخلق المتين ، وأن نرسل معهم من الاساتذة الكهول المتزوجين ، مراقبين ومرشدين .

* * *

هذه كلمة صغيرة في موضوع كبير ، اعرف انها تثير مناقشات وتحتمل جدالا ، وأنها لم تلم بأطراف الموضوع ولم تستوف البحث فيه وإنما هي تنبيه الى فساد ، ودعوة الى إصلاح .

★ ★ ★

مناظرة هادئة

نشرت سنة ١٩٤٦

نحن معشر الرجعيين ... لا نرى قتال المرأة ولا نزالها ، ونجد ذلك قادحاً بالرجولة ، ونعد ذنب المرأة مغفوراً وجنايتها جُباراً ، ولكن آراء الرجعيين الجامدين من أمثالي ... صارت أثراً عتيقاً من آثار القرن الماضي لا تصلح الا لدار الآثار ... وقد تغيرت الدنيا وأهلها ، واصبح من أشد ما تأباه المرأة (أو السيدة إذا شئت الأدب في الخطاب) وتنكره وتراه هواناً لها ونزولاً بها عن منزلتها أن تترفق بها لأنها امرأة وغدت تريد أن تكافح الرجل وتنازله لا ترى نفسها اصغر من أن تغلبه ، ولا تجده أكبر من أن ينهزم أمامها ، فعلى هذا ، وإكراماً للسيدة الجديدة ، ومجاراة في مذهبها ، ووفاء بحق هذه الأمانة أمانة (القلم) الذي منّ الله به عليّ وجعلني من أهله لأضرب به في كل ميدان إصلاح ، واقرع به كل معالم الفساد ، لا تمنعني من ذلك رهبة عدوّ ، ولا رغبة في مودة صديق... لهذا كله أعرض اليوم عرضاً الى هذه (النهضة النسائية) التي أصبح الكلام فيها واجباً وجوب عين ، فعفوَكنّ ـ يا سيداتي ـ فأنتن أردتنّ هذا ، وإنه لا يزعجكنّ ـ فيما أظن ـ الكلام في هذه النهضة ، لأنها ليست من الضعف (في رأيكن) ومن الوهن بحيث تنهدم من ضربة ، وتطير من

نفخة ، ثم إني كتبت مجيباً لا مبتدئاً ، ولا منتصفاً ولا معتدياً . .

ولا بدّ لي قبلُ من ذكر مقالتي (دفاع عن الفضيلة) [1] ، لأن هذا الفصل كالتعليق عليها ، ولولا الحياء وخوفي من أن أوصف بالغرور ، وبأني ممن يحرص على (صيد) الفرص ، لينوّه باسم نفسه ويزكيها ، لقلت : إنه قلما تصيب مقالة من النجاح الصحفي ما أصابت هذه المقالة (في بلاد الشام) ، فقد نفدَتْ نسخ « الرسالة » كلها في ساعات من نهار ، حتى صارت النسخة تطلب بأضعاف ثمنها فلا توجد ، وقرأ كل نسخة - فيما أقدِّر - اكثر من خمسة ، ومن القراء من اخبرني أنه كان يعقد لها المجالس ليتلوها فيها كما تتلى المحاضرات ، وسُرّ بالمقالة جمهور من الناس ودعا لي من اجلها وأثنى عليّ وهنأني ، وغضب منها جمهور من الناس ودعا عليّ وشتمني ولعنني ، ورأى فيها إخواننا الرجعيون الخيّرون انصار الفضيلة ترجمة آرائهم ولسان افكارهم ، ورأى فيها المجددون تجديد الباطل ، المجردون انفسهم وأهليهم من ثياب الستر ، المبددون تراث الاجداد الماجد الثمين ، سدّاً في طريقهم الى غايتهم التي يدعون اليها ، وبلاء صبّه الله عليهم ، وخزياً لهم وغيظاً لقلوبهم ، فقالوا : رجعي ؛ وقالوا : مُشْتَهٍ محروم ينفّس بهذا عن نفسه ؛ وقالوا ؛ فاجر يتستر بالدفاع عن الفضيلة ، وما باليت كل ما قالوا . . . لأني ما كتبت هذا المقال ، وما قبله ، ولا ألححت هذا الإلحاح على محاربة تلك المفاسد ، ابتغاء رضا الناس ، فأنا اعلم ان من تغضبه هذه الكتابات اطول يداً ، وأشدّ سلطاناً ، وأحدّ لساناً ، واقدر (ولا يقدر الا الله) على نفعي وضري ، ولكني كتبتها ، غضباً لله ولدينه ولمحارمه ، وتنبيهاً لهذه الأمة الغافلة ، أن يفتك بها ذلك الداء ، وتحرقها تلك النار ، ووطنت نفسي على حمل ما (قد) تأتيني به من الأذى ، لا حمل

---

(١) صفحة (٩٢) من هذا الكتاب .

الضعيف العاجز ، بل المحارب المقاتل الذي لا تصيبه الضربة حتى يردها بعون الله عشراً . على أني اذا ذكرت الحكومات ورجالها ، فلا أبرىء العلماء ولا الأدباء، فهم أولى باللوم ، واحمل للتبعة ، إذ يسكتون عن إنكار المنكر ، ولا يسخرون له ألسنتهم واقلامهم ، ولو أنهم أدّوا زكاة بيانهم دفاعاً عن الفضائل والاعراض وأثاروها داحسيّة بسوسيّة على الإباحية والفجور ، لما حقت هذه اللعنة علينا حتى صار يقود ناشئتنا في دورنا واسواقنا نفر من الفجار عباد إبليس ، سموا انفسهم كتاباً وصحفيين ، وصارت لهم كتب تقرأ ومجلات ، وما كتبهم ولا مجلاتهم الا الترجمة الفنية لحديث المراقص والمواخير ، وبيوت الخنا والزنا ، وما يكون فيها من مشاهد وصور ، تحملها كل يد الى كل دار ، فيقرؤها الشاب في المدرسة ، والفتاة في الخدر ، فتكون هادياً لهم الى تلك البيوت وإماماً !

ولكن المسؤول قبل الحكومات وأرباب البيان ، والمجرم الأول ، ومنبع الشر ورأس البلاء ، إنما هو الأب ، الأب الذي يرضى لبنته أن تتكشف وتتعرى ، وتحتك بالشبان في الترام ، وتشرب القهوة عند البياع في سوق الحرير ، ويرسلها إلى مدارس يعلم فيها أدب بشار وأبي نواس شباب في اعصابهم مثل النار التي في اعصابها ، ويبعثها في رحلاتهم التي تمتد أياماً وليالي ، تنزل معهم في الفنادق ، وتركب معهم في السيارات ، وتؤم معهم المتنزهات ، وتسمع (وكيف لا تسمع ؟) الفاحش من نكاتهم ، والبذيء من اغانيهم ؟ وما أغانيهم الا غزل في مثلها وتشوّق اليها ، وهي في السن التي تُصرّخ فيها غريزتها ، وتغلي دماؤها ، ويتفتح للحب قلبها !

ولا يدري هذا الأب المغفل القرنان ان ليست عاقبة هذا الا فضيحة تقصم الظهر او مرضاً يحمل الى القبر ، ثم إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى !

أقول : إن هذه المقالة شغلت الناس ، واختلفت فيها آراؤهم ، وكان من اعجب ما سمعت من التعليق عليها ، أني كنت في الترام ، وكان الترام في تلك الساعة خالياً ، فسمعت حديثاً بين امرأتين في غرفة النساء ، لا أراهما ولا تريانني ، موضوعه التعليق على هذه المقالة ، ولست أروي من هذا الحديث الا كلمتين اثنين تدلان عليه ، قالت الأولى :

ـ يُهْ ! ما تردّي عليه ؟ ينزل عليه الدم ان شاء الله ،وعلى هالمشايخ كلهم !

ـ قالت الثانيـة : وانت ليش مهتمة فيه ، مين رادد عليه ؟ يبعت له الحمّى يعني بدّو نرجع للورا ، ونضيع النهضة النسائية ونرجـع جاهلات متحجبات يتحكم فينا الرجال ؟ فشر ! إننا سنكسر راسه !

وليصدقني القراء اذا قلت لهم إن هـذا كلامهما بالحرف الواحـد ! وأنا لا أحب ان أردّ هذه الشتائم ولا أحسن مثلها مع الأسف الشديد ، إنما احب ان ابحث في اصل الموضوع ، اما رأسي فقد عجزت عن كسره اقلام كتاب فحول حاولته من قبل ، وألسنة خطباء مقاول ، وعصيّ حـكام جبابرة ، فلن تكسره اقلام طرية ، في أيدٍ ذات سوار ، رخصة البنان ، محمرة الاظافر لا يا سيدتي ، إن الله قد صنعه من (مواد غير قابلة للكسر) ، فـدَعْنَ رأسي وتعالين نتناظر (مناظرة هادئة)في هذه النهضة النسائية ، فذلك أجدى عليكن من كسر رأس لا تستفيدون من كسره شيئاً ... لأن رؤوس (الرجعيين) لا تزال كثيرة جداً !

ما هي هذه النهضة النسائية ؟ بماذا تختلف نسـاء اليوم عن نساء الأمس ؟ أنا الخص الاختلاف في كلمات :

كانت نساؤنا تقيات جاهلات متحجبات مقصورات في البيوت ، فرقّ دينهن

وتعلمن وسفرن وخالطن الرجال ، ولننظر في كل خصلة من هـذه الخصال ، أكانت خيراً أم كانت شرا :

أما الدين (على إطلاقه) وخوف الله في السر والعلن ، وما يكون معه من الاطمئنان والرضا ، والإحسان الى الناس ، والبعد عن الفواحش ، وترك الكذب والغش والحسد والمكر ، وهذه خلائق يوحى بها كل دين من الأديان[1] فلا يشك عاقل في أنه خير ، وان تركه شرّ ، وان هذه النهضة بإبعادها النساء عن شرعة الدين ، قد أضرّت ولم تنفع ، وكان ضررها مضاعفاً مكرراً ، لأنه إن جاز ان يمنع الرجلَ من الفاحشة خلقُه وإرادته ، فقد ثبت ان المرأة لايمنعها منها الا دينها !

وأما العلم ، فهو خير للمرأة بشرط أن تتعلم ما يصلحها ويصلح لها ، وألا يوجب تعلمها اختلاطها بالرجال ، لأننـا إن قدرنا العلم قدره ، وعرفنا له فضله فلا نستطيع ان نفرط من أجله بالشرف ولا نضيع العرض ، وهما اكبر قدراً واكثر فضلا ، وليس معنى هذا ان كل اختلاط يؤدي حتما الى إضاعة العرض لا ، ولكن الغرائز موجودة ، والشهوات مستقرة في النفس ، إنْ منعها سـدّ ففد تطغى فتحطم السدّ او تعلو عليه ، ومن حام حول الحمى يوشك ان يرتـع فيه ، والعبرة بالشائع الغالب ، لا الأقل النادر ، وعلى ذلك نزلت الشرائـع ووضعت القوانين ، ولو كان احتمال سقوط المرأة في هذا الاختلاط واحداً في الألف لوجب منعه وتحريمه ، لأن أمة في كل الف من نسائها واحدة ساقطـة لأمة فاجرة ليست بذات خلق قويم ، ولا تستحق ان تعيش ...

ونحن لا نكره ان نرى في نسائنا امثال باحثة البادية ، ووردة اليازجي

---

(١) وان الدين عند الله الاسلام .

ومي ، وماري عجمي ، ووداد سكاكيني ، ونهاد ونجاح العطار ، ومريم خشة

ولكن أين السبيل الى ان نوجد امثالهن ؟ وهل توصل الى ذلك مدارسنا ؟

إننا نبصر فتيات يتجاوز عددهن الآلاف المؤلفة ، يقطعن الطرقات كل يوم

الى المدارس ، غدواً اليها ورواحاً منها وهن بأبهى زينة وأبهج منظر ، يقرأن

كل ما يقرؤه الشبان من هندسة وجبر ومثلثات وكيمياء وفيزياء وأدب غزل

ويتعلمن الرسم والرياضة والغناء ، ويدخلن مع الشباب في الامتحانات العامة

ويحملن مثلهم البكالوريات والدبلومات ، ثم يجمعهن مجلس (بعد هذا كله) بالعاميات

الجاهليات ، فلا تجدهن اصح منهن فكراً ، ولا أبعد نظراً ، ولا ترى لهذا

الحشد من المعلومات الذي جمع في رؤوسهن من أثر في المحاكمة ولا في النظر

الى الاشياء ، فكأن هذه المعلومات الاغاني التي تصب في اسطوانات الحاكي

(الفونوغراف) إن اردتها سمعت لهجة فصيحة ، وكلاماً بيناً ، ونغماً حلواً

فتقول انها تنطق ، فإذا سألتها وكلمتها رأيتها جماداً أخرس ، ليس فيها الا

ما استودعته من الكلام الملحن ... !

وهذا حق ، ما أردت بسرده الانتقاص ، ولكن بيان الواقع

ثم إن تزوجن لم يمتزن الا بإهمال الولد ، وتركه للخادمات والمراضع

والانصراف عن الدار واعمالها ، والترفع عن الزوج ، ثم إنه لا يعجب إحداهن

الا ان تلقى في زوجها حماراً (ولا مؤاخذة) تركبه الى غايتها ، لا رجلا تحبه

وتطيعه ويحبها ويرفق بها

وإن هي اشتغلت معلمة او محامية او طبيبة ، لم تكن الا (دون الوسط)

في المعلمين والمحامين والاطباء ، فما هذا العلم ؟ ولماذا لا تتعلم ما ينفعها امرأةً

وزوجةً وأماً وربةَ بيت ؟ ولماذا لا تتعلم مع ذلك التحرر من عبادة (الموضات)

والأزياء ، ومن حب تقليد النساء الغربيات حتى فيما هو ضرر محض ، وأن

يجعل لها العلم استقلالا في فكرها ، تتبع كل ما تجده صالحاً ولو كان مخالفاً لـ (الموضة) ، مبايناً لما عليه اهلها ؟

واما الحجاب ،واعني به ستر الاعضاء التي تثير غرائز الشر في نفوس الرجال حتى تبقى الفتاة كالجوهرة في صدفتها ، لا يصل اليها سارق ولا غاصب ، فأنا افهم سبب ثورة الفساق من الرجال عليه ، إنهم يريدون ان يستمتعوا بالجمال المحرّم عليهم ، ولكني لا افهم أبداً لماذا يقلدهم النساء في هذه الثورة ، وماوضع الحجاب الا لصيانتهن وإكرامهن ؟ وماذا يضر السيدة الفاضلة المتعلمة اذا لبست اللباس المحتشم الساتر ، وهي ترى الرجل الذي تحاول التشبه به لا يكشف الا وجهه و كفيه ، مع انها هي التي ينبغي ألا يظهر منها الا وجهها (عند أمن الفتنة) و كفاها ؟ أفانعكستْ الحال ، وانقلبت الامور ، حتى احتجب الرجال وتكشف النساء ؟ وما الذي ربحناه من السفور ؟ ليجب من كان عنده جواب مقنع ،اما أنا فأدعى أننا لم نربح منه الا الشرور والفجور ، والدلائل حاضرات

اما الاختلاط ، واشتغال المرأة بأعمال الرجل ، فأنا اعجب من مطالبة المرأة به ، ولا افهم من منا يريد لها الخير ، ومن الصديق لها ومن العدو !

نحن نريد لها ان تكون سيده حقاً مخدومة لا خادمة ، تأتيها حاجتها من غير ان تسعى اليها ، وهم يريدون ان تسعى وتزاحم الرجال حتى تصل الى خبزها ولو اشتغلت بأخسّ الصناعات وأحطّ المهن ، ويدعون مع ذلك أنهم انصار المساواة .

أين المساواة اذا حملت على ظهرها مثل حمل الرجل وهي تحمل في بطنها ولده ، وأخذت مثل وظيفته وهو يغذي نفسه وهي تغذي نفسها وتغذي من ثديها ابنه ؟

ثم إنكن تقلدن أوربة ، مع ان المرأة تشتغل في أوربة عن عجز وحاجة وكريمات السيدات لا يشتغلن شيئاً ، إنما تعمل البائسات الفقيرات ويتمنين زوجاً يخلصهن من جهد العمل ، وإن عقلاء أوربة يصيحون شاكين من مزاحمة المرأة الرجل ، فقد عطلت بيتها ، وشغلت الرجل بـ (غير العمل ...) فقللت إنتاجه ، ورضيت بالأجر الخسيس ، فنزلت الاجور ، فاضطر العامل ان يبعث بامرأته الى العمل ، فجاءت قضية الدور التي زعم المناطقة أنها من المستحيل !

أفنبدأ نحن من حيث أراد الغرب أن ينتهي ؟ أنلحق ما يريدون هم الفرار منه ؟!

وهذه هي الصناعات ، فأيها تصلح له المرأة العادية وتعدل فيه الرجل ؟ إعرضنها كلها من تكسير الحطب وتنظيف المجاري وكنس الطرق[1] الى المحاماة والقضاء والنيابة والوزارة ، وأخبرنني عما تخترن منها ...

نعم إن الدهر يجود أحياناً بنساء نابغات يصلحن لبعض اعمال الرجال ، ولكن الكلام على سواد الرجال والنساء لا على النادر ، فكم نسبة الصالحين لكل من هذه الاعمال من الجنسين ؟ واذا صلح لها النساء فهل يصلح الرجال (بالمقابلة) للطبخ وادارة المنزل وتربية الطفل ؟ إن هذا ينتهي بنا الى إعلان (مساواة الجنسين) ، وأنه لم يبق مجال للتفريق بين رجل وامرأة ؛ وإذن يجب على الحكومة أن تسنّ قانوناً يجعل الحبَل على كل منهما سنة ، فهي تحبل مرة وهو مرة ، وهي ترضع ولداً وهو يرضع ولداً ، وأن ينص هذا القانون على أن من يستعمل (نون النسوة) يعاقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات !

ياسيداتي ، إنكن تعودتن منا التشجيع والتصفيق والهتاف ، ولكن المسألة خرجت عن المجاملات وصارت مسألة موت لهذه الأمة أو حياة ، فأعدن التفكير في أسس هذه النهضة ، واجعلن مصلحة الامة هي الميزان فيها !

---

(١) وقد سمعنا ان المرأة تشتغل بذلك في بعض الدول الاجنبية !

ياسيداتي، لقد كنا نرجو منكن أن تدفعن عنكن هؤلاء السفلة من الرجال وأن تَصفعنَهم على وجوههم النجسة ، كما تصفع المرأة العفيفة أحد هؤلاء الكلاب إذا حاول الاعتداء على عفافها ، وان تقاطعن هذه المجلات الداعرة الخبيثة التي تؤذي شرفكن باسم الصحافة والفن ، وأن تَثُرنَ على هذه الأفلام السينمائية الداعرة ، وأن تخرجن معلمات حاذقات وتنادين بمنع كل شاب مهما كان شأنه معلماً أو مفتشاً أو ناظراً ، من تجاوز عتبة مدرسة من مدارس الأناث ، فهل تحققن هذا الرجاء، هل تقمن هذه النهضة على أساس الدين والخلق والعلم النافع؟!

* * *

لو أقر المجمع

نشرت سنة ١٩٤٦

أديت أمس حسابي في المطعم وتهيأت للخروج ، فسمعت من ورائي لهجة غريبة ... فتلفتّ فرأيت على مائدة قريبة مني ، عراقياً بسيدارة ، ومعه شامي بعمامة مطرّزة ، ونادل المطعم قائم أمامهما ، والعراقي يقول له :

– ماعون باجيلا على تِمَّنْ ، وصَمّونَهْ .

والنادل مبهوت ، يقول :

– إيه ؟! إيه ؟!

فيقول الشامي : العمى ، شو ما بْتِفهم عربي ؟ بدُّو ماعون ما بتعرف الماعون ؟ يعنى طبق غسيل ، وصابونِهْ .

– النادل : ليه بَأَه ؟

– الشامي : ليش ؟! بَرْكي بدّو يتغسل !

(ويضحك من نكتته)

– النادل : يتغسل ! بعيد الشرّ ، عاوز تؤول يشَّطَّف .

– الشامي (مغرقاً في الضحك) : يشَّطَّفْ ! ياعيب الشوم ، شو

مابتستحي انته ؟

– العراقي : والله ، مادا أفتهم ، حشّى غريب هوايه ، يابه ، ماتحشى عربي ؟!

– النادل : ما تحكي عربي ، ياخويا ؟!

– الشامي : لكان عم يحكي أرناؤوطي ؟! هذا عربي !

– النادل : أمّال بؤول إيه ؟

– الشامي: بؤول بدّو كوسا محشي ومهوايه ، يعني مروحة .

* * *

ولم أستطع أن أتقاعس أكثر من ذلك ، وخفت أن يفضحني الضحك ، فخرجت وأنا أسائل نفسي : ماذا يكون لو أقر مجمع اللغة (العربية ...) اقتراح الأستاذ فريد أبو حديد بك ، الذي يدرسه الآن أعضاؤه ؟

والذي يقول فيه « فلو كانت العامية لا تزيد على أنها استخدمت أداة للتعامل في الأسواق والحياة اليومية لكان أمرها هيناً ، ولكنها منذ برهنت على صلاحها للتعبير الأدبي صار من الممكن أن تنطلق في سبيلها متباعدة عن الفصحى حتى ينتهي بها الأمر إلى الاستغناء عنها . بل إن جمال أساليب التعبير العامي إذا بلغ مداه كان أجدر أن يسترق القلوب لأن تلك الأساليب أقرب إلى النفوس والافهام من الفصحى لشدة اتصالها بحياة الكافة .

ولقد كان من أكبر ما عمل على تقويض أركان اللاتينية ظهور كتاب مبدعين في اللغات القومية الأوربية ، وقد كانت تلك اللغات عامية في وقت من الأوقات بالنسبة للغة اللاتينية ، فقد ظهر دانتي في إيطاليا ، وكتب روائع قومه بلغته (إلى أن قال) ولكننا لانخشى على العربية الفصحى أن يكون

مآلها هو مآل اللاتينية لعدة أسباب :

١ - إن العامية لم تستطع إلى الآن (تأمل) أن تتسامى إلى آفاق الفكر العليا ، فإنها لم تزد بعد (تـأمل) عـلى أن تكون وسـيلة للتعبير الساذج والأحاسيس الابتدائية ، ولم يظهر فيها بعد (تـأمل) أمثال النوابغ الذين أنتجوا روائعهم الخالدة ، بلغاتهم الاوربية الحديثة الدارجة .

٢ - إن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلـغ شيئاً يقرب من الفارق بين اللغات الأوربية الدارجة وبين اللاتينية ، فما زال التفاهم ممكناً في سهولة بـين المثقف وغير المثقف بلغة سليمة بسيطة فصحى .

غير أننا لا ينبغي أن نتجاهل الخطر الماثل في لباقة اللغة العامية ،وصلاحيتها كأداة للتعبير الأدبي فهو إن كان اليوم محـدوداً فقـد يكون غداً أقوى وقد تصبح أقدر على الأداء الأدبي السامي من الفصحى إذافتن الشباب المثقف بالإنتاج الفكري باللغة العامية ، وعملت أجيال منهم على الارتفاع بها إلى المستوى الأدبي الذي يجعلها لغة فكر وتعبير صحيح » اه .

وأفكر ماذا يكون لو فتن الشباب المثقف هـذه الفتنة (نعوذ بالله من الفتن ، ماظهر منها وما بطن) ، وصار في الدنيا لغة شامية ولغـة مصرية ولغة عراقية ، ونشأ في كل واحدة منها أدباء وشعراء ، كما هي الحـال في الفرنسية والايطالية والأسبانية ، وإن بقيت اللغة الفصحى (كما يريد الاستاذ) لغـة القرآن والعلماء والمساجد والمعاهد العاليـة . وماذا يصنع إذن صاحب المطعم الذي كنت آكل فيه آنفاً ؟

إنه لا بدّ له من ترجمان ، عارف بهـذه اللغات ، واقف عليهـا ، متخصص فيها ، عالم بدقائقها وسنن أهلها في كلامهم ، ليفهم النادل أن الماعون في بغداد

هو الطبق في مصر[1]، والصحن في الشام ، وأن التشطيف في مصر غسل الوجه واليدين ، ولكنه في الشام غسل ال . . . أعني الاستنجاء ، وأن الصمّونة في بغداد هي رغيف الخبز الأفرنجي ، ويسمى في دمشق الأفرنجوني ، ولكنها في تونس اسم لشيء يستحيا من ذكره ولقد حدثني الاستاذ القليبي رحمه الله انه قال لغلام الفندق لما كان في بغداد : هات لي خبزاً طرياً لاني بلا اسنان . فقال له : أجيب لك صمونة ؟ فغضب الاستاذ غضبة مغربية وقال : ماتستحي تمزح معي وانا بقدر جدك. والباجيلا" الفول والتمّن الرز ، وأن الـ (هوْاية) في العراق ، صفة للشيء الكثير ، وهي في غوطة دمشق الصفعة على الوجه ، وأنك إذا (بسطت) رجلا في الشام ومصر فقد سررته ، وإذا (بسطته) في العراق فقد ضربته ، والمبسوط المضروب (عَلـْقـة) ، وهي في الشام (فَلـَقة) ، والتقليع في الشام الطرد من الدار ونحوها وفي مصر نزع الثياب وأن التقفيل في مصر إغلاق الباب وله في الشام معنى هو أخبث من أن يشار اليه ، و (هُون) في الشام هنا ، وفي العراق (هنانا) ، والهون في مصر هو الهاوون الذي يدق به واسمه في الشام الهاون ، هذا عدا عن الكنايات السائرة والمجازات المشتهرة ، وهي كثيرة في كل بلد لايعرفها إلا أهله يلحنون بها في أحاديثهم ، ويسخرون بها من الغريب ؛ وعندك بعدُ اختلاف النطق وما ينشأ عنه من اختلاف المعنى ، فمن المصريين من يميل بالسين إلى مخرج الزاي ، ومن هنا سارت النكتة في دمشق عن مدرس مصري جيء به إلى مدرسة بنات ، فقال لإحداهن مؤنباً :

– إيه الأسباب التي منعتك من إعداد الدرس ؟

وفي العراق يجعلون القاف جيما معطشة ، وقد سألت حوذياً يوم وصلت بغداد ، أن يأخذني إلى ضاحية نزهة. فقال:

---

(١) ومن الطرائف ان الماعون في السلط كان يسمى (السفل) ، فتقول المرأة لجارتها : اعيرينا سفلك ...

– تروح باب شرجي ؟

فكدت أبطش به ، وما يريد إلا (الباب الشرقي) وهو من متنزهات بغداد.

ومن ذلك أن أديباً مصرياً زارني في إدارة الرسالة ، وكان الحديث عن الفساد في مصر ، فقال لي إن في دمشق ما هو أفظع وأشنع ، اعلانات على ابواب الدكاكين فيها طلب صريح للخنا ، فأنكرت واستوضحت ، قال لقد رأيتها بعيني ، لوحات فيها (يلزمنا آنسات للخياطة) ، والخياطة في عامية مصر كناية عن الزنا . فتأمل !

نعم انه لابد من ترجمان ؟

وليس يجيء هذا الترجمان إلا من مدرسة ، فلا بدّ لنا إن أقر المجمع اللغوي هذا الاقتراح من أن ندرّس هذه اللغات الشرقية الحية في مدارسنا الثانوية ، وننشيء لها قسماً في كلية الآداب ، أو أقساماً لأن اللسان الشامي سيكون فيه لغات متعددات ، فلغة دمشق ليست لغة حلب ، وهي تخالفها في معاني المفردات ، وفي تركيب الجمل ، وفي طريقة النطق ، ولغة حلب غير لغة حمص ، ولغة حمص غير لغة حماة ، وكلها تخالف لغة دير الزور ، وهذه تخالف لغة البادية ، فصار عندنا في الشام لغات في كل منها لهجات ، فلهجة أهل دمشق غير لهجة أهل الغوطة ، ولهجة هؤلاء ليست لهجة جبل القلمون ، وفي القلمون عشرون لهجة تختلف اختلافاً بيناً ، وفي كل منها شعر ... وأدب ... إي والله وموسيقى ...

وقس على ذلك ألسنة لبنان وفلسطين والعراق ومصر والسودان والحجاز واليمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، واجمع هذه الألسنة بما فيها من اللغات واللهجات ، تجدها تحتاج إلى عشرة أساتذة لهم كراسي في الجامعة ، وتحتمل عشرة دبلومات ، يكتب صاحبها على بطاقته (فلان ، دبلوم اللغات العراقية) أو (دبلوم اللهجات اللبنانية) ... ودبلوم في أصول هذه اللغات

ومصادرها ، ودبلوم في نحوها وصرفها المقارن .

وعندئذ يكون شكوكو من أمراء الشعر الذين تدرس آثارهم في الجامعة، واسماعيل ياسين من أمراء النثر ، ويكون من تعبيرات النقد الجديد ، أن نقول للكاتب المعقد الذى لايفهم « إنه يكتب بالعربي » كما يقال في أوربة عن الكاتب الفرنسي المحدث إذا أغرب وعقّد ، أنه يكتب باللاتيني .

وعندئذ ينشأ في كل لسان ، تراجمة يترجمون إليه الآثار العربية لتحفظ في المدارس ، ويربَى بها النشء على البلاغة كما ترجمت إلى الفرنسية آثار دانتي وفرجيل ، فنحفظ الطلاب في دمشق قول المتنبي ، مترجماً هكذا :

على أدّ أهل العَزْم بتجي العزايمْ　　وبِتْجي على أدّ الكرامْ المكارمْ

وقول شوقي في الأزهر ، يصير :

أوم بتمّ الدنْيِه وسلّم عَ الأزهر　　ورشّ على ادْن الزمان الجُوهر[1]

بدلا من :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم　　وتأتي على قدر الكرام المكارم

و :

قم في فم الدنيا وحيّ الازهرا　　وانثر على سمع الزمان الجوهرا

ولا شك أن هذه الترجمة (أجدر أن تسترق القلوب) – كما قال الاستاذ أبو حديد بك في تقريره .

وعندئذ تطبع الرسالة أربعة آلاف فقط ، وأخبار اليوم عشرة آلاف ، وينشأ في كل بلدة جريدة صغيرة تنطق بلسان أهلها ، ولا يبعد أن تشتد الحماسة لهذه اللغات كما اشتدت بتركيا الجديدة الحماسة للسانها ، فيؤذن بها على المنائر ،

---

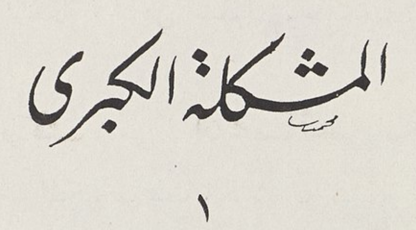
(١) هذا ... فإذا أخذ بالاقتراح الثاني ، وكتبناها بالحروف اللاتينية ؟

ويخطب بها على المنابر ، ويترجم القرآن إلى كل واحدة منها .

وعندئذ لا تستطيع الدول العربية أن تجتمع في جامعة ، ولا أن تتحد في شعور ، ولا أن تسوق جيوشها إلى فلسطين موحدة القيادة ،لان الصلة الوحيدة بينها هي هذه العربية ، فإن انقطعت لم يصل بينهـا شيء ، ولا الدين ، لانها إن ذهبت العربية ذهب معها القرآن فلم يبق دين .

وبعد فلن يكون شيء من هذا . ولو قال به المجمع (ولن يفعل) لما سمع منه أحد ، لمكان القرآن من هـذه العربية ، ولان الله تكفل بحفظ القرآن ، ولكنا أردنا أن نسلّي القراء في أيام العيد التي لا عمل فيهـا يشغلهم كما أراد الاستاذ أبو حديد أن يسلّي أعضاء المجتمع ، الذين جعل الله أيامهم كلها ... أعيـاداً ...

* * *



١

نشرت سنة ١٩٣٨

صورة المشكلة

آلاف مؤلفة من الشبان يبيتون مسهدين ينتظرون أزواجهم اللائي خلقهن الله لهم ، وآلاف مؤلفة من الشابات يبتن الليـل مؤرقات ينتظرن أزواجهن الذين برأهم الله لهن والذراري تطل من شرفة الغيب ترقب تعارف أبويهـا ، لتأخذباذن الله ، طريقها الى عالم الوجود ، فيكون منهاعباد لله صالحون ،وجنود للوطن مخلصون ، وانصار للحق ثابتون

ثم اذا قدر الله وكان زواج ، كان الزواج (أكثر ما يكون) همّاً ونكداً وخلافاً مستمراً ، وآض البيت من بعده جحيماً محرقاً ، وسجناً مظلماً ، ونشأ الأولاد على غير تهذيب ، ومن غير دين ولا أخلاق ...

هذه هي صورة المشكلة : انتظار أليم يسلم الى الجنون أو الى الفسـوق أو الى اليأس ، ونقص في الأولاد ، وضعف في الأمة ، وخراب للبيوت ،وضياع للأسر ، وفقد للسعادة ...

سبيل العلاج

هذه هي صورة المشكلة ، فما هي أسبابها ؟ وما نتائجها ؟ وما علاجها ؟ بل وما نفع الكتابة فيها ؟

لقد كُتب فيها وكُتب (حتى لو أن محصياً أحصى المكتوب فيها لجاء معه كتاب ضخم) فلم يُغن المكتوب شيئاً ، ذلك أن المشكلة تحتاج الى حل عملي يقوم به الآباء ، لا الى نظريات وفلسفات يدلى بها الكتاب والأدباء ، من أجل ذلك نحوت في هذا البحث نحو العمل فلم أتعمق ولم أتفلسف ! ومن أجل ذلك ضربت من الواقع امثلة ، وأخذت من الحياة شواهد وصوراً ... على أنها لا تغنى المباحث ، ولا تجدي الشواهد ولا الصور ، ولا المقترحات ولا الآراء مالم يحققها عقلاء الآباء ، أو من لهم في الامة أمر أو نهى ، من أرباب الحكم واصحاب السلطان !

موانع الزواج

لو سألت اكثر العزّاب من الشبان : « ما منعكم من الزواج ؟ » لكان جواب الاكثرين إن لم أقل جوابهم أجمعين : « المهر ، وما يتصل بالمهر من تكاليف وبلايا » ، ولست أذهب بالقارىء الى بعيد ، بل أضرب له المثل من نفسي ...

أنا أريد الزواج ، وأنا امرؤ في رأسه اشياء وليس في كيسه شيء ... أما الذي في رأسي ، فقد أفنيت في تحصيله شبابي ، وبيضت في طلبه لياليّ وسوّدت نُهُري ، وخدعني عن حقيقته معلميّ فحسبته أثمن شيء في الوجود ، وصدقت أن العلم خير من المال ... فرأيت من بعد أن المال خير من كل شيء ... وأما

كيسي فما فيه وفر ، ولكن فيه مرتبا يكفيني ويكفي بحمد الله اربع زوجات معي ، لو أن الزوجة بقيت الى اليوم شريكة الحيـاة وربة البيت ، تطلب حياة هنيئة وزوجاً صالحاً ، بيد ان هذا كله قد ذهب ... وصارت الزوجـة (يا أسفى !) متاعاً يشرى ، ولا بد للمتاع من ثمن ، فاذا أخذ الاب الثمن لم يبال بعده شيئاً ، ومتى كان يبالي التاجر اذا استوفى الثمن بأخلاق الشاري أو سيرته في أهله ؟ وثمن الزوجة (أقل ما يكون) خمسون أو مائة (ليرة)ذهبية فتصور يا صديقي القارىء متى تجتمع لرجل مثلي مكساب متلاف لا يستطيـع ان يمسك شيئاً ، أو لا يفضل عن نفقته شيء ؟ وليست هذه المصيبة كلها . إن بعدها نفقات العقد (الكتاب) وقبل العقد خاتم الخطبة ، وما يكون إلا من الذهب ، و (الشبكة) وما يصلح لها الا حلية لها قيمة ... وبعد العقد الهدايا واللُّطَف يحملها الى دار (الزوجة العتيدة) كلما زارها ، ولا بد له من أن يزورها ؛ ثم تأتي بلايا العرس ، وما أدراك ما بلايا العرس : كسـوة أهله وأقربائه ممن تجب عليه نفقتهم (و كسوة النساء) أقبح التبذير ، لانهن يشترين قماشاً لا يدفىء ولا يستر ، ويدفعن ثمنه غالياً ، ثم اذا مرت شهور بطل طرازه (موضته) فأصبح لا يصلح لشيء ... وبعد الكسوة نفقات حفلة الزفاف . ثم اذا دخل على زوجته ، وانفرد بها ، لا تكلمه حتى يدفـع اليها (ثمن شعرها) وهي جملة من المال لا تقل عن (بضع ليرات ذهبية) ولا حـد لزيادتها ، وما أدرى والله كيف تتنزل الفتاة للمقص عن شعرها يجزّه ويلقيه على الارض ، ثم تطلب (ثمنه) من زوجها ؟

ثم إذا أصبح اعطـاها (وجوباً) عطيـــة اكبر من (ثمن الشعر) هي (الصُّبْحة) ، فاذا زال النهار أهدى اليها هدية ، لا بدّ أن يكون فيها إزار للحمام ثمين وقد يكون منسوجاً بخيوط الفضة ، ومناديل (مناشف) الخ ...

ثم تأتي نفقات (السبعة الأيام) يقيم فيها الاقارب والاهلون في داره ، تولم لهم كل يوم الولائم ، ويُطرفون بأنواع الطرف ، فاذا انتهت دعوا جميعاً الى الحمام وقد قلّ ذلك في هذه الايام منذ كثرت الحمامات في الدور ، وأهملت الحمامات العامة أو كادت ، ثم يدعو أهلها (أي أهل الزوجة) جميعاً وأهله الى وليمة كبيرة تسمى (التعريفة) يعرّف فيها بعضهم ببعض - وقد يبلغ المدعوون اليها المئات في بعض الاسر الكبيرة ...

فأنى لمثلي الطاقة على هذه المصروفات التي تخرب بيوت الاغنياء ؟ وإني لأعرف قاضياً شرعياً زوّج ابنه ، فتكاثرت عليه النفقات ، فلم يقدر عليها حتى باع بيته - لينفق ثمنه في ليالي العرس ! هذا أول موانع الزواج وأظهرها ..

الحجاب

وهب أني قد وقعت على كنز ، أو اصبت إرثاً فأصبحت غنياً وتوفر لي ما أبتغي من المال فكيف أختار زوجتي ؟ أما الحاسرات المتبرجات اللائي يعرف الرجال كلهن : صدورهن ونحورهن وأيديهن وسوقهنّ ، فأنا (بحمد الله) أعقل من أن أتخذ زوجة منهن ، ولو كانت ابنة ماء السماء ، وأعلم العلماء ، وما احسب ذا دين ومروءة ، يرضى أن يتزوج بمن رضيت لنفسها إهمال الدين وإسقاط المروءة ، بتعرّضها في زينتها وفتنتها للرجال ، تستهويهم وتأخذ بأيديهم الى النار ... بقى عليّ المتحجبة من بنات الأسر ، وهي التي لا سبيل الى رؤيتها الا ليلة الزفاف ، بعد أن يكون الغلُّ قد استدار حول عنقي ، والقيد قد أحكم إقفاله على يدي ورجلي ، ولم يبق لي الا أن أقبل بها ولو كان لها وجه قرد وأخلاق الشيطان !

أفهذا من المعقول ؟

يريد المرء سفراً ، فيتحرى عن أخلاق رفيقه أياماً ، ليعلم أيوافقه أم يخالفه ويبتغي أجيراً فيراه ويبحث عن اصله وفصله ، ويجرّبه أياماً ؛ ويعزم على أن يتزوج ، فلا يرى رفيقة حياته ومهوى قلبه ، وموضع حبه ، الا بعد أن يتمّ كل شيء ؟

مع أن الشرع أباح له أن يراها ويجالسها [1] ... ومع أنها تخرج الى السوق فيراها (على خلاف الشرع) البائع ومن كان عنده ، ويقدّم اليها القهوة ويحادثها ويراها عمال السينما ، ويراها ... ويراها ... فما الذي حاق بالآباء حتى هان عليهم كل محرّم ، وصعب عليهم ما أحلّ الله ؟

هذا هو المانع الثاني من موانع الزواج ، بل إن هذا الوضع هو الذي سبب ما نرى من تبرج النساء وحسورهن ، وعريهن على السواحل ... ولا علاج له الا بحجاب شامل (وذلك مالا يستطاع) أو بسفور شرعي ، كالذي سماه صديقي الاستاذ عز الدين التنوخي بسفور الراهبات ، وذكر أن الحشويين الجامدين ، يقابلون من يفتى به بالسباب والشتائم ، وذلك هو الواقع ، فان هؤلاء قائمون بالمرصاد لكل من يعرض رأيا في إصلاح حال المرأة الذي كاد يصل الى حدّ العري المطلق بل لقد بلغه فعلا ... ولكنهم لا يأتون بأي رأي من عند انفسهم ، ولا يهتمون بما يرون ، فهم هادمون ولا يبنون ، وهم مفسدون لعمل كل مصلح ولا يصلحون ... ولله الحمد على أن ضعفت مُنّتهم ، وخفتت اصواتهم ، وبادت جماعتهم ، ونسأل الله أن يبدلنا بهم علماء يفهمون روح الاسلام ويعرفون حقائقه ، ويفهمون روح العصر ويعرفون حاجات أهله

الخلاف العائلي

فاذا يسر الله لامرىء سبيل الزواج ، والنجاه من هذه الموانع ، عرضت له

---

(١) أي يراها غير حاسرة ويجالسها غير منفرد بها .

مشاكل ، ورأى من المتاعب ما يندم معه على ما أتى ، ولو ذهبت تتقصى أحوال المتزوجين ودخائلهم في بيوتهم لوجدت أكثرهم متألماً شقياً ، ولهذا الألم أسباب يمكن تلافيها لو فكر فيها الزوج ، وعزم على التلافي .

أول أسباب الخلاف

أعرف أخوين : أما احدهما فشيخ محافظ توفى رحمه الله من سنين طويلة ، وأما الثاني فأديب موسيقي على الطراز الجديد . تزوج الأول ، ولبث مع زوجه ستة عشر عاماً حتى توفى عنها ولم يكلمها على مسمع أهله كلمة ، وإنما كان يوجه الكلام الى أخته سائلا حاجته ، أو يأمر أخته أن تقول لها ما يريد ، وألفت ذلك منه ورضيت به أو صبرت عليه . وكانت تخشاه كخشيتها الله أو هي أشد له خشية .. وأما الثاني .. لا . بل إن اكثر من عرفنا من الأزواج (المجددين) تتحكم بهم نساؤهم ، فيأمرنهم وينهينهم ، ويشتمنهم وقد يضربنهم ! وهم يخافونهن ولا يجرؤون عليهن ..

أي أن الأزواج بين رجلين ، رجل أعمل سلطته ، وأسقط عاطفته ، فكان في بيته سيداً ، ولكنه لم يذق طعم الحب ، ولا عرف السعادة الزوجيـــة ، ورجل تبع عاطفته فأرضاها ، وأهمل سلطته فأضاعها ، فعاش في داره عبداً ، وتفصيل ذلك أن الزوج هو الذي يحكم على نفسه ، ويختار طريقـه ، فاذا دلل زوجه في الايام الاولى ، ومثل لها (دور العاشق في الروايات الخيالية) ، ومنحها قياده ، وأراها أنها حياته ، وأنها الآمرة الناهية عليه ، وتذلل لها وخضــع (ولذة الحب في التذلل والخضوع) ألفت ذلك منه ، وتعودته .. فاذا طارت من رأسه سكرة الحب ، وأحب أن يحكم في الدار ، كما يحكم رب الدار ، وجد الأمر قد أفلت من يده ، فيبدأ الخلاف ، ثم لا ينتهي أبداً . وإذا هو ضبط

نفسه في الايام الاولى ، ولم يعط الا بمقدار واستعمل عقله وسلطانه ، ألفت منه الزوجة ذلك ، فوجدت كل عطف منه بعد ذلك غنماً كبيراً ..

فالزوج العاقل الحازم من لم تلهه حلاوة العسل التي تدوم له شهراً ، عن مرارة العلقم التي ستبقى دهراً طويلاً . ومن لم تشغله اللذة الجسمية العاجلة ، عن السعادة الروحية الآجلة . فليتنبه لهذا الازواج ، فمن هنا منشأ الخطر ...

حقوق الزوجين

ومن أسباب النكد البيتي ، والشقاء الدائم ، الخلاف على حقوق كل واحد من الزوجين ، فمن الرجال من يأخذ اكثر من حقه ، ومن النساء من تقيم نفسها مقام الرجل ، وتفرض عليه سلطانها ، حتى إن الرعناء لتسأله : أين كنت ؟ ومن كلمت ؟ بل إن من النساء الحمقاوات المتحذلقات ممن يحسبن أنهن متعلمات من تحاسب زوجها على زيارته أهله ، وصلته رحمه ، وتغار عليه إذا كلم عمته أو زارها .. حتى أصبح الامر فوضى لا ناظم له وظلمة لا نور فيها : مع أن الشرع الاسلامي (الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا بين وجه الحق فيها) قد حدد حقوق الزوجين ، فجعل «من حقوق الزوج على زوجته أن تطيعه فيما لا معصية فيه ، وأن تصون عفافها ، وألا تخرج إلا باذن منه أو لضرورة ، وان تحرص على إدخال السرور عليه ، وألا تكلفه مالا يطيق ولا تطالبه بالزائد من حاجة نفسها ، وان تبذل جهدها في أداء واجباتها الدينية ، وأن تعطيه زمام الرياسة المنزلية . ومن حقها عليه أداء مهرها كاملا اليها والانفاق عليها بالمعروف وأن يجتهد في تعليمها واجباتها الدينية وأن يكتم سرها ولا يتحدث به وحسن خلقه معها واحتمال بعض الأذى منها وممازحتها ومداعبتها »[1] أي أن للرجل

---

(١) حقوق الزوجين للاستاذ الشيخ محمود ياسين .

على الجملة رياسة المنزل (حين لم يكن بد لكل شركة أو جماعة من رئيس) وله السيادة فيه ، وحفظ كرامته ، وإدارة شؤونه الخارجية والاشراف على أموره كلها ، وله الحكم في كسوة المرأة وخروجها ، وله تأديبها بالعدل ، ومن غير أن يخرج على ما أحل الله وذكر في كتابه ، وللمرأة حق التصرف بأموالها ، وإدارة شؤون المنزل الداخلية ، والنفقة عليها وضمان حاجاتها اللازمة ؛ ولها عليه ان يحرص على سعادتها وسرورها ، ويعاملها بالخلق الحسن ، والقول اللين ، ويتغاضى عن خطيئاتها ما أمكن التغاضي ، ويعلم أنها شريكة حياته ، وأدنى الناس اليه فلا يستأثر دونها بطعام او شراب ، ولا يدعها في المنزل وحيدة متألمة ويسهر في المقاهي والملاهي ، ولا يقدم نفسه عليها في كسوة أو متعة من متع العيش .

المشاكلة بين الزوجين

وإن من اظهر الخلاف بين الزوجين ، ألا يكون بينهما مشاكلة ومماثلة ، كأن يكون فقيراً وتكون هي غنية ، فتعيره بفقره ، وتترفع عليه بمالها ، أو ان يكون من رجال الاعمال ، وتكون متعلمة ، على أن المتعلمة العالمة حقاً لا ينتظر منها الا كل خير ، ولكن البلاء في هؤلاء اللائي يحسبن أنفسهن متعلمات لانهن كن قبل الزواج معلمات في مدرسة أو مديرات ، وإن كن لا يفتحن في السنة كتاباً ، ولا يفهمن شيئاً ، ولا يعرفن الا تنكيد حياة الزوج ، وإضاعة ماله في الولائم والاستقبالات ، والكسوة والزينة ، هؤلاء هن البلاء الازرق، وخير منهن الامية الجاهلة . ومن اشنع اشكال الاختلاف بين الزوجين حال من يتزوجون بالاجنبيات ، فيرون منهن (على الغالب) ما يتمنون معه الموت الاحمر . وإني لأعرف من الناس رجلا درس في فرنسا وجاء معه بفتاة

زعم أنها من اكرم الاسر الفرنسية واعرقها ، فتزوج بها ، فكان من أيسر ما تصنع انها تذهب الى السينما فترى الضباط الفرنسيين فتحن اليهم بصلة الدم فتكلمهم وتصادقهم ثم تدعوهم الى دارها فلا يروع صاحبنا الا الضباط قد ملأوا بيته . ثم انتهى امرها بالفرار مع واحد منهم !

ومن العجب ان دماغين كبيرين تواردت خواطرهما على مسألة واحدة ، وبينهما الدهر الاطول ، وبينهما مابين المشرق والمغرب فوقعا فيها على الصواب الذي نعرفه ولا نريد ان نتبعه :

لما كانت القادسية ، ولم يجد الناس نساء مسلمات ، تزوجوا نساء اهل الكتاب فلما كثر المسلمات بعث عمر بن الخطاب الى حذيفة بن اليمان بعد ما ولاه المدائن « بلغني انك تزوجت امرأة من أهل الكتاب فطلقها » فكتب اليه : « لا افعل حتى تخبرني أحلال أم حرام ، وما أردت بذلك ؟ »

فكتب اليه عمر : « لا ، بل حلال ، ولكن في نساء الاعاجم خلابة ، وإن اقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » .

فقال حذيفة : الآن ! وطلقها .

هذا حكم الرجل العظيم ، عمر ، وقد حكم به في المدينة منذ الف وثلاثمائة سنة .

وأما الثاني فحكم موسوليني ، حكم به المؤتمر الفاشي في روما في هذا الاسبوع حين كان من مقرراته منع الايطاليين من الزواج بالاجنبيات

فمن لم يعظه قول عمر ، فليعظه حكم موسوليني !

المشكلة الكبرى

٢

سقت اليك في الفصل الماضي طرفاً من حديث المشكلة ، وانتهيت بك الى الكلام على المشاكلة بين الزوجين ، وأنها ركن كبير من اركان السعادة الزوجية ، فاذا لم تكن مشاكلة ، وكان بينهما اختلاف في الغني او العلم او الجاه كانت الحياة الزوجية موتاً بطيئاً . على أنه لا بأس أن يكون الزوج هو الأعلى في جاهه او ماله او علمه ، ولكن البأس كل البأس حين يكون الأدنى لأن الغنى والعلم والجاه من وسائل السلطان ، فاذا كان ذلك للمرأة زاحمت الرجل على سلطانه ، ونازعته رياسته ففسد الأمر ، واضطرب حبل الودّ . وأحسب أن مبدأ الكفاءة في الزواج (في الفقه الاسلامي) هو الدواء لهذا الداء

وأنا متحدث اليك في هذا الفصل عن سائر أسباب الخلاف بين الزوجين ، ولست أزعم أني متقصيها كلها أو محيط بها ، فذلك مالا اقدر عليه ، ولكني ذاكر منها ما انتهى اليّ خبره .

موقف أهله وأهلها

فمن ذلك موقف اهله واهلها ، فانه من اظهر اسباب الخلاف بين الزوجين

واكثرها انتشاراً بين ظهرانينا ، حتى إنه ليبلغ منا العجب حين نسمع أن داراً تجمع بين الكَنَّة والحماة ، ولا تجمع اليها النكد والشقاق والبـلاء تصبّه على الزوج صباً ... فلا يكاد يروح الى داره ليجد فيها الراحة بعد تعب النهـار ، والهدوء بعد الكدح المضنى ، والكدّ المميت ، حتى تستقبله المعارك والشكايات والدسائس ، وما اكثر القراء به عالمون ... فيحار في أمره : لا يدري أيسوء أمه وهي التي حملته جنيناً ، وربّته صغيراً ، وأحبّته وجعلته أملها في حياتها ، أم يسوء زوجه وهي التي هجرت أهلها وفارقت عشها لتجعله أهلها من دون اهلها وامنها ومفزعها ، ثم إنها قد تكون بريئة لا ذنب لها ويجد أن أمّه لاترضى عنه حتى يفارق زوجه ، وييتّم أولاده ، وزوجه لا ترضى عنه حتى يطرد أمه ويعصى ربّه ، وهما خُطّتان أهونها اصعب الصعاب ، وخيرهما من شرّ الامور وليس الى إقناع إحداهما من سبيل ، لأن للمرأة منطقاً خاصاً ، يجعل بينها وبين الرجل هوة لا يلتقيان معها أبداً ، ويدع الرجل وإقناع الف رجل اسهل عليه من إقناع امرأة واحدة ...

والخلاف بينهما باق لا يزول ، معروف لايتبدل . فالأم ترى أنها هي سيدة الدار لأنها الكبرى ، ولأنهـا الاصل ، وأن على الكنة التي أحضرتها بيـدها واختارتها برأيها ، ان تطيعها ، وتعمل بإشارتها ؛ والزوجة ترى ان الام عجوز قد مضى زمانها ، وذهبت ايامها ، واصبحت كالموظف المتقاعد ، له مرتب وليس له أمر ولا نهى ، وانها هي السيدة في الدار ، وان لها الرأي في إدارتهـا .. ثم إنهما تختلفان على قلب الرجل ، فالام التي عرفته وليداً ، وربته طفلا ويافعاً ، وكان لها وحدها ، لا تطيق أن تراه وقد صار لغيرها ، ولا تقدر أن تبصر نفسها فريدة في غرف الدار ، كأنما لم يكن لها ولد لان ولدها خال بزوجته ... والزوجة التي أعطت زوجها قلبها كله وحبها وحياتها ، ولم تجعل له شريكاً فيها ، لا تستطيع

احتمال هذه الشركة بينها وبين هذه العجوز ، ولا يقنعها الا أن يكون الزوج خالصاً لها ...

وما يقال في الأم يقال مثله مع الأخت ، بل إن الأخت إذا كانت عانساً لم تتزوج ، واذا كانت على بقية من شباب ، تكون أشد على الرجل من أمه ، لأنها أقل منها حباً له وحناناً عليه ، وأكثر منها غيرة لمكان الصبوة من نفسها ، ولأنها ترى امرأة غريبة تستمتع بالزواج الذي حرمت هي منه ، ويكون هذا الزوج أخاها ، غلبتها هذه الغريبة عليه ، وحرمتها عطفه وحبه ، فيكون حرمانها مضاعفاً ...

هذا وليس ينفرد أهل الزوج بادخال الألم عليه ، وتنغيص حياته الزوجية بل يشارك في ذلك أهل الزوجة ، يكرهون فتاتهم على الزواج بمن لا تريده ، لعلو سنه عن سنها ، أو قبحه وجمالها ، فلا يحفلون إرادتها ولا يبالونها لأنهم يرونه غنياً ، فهم يبيعونها منه بيعاً ، أو صاحب جاه فهم يجعلونها وسيلة الى الانتفاع بجاهه ، بل ربما زوجوا الفتاة بنت خمس عشرة ، بالشيخ أبي الستين ، ولم يستأمروها ولم يروا رأيها ، وربما زوجوها من الرجل القبيح . ولقد قال عمر (الرجل الملهم) فيما احفظ من قوله: (لا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يحببن ما تحبون) ... فتدخل الزوجة دار زوجها وهي له كارهة ، فلا يأتي منها الا مساءته وإتعابه ، إن لم يسقها صباها وعجزه الى أن تتصل بغيره من الفتيان .

هذا طريق ، ولأهل الزوجة طريق آخر الى إفساد الحياة الزوجية ، هو التقصير في تربية فتاتهم أولاً ، وعجزهم عن ضبطها وتأديبها ثانياً . فاذا كانت الزوجة سيئة الخلق رعناء ، فانها تدع دار زوجها لأتفه الاسباب ، وتذهب مغاضبة تشكو الى أهلها وتستعديهم ،فاذا كان أهلها عقلاء ردوها اليه ، واصلحوا

ذات بينهما ، ولاموها على خلوة بها ، كما يلومونه على خلوة به ، فيؤلف الله بهم بين القلبين ، وتعلم الزوجة أنه لا ملجأ لها الا دار زوجها ، ولا منجى لها الا حسن خلقها فترضى وتستقيم ، وأما اذا كان اهلها جاهلين يغضبون لها غضبة الجاهلية فيعينونها على طلاقها ويزيدون في عنادها فيخربون بيوتهم بأيديهم ، ويسوقون الشقاء الى فتاتهم ، ويكونون شراً عليها وعلى زوجها ووبالاً ...

ودواء هذا الداء أن يبحث الرجل عن اخلاق الاسرة ، وأسلوبها في تربية بناتها ، وحال أمها مع زوجها ومبلغ طاعتها له ورضاه عنها ، قبل الاقدام على الزواج ، فاذا اطمأن الى ذلك وصاهر عاقلا حازما ، وكان الزواج برأي الفتاة ورضاها ، من غير احتيال عليها ولا إكراه لها ، فقد أمن جانب اهلها ، وبقي عليه جانب أهله ... والمصيبة بهم أشد ... والعلاج أن يتفرد عنهم بزوجته. فاذا لم يستطع ذلك ، فعليه بالحزم في الايام الاولى ، وأن يعرف لأمه حقها ، فان زوجه تطيعه وتتخرج به وتتربى على ما يربّيها عليه ، أما أمه فلا سلطان له عليها ... وعليه بعد ذلك أن يرضي زوجته فيما بينه وبينها ، ويعوضها بما فقدت من السيطرة في الدار ، بما يدخل السرور على قلبها ويملؤه رضى وأملا والسبل الى ذلك شتى .

المشاكل المالية .

أولها هذا (الجهاز) فكم ثار من أجله من خلاف ، وكم هد من أسر ، وكم أصاب من بلايا ... يتنافس القوم من أجله في إغلاء المهور حتى تبلغ المئات من الجنيهات ، فتبور سوق الزواج ، وتكسد البنات ، ثم اذا كتب الله على الزوج أن يدفع هذا المهر الفاحش ، لم يكن دفعه غنما للأب ولا لفتاته ، لان عليه أن يدفع مثل ما دفع الزوج أو قريباً منه ، ثم يشتري بذلك كله أثاثاومتاعا

وما شئت من الخُرْثي [1] الذي لا ينفع في دنيا ولا آخرة ، فمن خزانة محفورة منزّل فيها أدق الاصداف ثمنها سبعون جنيها ، ومن مقاعد وأرائك على نحوها ثمنها مائتان لكنها لا تقيم على الاستعمال عاماً واحداً ، ومن ستائر للنوافذ ثمن إحداهنّ عشرة جنيهات ؛ ومن أوان فضية وقوارير (كولونية) تصف على المناضد صفا ، كصف الجند ثم لا تفتح أبداً ، والمناضد (نسيت المناضد) وثمن إحداهنّ عشرات الجنيهات ، وغير ذلك مما لا أعرفه ولا أذكر اسمه وإن كنت قد رأيته في دور الحمقى والمغفلين ...

ولقد عرفت شابا مستور الحال أراد الزواج فطلبوا منه أربعمائة دينار ذهبي ، فباع داراً كانت لابيه ، وأعدّ المهر ، فسلمه الى أم الزوجة ، وضمت اليه أمها ثلاثمائة من عندها لتشتري بها جميعا (جهازاً) لابنتها ، فلما بلغه ذلك طار عقله وذهب يقنع أم الفتاة أن تشتري لها بذلك داراً (عمارة) يكون لها ملكها وريعها وتبقى على الدهر فقبلت ومرت أيام فبلغه أنها قد عدلت عن ذلك وأنفقت المال كله في الجهاز ... فسألها عن السبب فاذا السبب أن البنت بكت وقالت : هل أنا دون ابنة فلان ، وقد جهزوها بكذا ..؟؟ قالت الام : « فقطع قلبي بكاؤها ، فلم يسعني إلا أن افعل ما تريد ... »

وتم العقد واستأجر الزوج داراً فخمة (على نسبة الجهاز) فلم تمض الا شهور حتى ركبه الدين ، فاضطر الى استئجار دار تليق به ، ويحتملها مرتبه ، فلم يلق فيها مكاناً لهذا (الجهاز) فذهبوا يبيعونه ؛ فلم يأتهم بأكثر من مائة وعشرين ، وقد كان ثمنه سبعمائة ...

ومن مشاكل الجهاز أن الزوجة تجده رأس مالها ، وقنيتها في حياتها ، فتحافظ عليه محافظتها على روحها ، وتكره أن يدعى الى الجلوس على مقاعده

---

(١) الخرثي : المتاع الذي لا فائدة فيه .

ضيوف زوجها ، او ان يدخل غرفته زوار أهله ، وقد لا يكون في الدار غرفة للاستقبال سواها ، لأن الناس يجعلونها أبداً للاستقبال . فتبدأ المشاكل ... وقد تنتهي بالطلاق ... رأينا ذلك مراراً .

وعندي ان الدواء إبطال الجهاز بالمرة ، وان يفرش الرجل داره كما يريد ويستطيع [١] ، ويُشترى بالمهر القليل الذي يدفعه الزوج عقار تملكه الزوجة ويسجل باسمها ، او حلية ذهب تبقى لها محتفظة بثمنها .

* * *

والمشكلة المالية الاخرى نفقات المرأة وكسوتها . أقص عليك قصة امرأة واحدة . فيها وصف لنساء كثيرات ، تلك هي امرأة موظف كبير مرتبه ثلاثمائة ليرة سورية ، وهو مبلغ في دمشق ضخم [٢] ، تخرج من دارها كل يوم في عربة او سيارة لا تستطيع لثقلها ان تمشي ، فتطوف على بيوت الناس ، فأصبحت تعرف عشرات من الأسر الغنية المبذرة . فلا يمر اسبوع لا تدعى فيه الى عرس او حفلة الا كلفت زوجها كسوة جديدة . لأن من العار عليها ان ترى بثياب قد سبق فرئيت فيها من قبل . فتشتري الازار والرداء (او مايقابله في الاصطلاح النسائي فما اعرف ماذا أقول ...) والحذاء والجوارب ، ويتراوح ثمن ذلك (كما حدثني المسكين وحلف لي) ما بين ستين وتسعين ليرة سورية فلا يقوم مرتبه كله بكسوتها ، فيستدين ليتم لها ما تريد وينفق على نفسه وأولاده حتى هدّه الدين واصبح مضطراً الى بيع أملاكه المرهونة ...

ومن النساء من لا تبلغ في الاسراف هذا المبلغ ، فتكتفي بنصفه او ثلثه

---

(١) قلت هذا وأنا شاب عزب وأنا معلم وهاأنذا بعد عشرين سنة في القضاء وبعد أن صرت زوجاً وأبا وجداً لا أزال أقول به .

(٢) نشرت هذه المقالة من اكثر من عشرين سنة .

ولكن مرتب الموظف المتوسط نصف مرتب صاحبنا او ثلثه ، فتبقي النسبة على حالها ؛ اما الموظفون الصغار كالمدرسين الذين يأخذون خمسين ورقة في الشهر وأربعين وثلاثين والصناع وصغار التجار ، فتصور أنت موقفهم من نسائهم ، فما يبلغ القول تقرير الحقيقة ووصف الواقع .

ولست أزعم ان النساء كلهن عمياوات لا يبصرن حالة أزواجهن ، وان قلوبهن قد قدت من حجر فلا تشفق ولا تحزن ، بل إن في النساء عاطفة وحساً ولكنهن يألفن حالة ، فلا يطقن ان يراهن احد على حالة دونها ، ويستحيين من صاحباتهن ورفيقاتهن ... ووراء هذه المشكلة الحزم في الايام الأولى من الزواج (وهو رأس الادوية كلها) وتقليل الاختلاط ، والاقتصاد في زيارة الناس ومصاحبتهم ، وليس من بأس بعد ذلك ان يخصص الزوج لزوجته مبلغاً من المال لكسوتها يدفعها اليها مشاهرة ، ويدعها تفعل فيه ما تشاء ، على ان تقنع به ، ولا تسأله من بعده درهماً واحداً لكسوة او ثياب . ولقد جرب هذه الطريقة كثير من الرجال فوجدها صالحة مؤدية الى الراحة والاطمئنان

مشاكل أخرى

إن من طبيعة المرحلة التي تجتازها اليوم أمم هذا الشرق الاسلامي : مرحلة الانتقال ، أنه يلتقى فيها عصران ، ولكنها لا يأتلفان فيتحدان ، ولا يختلفان فيتباينان ، فينشأ عن ذلك هذا الازدواج في الحياة ، فيعيش قوم في عصر مضى وقوم في عصر لم يأت ، فكيف يلتقى الزوجان وبينها عصر مديد ... هو يعيش محافظاً ، وهي تريد التجرد مما يحافظ عليه ، وهو متدين وهي رقيقة الدين ! إن كل شيء يحتمل : ضياع المال والتعب والشقاء ، ويجد الانسان عزاءه عنه في انتظار ثواب الله ، في الآخرة ، يجد عزاءه في الدين ، فاذا ضاع الدين فأين يجد

العوض منه والعزاء فيه ؟

لذلك كان أول ما يجب على الزوج أن يفكر فيه ، هو أن يختار زوجه من طبقته ورأيه ، محافظة او تجديداً ، والا كان الزواج شراً كله .

هذا اصل يتفرع عنه فروع كثيرة ، أولها : تأدية حق الله في العبادة ، والمحافظة على الصلوات ، والرجوع الى احكام الدين فيما يختلف فيه من أمور الحياة ، الى غير ذلك مما يراه المسلم رأس الأمر وملاكه ويسميه المجددون (المتجردون) رجعية وجموداً .

وثانيها : خروج المرأة من دارها ، وحالها عند الخروج وزيها وزينتها ، وتبرجها في الاسواق وتيممها السينمات ودور اللهو ، وعرض مفاتنها على الرجال وما الى ذلك مما يسميه المسلم وقاحة ورذيلة وقلة حياء ... ويدعوه المتجردون مدنية وتقدماً ...

وثالثها : الاتصال بالناس ، وتخصيص الايام الكثيرة لاستقبالهم ، وإضاعة الاموال في إكرامهم وتعطيل اعمال الدار وتربية الأولاد في سبيلهم وما يجره هذا الاختلاط الشديد الذي ينفر منه العقلاء ، ويرونه فساداً لا خير فيه ، وبابا لا يلج منه الا كل ضرر ، لأن النساء لا يقبسن من النساء الا السيء المكروه ، ويراه اهل التجديد واجباً لا بد منه ، وفرضاً لا تكون المرأة متمدنة محترمة ... الا به !

ورابعها : اتباع (الموضة) والايمان بها إيماناً لا شك فيه ، والخضوع لها خضوعاً أعمى ، والتعامي عما تجر على الأسرة والامة من ضرر . وهذه ثمرة من ثمرات الاختلاط المرة ، يراها العقلاء سخافة وحماقة ، ويعدها أهل التجرد والتجدد من فروض العين !

* * *

ومن هذه المشاكل الفرعية الخلاف على تربية الأولاد حين تحكم المرأة عاطفتها فتأبى على الأب أن يؤدب ابنه أو يأخذه بالحزم ، وهذا فضول من المرأة لا معنى له .

على أنها قد تثور الثائرة بين الزوجين لغير ما سبب واضح ، كأن يكون الزوج متألماً في نهاره أو مصاباً بمصيبة لا يحب ان يسوء بها أهله ، فيدخل مقطباً من حيث لا يشعر فتحسب الزوجة أن ذلك موجه اليها ، فتغضب وتعرض ، فيألم الزوج في نفسه ، ويظن أنها رأته في مصيبة فأعرضت عنه بدلاً من أن تعطف عليه وتواسيه ، وينأى كل واحد منهما عن الآخر ، ويوسوس له الشيطان حتى يصبحا متنافرين حقاً ، وهذا مشهور يتكرر تمثيله دائماً ، وداء يعتاد الازواج في كل حين ودواؤه الناجع كلمة يقولها أحدهما يشرح بها حاله ، وقهر لهذه الكبرياء الخبيثة التي تمنعه من هذه الكلمة .

كلمة الختام

وبعد فهذا كله سهل يتداوى منه بشيء من الحكمة والحزم فما دواء حماقة الآباء في إغلائهم المهور ، وتمسكهم بهذه العادات الباطلة ، حتى أدى ذلك الى « أزمة الزواج » التي اشتدت وعمّت ؟

ومتى نجد الأب الذي يملك في نفسه من الجرأة ، وفي رأسه من العقل ، وفي صدره من الدّين ، ما يكسر به هذا السدّ الذي يمنع عن الأمة كل خير وسعادة ؟

إلى علماء مصر

نشرت سنة ١٩٤٤

كنت أصفح[1] الرسالة فوقع بصري على المقالة البارعة التي كتبها الاستاذ الزيات عن شواطىء مصر وما فيها ، فقرأتها حتى بلغت قوله فيها (... جرجر البحر إحدى موجاته الضخام إلى أعلى الساحل ، فجريت الى فوق ، أتقي هذا المد المفاجىء ، فإذا بي واقف إزاء مظلة جميلة منعزلة ، قد انبطحت تحتها فتاة ناهد ، لم تقع العين منذ الصباح على أكمل منها صورة ، وكان ذعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر ، فلما وقع بصرها عليّ ، نهضت نهضة الظبي الفزع تحيي بالعربية أستاذها القديم .

– أوه ... فلانة ؟!

نعم ، ويسرني أن أراك بعد خمس سنين .

– هل أنت وحدك هنا ؟

– كلا ، بل معي أخي ... وقد أتعبه صراع الامواج الثائرة ، فذهب إلى « الكابين » .

– وكيف حال البك ؟

– الحمد لله خير حال ، وما أكثر سؤاله عنك ، وأشد شوقه إليك ، لقد

(١) اصفح : اتصفح

كان جالسا في الكازينو ، ثم انصرف إلى البيت منذ قليل .

قالت ذلك تلميذتي الأرستوقراطية المسلمة ، وهي تنصب كرسيا طويلا من القماش دعتني إلى الجلوس عليه ، ثم جلست هي على كرسي آخر ، وكانت كأمها حواء لا يستر جسمها العاري إلا « ورقتان » خصفتهما عليه من أمام ومن خلف ، فسرعان ما ذكرت ذلك المكتب الفخم الذي كانت تجلس قبالتي عليه لتستعد لامتحان البكالوريا ، وهي ملففة بثوبها الأزرق الأنيق المسبل ، وعيناها الساجيتان لا تفارقان الصحيفة حياء وخفراً ، وثغرها الحيي الدقيق لا يرسل سهل الكلام إلا في تلعثم وبطء ...)

* * *

لما بلغت في المقالة هذه الصورة ، كنت متمدداً في فراشي أهم بإدارة مفتاح النور والاستسلام للنوم ، فطار النوم من مقلتي ، وتوقدت في أعصابي نيران الغضب للفضيلة المجنيّ عليها والعرض المزدرى ، ودار في نفسي كلام ، لو أنا أطعت النفس وبعثت به للنشر لبعثت عاصفاً يعصف بهذا البك الذي ارتضى لفتاته مالا ترتضيه البهائم لإناثها من غيرتها عليها ، وهذا الشاب الذي صارع الأمواج ليثبت رجولته المزورة ، ثم انصرف إلى هذا « الكابين » الذي لا أعرف أي شيء هو ، وقد صُرع شرفه وثلم عرضه ، ولأرسلت شواظاً من نار على هذه (المجلات) المستهترة التي سخرها إبليس لهدم الأخلاق ونسف الفضائل والدعوة إلى شرع الشهوات بما تنشر من الصور العارية ، وما تحبذ من السفور والحسور والاختلاط ، وما تنال من أصحاب الشرف والفضيلة كالشيخ الجليل أبي العيون ...

... ثم رددت القلم إلى قرابه ، وأطفأت بكأس اليأس وقدة الغضب ، ورجعت على نفسي باللوم فقلت : يا نفس ويحك ! هل تظنين أنك وحدك

المحقة ، وهؤلاء الناس كلهم من المبطلين، وكلهم يخطىء وأنت تصيبين ؟ أو لاترين للناس عيوناً يبصرون بها هذا كله كما يبصره (أبو العيون) ثم يسكتون ؟ فلو كان محرماً أو ممنوعاً أكانت مصر تقرّه ؟ أو كان علماؤها يكفون عن إنكاره ؟ أوَكان كبراؤها وعظماؤها يرضونه لبناتهم وأخواتهم ؟ كُفّي يا نفس فقد مضى زمنك وغبرت أيامك ، وصرت في آرائك وأفكارك من آثار الأولين . وهل تريدين أن يعود الناس إلى عصر الجهالة والظلام يوم كان الأب ربَّ بيته ، والزوج قوّاماً على امرأته ، والمرأة لا تعرف الفسيولوجيا والجيولوجيا ، وإنما تعرف الطَّبْخَ ... لوجيا والكَنْسَ ... لوجيا ، وكان جمال المرأة لزوجها وحده قد حُرمت من عَرضه على الناس ، ومُلْكها البيت وحده لا الشارع ولا الساحل . هل تريدين أن يعود الناس إلى تلك العهود حيث القيود أنواع : فمن قيد الدين ، الى قيد الخلق ، إلى قيد الآداب ؟...

لا ، إن العصر عصر الحرية ، حرية المجنون الذي يفعل كل مايشاء ، فيخلع اليوم ثوبه ، وغداً دينه وعقله ، ولا يستطيع أحد أن يقول له : دَعْ ! حرية راكب السفينة الذي يخرق مكانه ليدخل عليه الماء فيستنقع فيه ، يقول : هو مكاني أفعل به ما أشاء ، فمالكم ولمكاني ، يقول : هي امرأتي ألبسها ما أشاء فمالكم ولامرأتي ، هي ابنتي أجردها كما أشاء فمالكم ولابنتي ، « فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » ؛ لأن السفينة إن ملأها الماء لا يغرق من خرقها وحده وإنما يغرق الجميع ، والنار إن شبت في البيت لا تحرق من أضرمها وحده وإنما تحرق الجميع ، والفجور إن انتشر لا يهلك الفاجر وحده وإنما يهلك الجميع .

فيا أيها المصريون ، بل أيها المسلمون انتبهوا ، إنها النار شبّت في ستانلي باي ، وأقبلت تضر بها الرياح الأربع وتهيجها تحرق كل ما تمسه ، واندفعت مندلعاً لسانها تمتد شرقاً وغرباً وإلى الجنوب ، إنها النار ... النار وهاتيكم

المجـلات تنفخ فيهـا وتضرمها ، وتحمل إليهـا الوقود لحوماً بشرية وأعراضاً وأمجاداً ؟

* * *

يا قوم إن الله خلق الشهوة وأمر بكفّ شرّتها وكسر حدتها . وشرع لها طريقاً مرسوماً كيلا تطغى كما يطغى النهر إذا خرج عن سبيله ، وجاوز مجراه ، وهذا الطريق هو الزواج . وأقام لهـا الحواجز والسدود ، فخوف المرض سـدّ ، وخشية الله سـدّ ، وتجنّب الفضيحة سـدّ ، والهرب من الحدّ سدّ ، فعطلتم حدود الله فلا تقام على زانٍ ، ووضعتم قوانين تكاد تبيح ثلاثة أرباع الزنا ، ولا تعاقب إلاّ على الربع الباقي ، ومنعتم الفضيحة حين جعلتم هذا المنكر معروفاً ، وأعلنتموه وقد كان شراً مستتراً ، وجعلتموه تمدناً وقد كان وحشية وخزياً وعاراً ، وأنسيتم أولادكم خوف الله حين أقللتم من دروس الدين في المدارس ، ولم تدخلوها في الامتحانات العامة ، واستغنتم بالطبّ على تجنب المرض ، فأدخلتم الذئب على غنمكم ...

إن الشهوة ذئب كاسر فلا تطلقوه عليكم ، فلا تدرون ماذا يفعل ببناتكم وأولادكم . إنه يفسدهم ويفسدهن ، وما للعرض الذاهب من رجعة ، إن الشهوة إن أطيعت في الحرام بطل الزواج ، وهذا ما حلّ بنا أو كاد ، وإن بطل النكاح حق السفاح ، وإن حق السفاح صار البشر كالخنازير والعياذ بالله !

فمالكم كيف تحكمون ؟

* * *

إنكم تشكون تقصير الطلاب ، وخوَر العزائم ، وضياع الأمانة ، وسبب ذلك كله السفور[1] والاختلاط والحسور والتكشف ، وكيف ينصرف تلميذ إلى درس ، ويقبل معلم على علم ، وتاجر على تجارة ، وموظف على عمل إن شغلته

---

(١) اعني غير الشرعي منه

شهوته ، وسيّرته أعصابه ، وركبه إبليس وألجمه بلجام ؟

خبروني هل في الدنيا دين من الأديان أو خلق من الأخلاق يبيح هذا الذي في ستانلي باي وسيدي بشر ؟ فلماذا لا يُحارب المنكر ؟ لماذا لا يقوم عليه القائمون على الأخلاق ؟ لماذا لا ينفر منه الأدباء ؟ لماذا لا تحمل عليه جمعيات الهداية والشبان والإخوان والأنصار ، وخطباء الجمعة ؟ هل تريدون كلمة الحق : (وَقُلْ الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) ؟ إنكم منذ خالفتم فطرة الله فقلتم المرأة مثل الرجل سواء بسواء ، ونسيتم أنها لاتتم المساواة حتى تسنوا قانوناً يجبر الزوج ان يحبل سنة والمرأة سنة ، ويرضع شهراً وترضع شهراً ، ويحلق لحيته مرة وتركّب لها لحية مرة أخرى ... ومنذ عكستم حكمة الخالق فجعلتم المرأة قوامة على الرجل وجعلتم طاعتها تمدنا ورقيّاً وهي منذ خلقت تطيع الشيطان ، ومذ علمتموها ما لا ينفعها من العلوم وما لم تخلق له ... فتحتم الطريق التي تذهب إلى جهنم مارة بستانلي باي ! وطارت شرارة منها فاضرمت هذه النار ...

إنها النار ... وإني نذير لكم ! فهل تطفئونها قبل أن تستفحل ؟

يا كتاب مصر ! يا علماء مصر ! يا رجال مصر ! إنها النار ... وإنها لن تحرقكم وحدكم ، ولكن تحرقنا معكم لأنا اتخذنا مصر إماماً وائتممنا بها . إنا جعلناكم قادتنا وتبعناكم ، فالله الله أن تقودونا إلى الدمار والعار وإضاعة الذمار ... وأن نصلى في الدنيا ناراً وفي الآخرة (النار) !...

الأدباء الرسميّون

نشرت سنة ١٩٣٩

ما كان لي أن أعرض الى هذا الموضوع بعد ما تكلم فيه الاستاذان العقاد والزيات ، لولا أن في النفس منه اشياء ، وأن آراء العامة فيه يعمها الضلال البين ، ويعوزها التقويم ، وأن من الناس من يدعى الأدب ثم يزن أهله بميزان الحكومة ، فيضع قيمتهم الادبية في كفة ، ويضع في الكفة الاخرى درجتهم في (الوظيفة) ومبلغ ما يقبضون من مرتب . فالشاعر الذي يعلم في مدرسة ابتدائية ، لا يساوَى بالشاعر المدرس في الثانوية ؛ والاديب الذي يعمل في تفتيش اللغة العربية اكبر من الاديب الذي يشتغل بالتدريس . أما الشاعر الذي جعلته الوزارة أو أصارته الايام أول المفتشين ، فواجب وجوباً أن يكون شاعر الشرق كله ، او شاعر العرب على الاقل الادنى .. ويدللون على هذا المنطق السقيم بأن الحكومة لو لم تجده أعلم العلماء وأبرع الادباء ما أحلته هذه المنزلة ؛ فالطعن في تقدمه طعن في الحكومة ونفى لحسن التقدير عنها ... وامتد هذا الجهل الى الصحف ،فصارت تقدم من الادباء من قدمته الحكومة وتكتب في رأس المقالة كما يكتب صاحبها في ذنبها، مرتبته ودرجة الوظيفة الحكومية التي يقوم بها ، كأنها هي الشهادة له بتمكنه في الادب وعلو كعبه فيه ، وغدا

من المستحيل أن يقدم شاعر مجوّد محسن ولكنه مدرس عادي ، على شاعر مفتش أو رئيس ديوان ولو كان دونه إحساناً وتجويداً ، كأن شعر الوزير في الشعر كشخص الوزير في الناس ، يتقدمهم ويعلوهم ولا يوزنون به ولا يتقدمون عليه. ومشى هذا المنطق السقيم وهذا الجهل البيّن في الناس ، حتى صار هو القاعدة المقررة والاصل الثابت ، وصار غيره هو الفرع الذي يحتاج الى دليل ...

وما من أحد يدرك هذه العلة إدراك الاديب الموهوب الذي اضطرته الحاجة الى (الوظيفة) وأجبره الكدح للعيش على أن يفكر برؤوس رؤسائه الفارغة لا برأسه هو ، فلا يكتب الا ما يشتهون ، ولا يقول الا ما يريدون وعلى أن يضع أدبه وذكاءه ومواهبه بين يدي مفتش قد يكون جاهلاً أو يكون مخطئاً أو يكون لئيماً ينتقم لغباوته وجهله من الاذكياء العلماء . والمدرس على ذلك كله ملزم باتباع رأيه والصدور عن مشورته .. واذا كتب ينقده في صحيفة أو يسمّع به في مجلس ، قامت عليه القيامة ونفى الى أقصى الارض ، أو اخرج من الوظيفة إخراجاً ، ثم لا ينصره عليه أحد لان الناس قد استقر في افهامهم أن المفتش أعلم وأبرع من المدرس ، ولا سيما إن كان دكتوراً أو كان استاذاً في جامعة ، فإن مثله لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن شماله ، ولا من فوقه ولا من تحته ... والمدرس يركبه الخطأ من جهاته الست لا لشيء الا لان مرتبه أقل ، ووظيفته اصغر ... ثم إن عندك الموظفين الجاهلين المتزلفين الذين يتقربون الى المفتش الشاعر أو الرئيس الاديب بإذاعة فضله ، والثناء عليه ، ومنحه الالقاب جزافاً ، ويستمرون على ذلك ما استمر قاعداً على كرسيه لانهم عباد صاحب الكرسي ... فتؤثر هذه (الدعاية) - على بطلانها - في نفوس الاخلياء ، وينال هذا المفتش الشاعر شهرة ومنزلة لم تقم على أدبه وإنتاجه ، وإنما قامت على أرجل كرسيه الاربع

وألسنة اتباعه التي تشبه أرجل الكرسي ... وربما خدع التاريخ بهذه الشهرة ـ والتاريخ يخدع أحياناً ـ فانطمس الحق وعمت البلية ...

فما هو سبيل الخلاص من هؤلاء (الادباء الرسميين) الذين يستغلّون هذه الشهرة الزائفة وهذه المنزلة الكاذبة فيقيمون انفسهم أو تقيمهم الحكومة مقام الأئمة من اهل الادب ، فيرسمون للناشئين خططه ويضعون مناهجه ويملكون تحويله من وجهة الى وجهة ، ويستطيعون ان يؤثروا في مستقبل الادب بما أوتوا من السلطان ، وان المدارس في أيديهم ، وأموال الدولة تحت إمرتهم ، تأثيراً لا يقدر على بعضه الادباء غير الرسميين الذين لا يملكون إلا أقلامهم وعقولهم بل إن الادباء الرسميين قد يستطيعون والحكومة من ورائهم ان يسخروا بعض الصحف لغاياتهم ومقاصدهم . ولو كان هؤلاء (الادباء الرسميون) الذين تعتمدهم الحكومة وتثق بهم يُختارون دائماً من ذوي المنزلة الرفيعة في الادب وممن لهم فيه تمكن ورسوخ لهان الخطب ؛ ولكنهم قد يكونون على الضدّ مما قلت ؛ بل قد يسيّر الادب في وزارات المعارف من ليس بينه وبين الادب رحم ولا قرابة.. فإلى أين يسير الادب في حالة مثل هذه الحال؟ وكيف ندفع عن الادب ذلك المصير المحزن ؟

* * *

لقد اشار الاستاذ الزيات الى هذه المشكلة والى دوائها ؛ فرأى ان دواءها العدول عن (السياسة التقليدية التي اتخذتها الوزارة الى اليوم في نظام التأليف وطريقة التفتيش واختيار المدرس) وتطهير التعليم (من المفتش الذي يعاقب على نسيان الهمزة وذكر الغزل ، والمؤلف الذي يؤلف بسر الجاه ونباهة الاسم) . وأنا ازيد أنه لابد بعد ذلك من تصحيح مقاييس الناس وإفهامهم ان

قيمة الاديب بإنتاجه ومواهبه ، لا بوظيفتـه ومرتبـه ، وان الادب لا يقاس بهذه المقاييس الجامدة ، ولا بد من التفريق بين شخصية المفتش والوزير الرسمية وبين شخصيته الادبية ؛ فأنا أرعى للوزير حق مكانته ، وأعطيـــه كل ماينص القانون على أنه حق له من الطاعـة والاحترام . اما الوزير الاديب ، والمفتش الشاعر ، فإنهما عاطلان من هذه الحصانة ، معرضان للنقد ، استطيـع ان ادرس أدبهما وشعرهما كما ادرس أدب أي أديب وشعر أي شاعر ، واستطيـع ان احكم لهما أو عليهما ، ولا يدخل في حساب النقد وظيفة عالية ولا مرتب ضخم . واذا اقترح الوزير اقتراحاً في تعديل خطط التعليم ، أو رأى رأياً يتبعه أذى للأدب أو خوف على مستقبله ، فإنني استطيـع ان أناقشه وأرد عليـه . وبغير ذلك لا تنمو المواهب ولا تثمر ثمرها ، ولا يزدهر الادب ولا يعطي أكلـه . بقي أمر واحد وهو حماية هذا الموظف الاديب الذي ينقـد ويبحث ، ويقوم بحق الادب من غير أن يقعد عن حق الوظيفة ، حمايته من انتقـــام الرئيس وتشفي المفتش ، ولا يكون ذلك إلا بقانون ينظم علاقة الرئيس بالمرؤوس ويوضـح لكل منهما ماله (بالضبط) وما عليه ، أما اذا بقي أمر المدرس بيـــد المفتش والرئيس ، وترفيعه وتنزيله تابع لرأيهما و (تقريرهما) ، فلا حرية في البحث ، ولا ازدهار في الادب ، ولا استثمار للمواهب ، لان المدرس لا يستطيع ان يضحي بوظيفة وهي سبيل حياته ومورد رزقه من أجـــل بحث أو فصل أدبي فيسكت على مضض ، ويتوالى سكوته ، فتموت قريحته ، وتذهب ملكته ، ولا يبقى فيه بقية لإنتاج . وإذا ذكرنا ان وضعنا الاجتماعي الشاذ ساق اكثر الشباب طوعاً أو كرهاً الى وظائف الحكومة قدرنا مبلغ الخسارة الادبية التي يُمنى بها الادب ، ومبلغ الاذى الذي يصيبه به (الادباء الرسميون) الذين يعملون عمداً وبغير قصد على تقييد حرية الادباء ، وقتل المواهب ، وسد الطريق عـلى

الناشئين المتأدبين ...

هذا وإن الأديب لا ينتج ولا يعمل الا معتداً بنفسه واثقاً بها ، وهذه العزة وهذه الكبرياء الادبية هما عدة الاديب ، فإذا خسرهما لم يصلح بعدهما لشيء . ومن نظر في حياة الموظف الصغير نظر مدقق ناقد ، رأى أنه لا يستطيع أن يجمع بين إرضاء رؤسائه وبين الشعور بهذه العزة الادبية ، وما له من فقد إحداهما بد ، وهو يؤثر (على الغالب) أن يفقد عزته الادبية على ان يخسر وظيفته . وكم من موظف أديب نابغ معتد بنفسه ، رأى ألوان الإيذاء ، واتهم بالشذوذ والعناد ، وعاداه صحبه ورؤساؤه ، لأنه لم يبع كرامة نفسه وعزتها بهذا المرتب القليل ؛ وربما كان هذا الموظف المغضوب عليه ، المنسى المهمل ، من خير الموظفين علماً وكفاية وقياماً بعمله ، وحرصاً على الواجب عليه ... ولكنهم الرؤساء ، أولئكم (الأدباء الرسميون) ...

* * *

بين الزوجين

اذيعت سنة ١٩٤٨

يا سادتي ويا سيداتي . قعدت لأكتب هذا الحديث ، فما بدأت به حتى هبت العاصفة في بيت الجيران ، وعلت الاصوات ، وزمجر الرجل وصخب ، وولولت المرأة وعيّطت [١] ، وقام الشيطان يهيج للشر ويضحك ، ثم هدأت العاصفة فجأة كما هبت فجأة ، وأعقبها سكون ثقيل ، سمعت له دوياً في أذنيّ شغلني عن الكتابة ، فقمت انظر من شباكي الذي يكشف مكانهم ويبدي كلّ ما فيه [٢] انظر ماذا جرى . فإذا الزوج قاعد في ركن المنزل ينظر في جريدته عابساً ، ولا أظنه يفقه منها حرفاً ، والمرأة في الركن الآخر تطرز ولا أحسبها تلقي لتطريزها بالا ، وهو يندب حظه يحسب أنه وحده الخائب في زواجه ، وهي تبكي جدّها تحسب أنها وحدها التي فقدت سعادتها ، ورأيت الولد قد ملّ هذا السكون ... فمشى الى أبيه خائفاً يترقب ، فقال له :

ـ بابا . اعطني شكولاطة .

فصرخ به زاجراً : قل لأمك . أتريد أن أخدمكم في السوق وفي البيت ، وأن أعمل عمل الرجل والمرأة ؟!

---

(١) « عيط » في الشام صاح وفي العربية كذلك « تقريباً » وفي مصر بكى .

(٢) وهذه بلية من بلايا هذه المساكن الجديدة ...

فابتعد عنه الولد ، ونظر الى أمه ، فصاحت به من غير أن ترفع رأسها عن شغلها :

- ابتعد عني والا كسرت رأسك ، أنت اصل السبب ، يا ضيعة تعبي ، اشقى من الصباح الى المساء فلا أجد من يقول لي : الله يعطيك العافية !

فهمّ الرجل بالانفجار ، ثم تماسك وتجلد ، وسكت على غيظ ومضض ، ومشى الولد الى الأريكة فتكوّم عليها ، ودس وجهه في وسادتها ، وراح يبكي بكاء خافتاً متصلا موجعاً !

وعاد البيت ساكناً كما كان ، ومرت دقائق ، لمحت فيها على وجه المرأة ظلال نزاع عنيف في نفسها ، بين شفقتها على ولدها ، وغيظها من زوجها ، ثم رأيتها تثب فُجاءة ؟ فتمضي الى غرفتها فتنبطح على سريرها وتنشج ... ويرفع الرجل رأسه ، متعجباً منها ، ويضيق صبره على هذه المسرحيات (تمثل) في بيته وهو يريده بيتاً فيه الهدوء والمحبة ولا يفهم سر بكائها وهي - عنده - الظالمة ، فيمضي اليها بعد تردد ، حتى يقوم امام السرير منتصباً مربد الوجه ، كأنه القائد العسكري في جنده ، أو النائب العام في مقعده ، ويقول لها بصوت بارد كالثلج متماسك كالجلمد :

- وما آخرة هذه المساخر ؟

وكانت تظنه قد جاء يواسيها في كربتها ، ويعطف عليها ، ويحاول أن يفهم ألمها ، ويزيح همها ، فلما سمعت ذلك منه ، فقدت عقلها ، فصاحت :

- مساخر ؟ أنتم الرجال ليس عندكم وفاء ، ليس لكم قلوب ، إنكم ...

فنسى أنه امام امرأة ، وأنه امام زوجة ، وحسب أن الذي يقول له هذا الكلام قرن له أو خصم ، فأجابها جواب الأقران ، وكلمها كلام الخصوم ،

ولم يبق بينها وبين الطلاق إلا شعرة واحدة .

فذهبت اليهما فصحت بهما : بسّ ، انتظروا ، قولوا ما هي الحكاية ؟

فنظرا الىّ ، وحسباني (وأنا قريبهما) عفريتاً قد نبع من الأرض ففزعا منه ، ثم اطمأنا الىّ وعرفاني ، وانطلقا يتكلمان بصوت واحد كلاماً متواصلا متداخلا ، تتلاحق كلماته ، كأنه السيل انهدم سدّه فاندفع ، أو لسان النار غفلت عنه فاندلع ، وما فهمت الحكاية حتى كادت نفسي تزهق ...

و (الحكاية) التي سببت هذه النكبة ، وكادت تهدّ بيت الزوجية ، وتطلق الزوجة وتشرد الولد ، أنه جاء من عمله فوجد الصبي على الباب ، والباب مفتوحاً ، وليس عنده أحد يمنعه أن يمشي فيضل في الحارة ، أو تدعسه[1] سيارة أو تلفحه الشمس ، او يصيبه المرض ، وتخيل الف مصيبة قد حاقت بالصبي ونزلت به فاستحال حبه له حنقاً على أمه التي اهملته ، وتركته على شفا الهلاك ودخل مغضباً محنقاً ، وبدأها باللوم قبل السلام ، وكانت قد نظفت الدار وأعدت الطعام ، و (لبست ...) تنتظر وصوله ، لتسعد بقربه ، وتجد مكافأتها في شكره إياها ومسرته منها ، فلما رأته مخاصماً تبدد أملها ، وخاب ظنها ، وسيطر عليها الغضب ، حتى اعماها عن حادثة (الباب المفتوح) والخطر المرتقب ، فلم تر فيها الا حادثة تافهة ، لم ينشأ عنها شيء ولم يأت منها ضرر .

وبدأ من هنا الخلاف ، وتطاير الشرر .

ياسادتي ويا سيداتي : هذه صورة ترون كل يوم أمثالها ، فاسمحوا لي أن اجعل حديثي هذه العشية تعليقاً عليها ، وبياناً لها ، وليست صورة غريبة عنكم ولا نادرة ، بل الغريب النادر ان تخلو دار منها ؛ وأنا قاض شرعي عملي ان

---

(١) دعسته السيارة : وطئته ، أما قولهم دهسته فهو من الغلط .

أرى دائماً دخائل البيوت ، وان اطلع على أسرار الاسر ، فصدقوني إذا قلت لكم ، إني لا أعرف زوجين لا يختلفان ، ولكن خلاف الازواج كحريق في كومة من القش ملقاة في رحبة الدار ، إذا أطفأته او تركته ينطفىء همد بعد لحظة ، وحمل الريح رماده ، فلم يرزأك رزءاً ، ولم يعقبك أذى ، وإن هجته او أدنيت منه ثوبك ، او قربته من بيتك ، احرق الثوب وخرب البيت ، ولقد كان بيني وبين زوجتي اليوم خلاف كهذا ، فقلت لها :

ـ تعاليْ أعينيني على كتابة مقالة ؟

وكانت هذه المقالات ضرّتها ، فحسبتني اسخر منها ، واندفعت تريد أن (تقول) ... فما زلت بها أكلمها بجد ، حتى بدا عليها الاهتمام وقالت :

ـ وكيف أعينك ؟

قلت : تقولين لي كيف يختلف الازواج ؟

ومضينا نستعرض حوادث الاختلاف بيننا ونحلّل اسبابها فانتهينا الى الضحك منها .

يا سادة ويا سيدات : إنه قد يكون بين الزوجين اختلاف مفهوم على مال أو عقار ، ولكنه نادر واكثر الخلاف تافه مضحك ، ليس له الا عندهما قيمة او خطر ، وأنا افهم ان تهتم المرأة بهذا ، وما دامت تريد ان تشغل عقلها كما تشغل يدها ، وما دامت لا تجد مشكلة علمية او أدبية تبحث فيها وليس لها الا مشا كل البيت ـ ولكن ما بال الرجل يهتم بها ويبالغ في تقديرها ؟

تقولون : كيف نصنع ليسود البيت السلام ويشمله الهدوء ؟

أنا اقول لكم ، مقالة مجرب حكيم ، فاستفيدوا إن شئتم من حكمتي وتجربتي . هذه (اقراص) سهلة البلع ، عظيمة النفع ، فيها شفاؤكم من هذا الداء :

أولها : ان الزواج يبدأ بالحب والعاطفة ، والحب اوله حلاوة وآخره مرارة

فهو يعمي البصر ، ويصمّ الأذن ، ويغطي العيوب ، فإذا زال الغطاء ، ولا بد يوماً ان يزول الغطاء ،وبدا المحجوب من العيوب ، وظهر المستور من الامور وافتقد الزوجان لذة الحب فلم يجداها ، انتهى شهر العسل ، وبدأت سنوات العلقم ، فتجرعا العمر كله مرّها ، وقاسيا ضرّها . والدواء ألا يرقب الزوجان المحبة والعشق ، فالحب عمره كعمر الورد ، لا يعيش الا أمداً قصيراً ، ومن طلبه بعد عشر سنين من الزواج كان كمن يطلب من وسط القبر من العظام والرمم الغادة الحسناء والفاتنة الهيفاء . لا ، ولكن مودة وإخلاص وحب كحب الاصدقاء والإخوان .

وثانيها : ان الرجل يغتفر لصديقه ما لا يغتفر لزوجته ، ويحمل منه ما لا يحمل منها ، ويتسامح معه فيما لا يتسامح فيه معها ، وما ذلك الا لأنه يصدق هذه الخرافة التي تقول إن الرجل والمرأة كليهما مخلوق واحد ، فهو يريد منها أن تفكر برأسه ، وهي تريد منه ان يحس بقلبها ، مع ان الناس كخطوط مستطيلة وفيها اعوجاج يسير ، فإذا كانت متباعدة بدت للعين متوازية متوافقة تضيع من البعد هذه الفوارق الصغيرة بينها ، فإذا تدانت وتقاربت ، بانت الفجوات ، فأنت تصحب الصديق عشرين سنة ، فلا ترى بينك وبينه اختلافاً ثم ترافقه اسبوعاً في سفر ، تنام معه وتأكل وتشرب فترى في هذا الاسبوع مالم تره في السنين العشرين ، فتشنؤه وتبغضه وقد كنت تحبه وتؤثره

والله لم يخلق اثنين بطباع واحدة ، لا الصديقين ولا الزوجين ، فليكن الزوجان متباعدين قليلا ، حتى لا يظهر الاختلاف بينهما وليكن بينهما شيء من الكلفة والرسميات ... كما يكون في عهد الخطبة وأوائل الزواج ، ولتكتم عنه بعض ما في نفسها ، فإنه ما تكاشف اثنان الا اختلفا . وما زالت الكلفة الا زالت معها الألفة ، لأن المرء يتظرف ليظرف ، ويتلطف ليلطف ، ويساير الناس

ليحبه الناس ، فإن لم يفعل ثقل عليهم ، وأنا اعرف رجالا من اهل النكتة والظرف ، يحرص الناس عليهم في مجالسهم لخفة أرواحهم ، وحلاوة أحاديثهم إذا دخلوا بيوتهم كانوا أجهم الناس وجهاً ، وأيبسهم لساناً ، وأثقلهم نفساً وما ذاك الا لإسقاط الكلفة ، وإذهاب المجاملة .

وثالثها : ان الرجل يمشي في الطريق فلا يرى الا نساء في أحسن حالاتهن قد طلين وجوههن ، وجمّلن ثيابهن ، ثم يدخل داره ، فيرى زوجه على شرّ هيئة ، وأقبح صورة : مصفرة الوجه ، قذرة الثوب ، منغمسة في اوضار المطبخ أو غارقة في غبار الكنس ، فيظن أن نساء الطريق من طينة غير طينتها ، وان عندهن ما ليس عندها ، فيميل اليهن وينصرف عنها ، والدواء أن تكون المرأة عاقلة ، فلا تجعله يراها الا في الهيئة التي تخرج فيها من بيتها ، وتستقبل عليها ضيفها ، ولا تدعه يبصرها نائمة ولا يراها بغير زينة ، ولا يطلع عليها في مباذلها وأعمالها .

ورابعها : أنه لا بد لكل شركة أو جماعة من رئيس ،فإن كان في المركب رئيسان غرق المركب ولو كان في السماء والارض إلهان فسدت السماء والارض فلا بد من ترئيس أحد الزوجين والرجوع عند الاختلاف الى رأيه ، واعتراف الثاني برياسته وعلى الرئيس بعد أن يكون حاكما بعدل ورفق ، وعلى المرؤوس أن يكون طيّعاً بفهم واحترام .

وخامسها : أنه لا بد لدوام المودة من اغتنام الفرصة لإظهار العاطفة المكنونة بحديث حلو ، أو مفاجأة منه : هدية ولو صغرت ، وطرفة ولو قلّت ، واهتمام منها بصحته وراحة نفسه ومطعمه وملبسه وكتبه ، وان يصبر كل منهما على غضب الآخر وتعتبه .

يا سادة : إن مشاكل البيت هيّنة سخيفة ، ولكنها إن استفحلت نغّصت

العيش وسودت وجه الدنيا ، ولم ينفــع معها ملك ولا مال ، فلقد كان الامبراطور نابليون الثالث يجد من مكارهها مالم ينجه منه ملكه ، وكان الرئيس لنكولن يلقى من متاعبها مالم يخلصه منه سلطانه ، وإني لأستأذن السـيدات المستمعات بأن اختم هذا الحديث بكلمة لامرأة مثلهن هي (آن شرر) . قالت:

« إن بين كل عشر نساء تسعاً يحرصن على مضايقة الرجل ، وتنكيد عيشه ولهن الى ذلك وسائل لا تحصى ، وهن يعتقدن أنه لا عمل للرجل الا الثناء على جمالهن يومه كله ، وامتثال أوامرهن ، وإجابة رغباتهن ، وإذا رأينه مقبلا على قراءة او كتابة او عمل له ، اقتحمن عليه مكتبه ، ونفضن في وجهه من المنغصات ما يحيل عزلته سجناً ، وحياته جحيما » .

فيا سيداتي المستمعات : أرجو أن لا تكون فيكم واحدة من هؤلاء !

* * *

صديقي رمضان

نشرت سنة ١٩٣٩

صديق عزيز ، لقيته وأنا طفل في دمشق ، ثم افتقدته وأنا شاب أذرع الأرض وأضرب في بلاد الله ، ففرحت بلقائه وأحببته ، وألمت لفقده وازداد حنيني إليه ، فأين أنت يا صديقي رمضان ؟

كنت أرقب قدومه ، وأحسب له الأيام والليالي على مقدار ما يحسن طفل من الحساب ، فإذا جاء فرحت به وضحكت له روحي لأني كنت أرى الدنيا تضحك له وتفرح بقدومه .

كنت أبصره في المدرسة ، فالمدرسة في رمضان مسجد ، ودرسها تلاوة وذكر ، وأهلوها أحبة ، ما فيهم مدرّس يقسو على طلاب ، وطلاب يكرهون المدرس ، لأن رمضان وصل النفوس بالله فأشرق عليها من لدنه النور فذاقت حلاوة الإيمان ، ومن ذاق حلاوة الإيمان ، لم يعرف البغض ولا الشرّ ولا العُدوان .

كنت أراه في الاسواق ، فالأسواق تعرض بضاعة رمضان وتفيض عليها روح رمضان فتمحو الغش من نفوس أهلها محواً ويملؤها خوف الله ورجاؤه ، وتقف ألسنتهم عن الكذب لأنها جرت بذكر الله واستغفاره ، وهانت عليهم

الدنيا حين أرادوا الله والدار الآخرة ، فغدا الناس آمنين أن يغشهم تاجر ، أو يخدعهم في مال أو متاع ، ويمضي النهار كله على ذلك ، فإذا كان الأصيل ودنا الغروب تجلى رمضان على الاسواق بوجهه فهشت له وجوه الناس ، وهتف باسمه ألسنه الباعة ، فلا تسمع إلا أمثال قولهم : « الصايم في البيت بركة » – « الله وليك يا صايم » – « الله وليك ومحمد نبيك » ثم لا ترى إلا مسرعاً إلى داره حاملاً طبق « الفول المدمس[1] » أو « المسبحة » أو سلال الفاكهة أو قطع « الجرادق[2] » ، ثم لا تبصر إلا مراقباً المنارة في دمشق ذات الثمانين منارة ، أو منتظراً المدفع ، فإذا سمع صيحة المؤذن أو طلقة المدفع دخل داره ، والأطفال يجتمعون في كل رحبة في دمشق ليسمعوها فيصيحوا : أذن ... أذن ... أذن ... ثم يطيروا إلى منازلهم كالظباء النافرة .

وكنت أبصر رمضان يؤلف بين القلوب المتباينة ، ويجلو الأخوة الإسلامية رابطة (المسلم أخو المسلم) فتبدو في أكمل صورها فيتقابل الناس عند الغروب تقابل الأصدقاء على غير معرفة متقدمة فيتساءلون ويتحدثون ثم يتبادلون التمر والزبيب ويقدمون الفطور لمن أدركه المغرب على الطريق فلم يجد ما يفطر عليه ، تمرة أو حبة من زبيب ، هينة في ذاتها ، تافهة في ثمنها ، ولكنها تنشيء صداقة وتدل على عاطفة ، وتشير إلى معنى كبير .

وكنت أنظر إلى رمضان وقد سكّن الدنيا ساعة الإفطار وأراح اهلها من التكالب على الدنيا والازدحام على الشهوات ، وضم الرجل إلى أهله ، وجمع الأسرة على أحلى مائدة وأجمل مجلس وأنفع مدرسة . فواشوقاه إلى موائد

---

(١) الديماس في اللغة الحمام .

(٢) أطباق جافة رقيقة وكبيرة تصنع من مواد خاصة يرش عليها الدبس ، ولا تصنع الا في رمضان الواحدة جردقة وهي كلمة فصيحة .

رمضان وأنا الغريب المنفرد[1] في مطعم لا أجد فيه صائماً ولا أسمع فيه أذاناً ولا أرى فيه ظلّاً لرمضان .

فإذا انتهت ساعة الإفطار ، بدأ رمضان يظهر في جلاله وجماله وعظمته في المسجد الأموي أجل مساجد الأرض اليوم وأجملها وأعظمها ، وكنت أذهب إلى المسجد بعد المغرب وأنا طفل فأراه عامراً بالناس ممتلئاً بحلق العلم كما كان عامراً بهم ممتلئاً بها النهار بطوله ، فأجول فيه مع صديقي سعيد الأفغاني خلال الحلقات نستمع ما يقول المدرسون والوعاظ ، وأشهد ثرّياته وأضواءه وجماعاته ومن صنع الله لهذا المسجد أن صلاة الجماعة لا تنقطع فيه خمس دقائق من الظهر إلى العشاء الآخرة في أيام السنة كلها وقد بقى ذلك إلى اليوم على ضعف الدين في النفوس وفساد الزمان[2] .. وإن أنس لا أنس تلك الثريا الضخمة ولم يكن قد مدّ إليها الكهرباء ، فكانت توقد مصابيحها (وهي أكثر من ألف) بالزيت واحداً بعد واحد يشعلها الحسكيون[3] وهم يطيفون بها على سلاليم قصيرة من الخشب فيكون لذلك المشهد أثر في النفس واضح ، ثم يكون العشاء وتقوم من بعده التراويح ولها في الأموي منظر ما رأيت أجلّ منه ولا أعظم إلا صلاة المغرب حول الكعبة في مسجـد الله الحرام فإن ذلك يفوق الوصف ، ولا يعرف قدره إلا بالعيان . وليس يقلّ من يصـلي التراويح في الأموي عن خمسة آلاف أصلًا ، وقد يبلغون في الليـالي الأواخر الخمسة عشر والعشرين

---

(١) كتبت هذه المقالة وانا موظف في كركوك « في شمالي العراق » .

(٢) على ان تكرار الجماعة في مثل الاموي مما كرهته الشريعة .

(٣) الحسكي خادم الاموي ، كلمة شامية ولعل أصلها من الحسكة ، ومعناها بلغـة المغرب الشمعدان وزخرفة المساجد واتخاذ امثال هذه الثريا من البدع .

ألفاً[١] ، وهو عدد يكاد يشكّ فيه من لم يكن عارفاً بحقيقته ولكنه الواقع ، يعرف ذلك الدماشقة ومن رأى الأموي من غيرهم . وحدّث عن الليالي الأواخر (في دمشق) ولا حرج ، وبالغ ولا تخش كذباً ، فإن الحقيقة توشك أن تسبقك مبالغة ، تلك هي ليالي الوداع يجلس فيها الناس صفوفاً حول السدّة بعد التراويح ، ويقوم المؤذنون والمنشدون فينشدون الأشعار في وداع رمضان بأشجى نغمة وأحزنها ثم يردّد الناس كلهم : يا شهرنا ودعتنا عليك السلام ! يا شهرنا هذا عليك السلام ويتزلزل المسجد من البكاء حزناً على رمضان[٢] .

* * *

وسَحَر رمضان ! إنه السِّحر الحلال . إنه جنة النفس ونعيمها في هذه الدنيا ، وإني لأقنع من جنات الفردوس أن تكون مثل سَحر رمضان ، فأين ذهب رمضان ؟ وأنّى لي بأن تعود أيامي التي وصفت لأعود إليه ؟

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد اولئك الأيام

إني لا أشتهي شيئاً إلا أن أعود طفلاً صغيراً لأستمتع بجوّ المسجد في رمضان وأنشق هواءه وأتذوق نعيمه . لم أعد أجد هذا النعيم ، وما تغيَّرت أنا أفتغيرت الدنيا ؟

إني لأتلفت أفتش في غربتي عن رمضان فلا ألقاه لا في المسجد ولا في السوق ولا في المدرسة ، فهل مات رمضان ؟

---

(١) هذا ما كان عند نشر هذا الفصل من عشرين سنة ، فيا أسفى كم تبدلت الحال من عشرين سنة الى الآن !

(٢) وذلك كله من البدع .

إذن فإنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد فقدت أنس قلبي يوم فقدت أمّي ، وأضعت راحة روحي يوم افتقدت رمضان ، فعلى قلبي وأمي ورمضان وروحي رحمة الله وسلامه !



النشيد السوري

نشرت سنة ١٩٤٦

ناظم هذا النشيد أديب كبير ، وصديق كريم ، وهو يعلم ان ليس له عندي الا الاجلال والتوقير ، وأن الشاعر « وإن نبغ » يسبق تارة ويقصر ، وإن النقد « وإن قسا » لا يصدر عن حقد ، ولا يرمي الى تحقير ، وإن مصلحة الوطن بإصلاح نشيده تسوغ مفاجأة الصديق الكبير بنقد هذا النشيد .

كانت نشأتنا الاولى في عهد العثمانيين ، وكانت لهم أناشيد يلقونها علينا باللسان التركي ، اذ لم نكن نفهم معانيها الضخمة الا بالترجمة ، والترجمة لا تحمل دائماً المعنى كله ، فلقد كانت تهزنا ألحانها القوية المثيرة التي وضعت لتكون لمشاة الجيش قوة وعوناً . وكنا اذا أنشدناها سائرين لا نستطيع ان نقف ، واذا تلوناها واقفين سرنا ، وإن قرأناها قاعدين حركنا ، من غير قصد منا ، أيدينا وأرجلنا ـ وإنها لتحرك الحجر ! ثم جاء عهد فيصل ، وكان عهد ازدهار وحياة ونشاط بدا في كل شيء ، فنشطت فيه الاناشيد العربية من عقالها . فترجمت اكثر الاناشيد التركية . فكان منها نشيد :

أنا أمي لم تلدني إلا للحرب العوان

بنغمته القوية ، ولحنه العاصف – وكان أسير أناشيد ذلك الزمان وأشهرها نشيد : (أيها المولى العظيم) ، الذي اعتبر النشيد الوطني السوري بل العربي ، على هلهلة أسلوبه ، وضعف معانيه ، يليه في الشهرة والذيوع نشيد :

أنت سوريا بلادي أنت عنوان الفخامه

كل من يأتيك يوماً طامعاً يلقى حمامه

لفخري بك البارودي ، وهو نشيد ضعيف النسج ، متهافت البناء ، لكن معانيه في الذروة ، واشتهرت أناشيد أخرى منها نشيد : (سيروا للمجد طراً سيروا للحرب ، واستعيدوا بالمواضي دولة العرب) ؛ ونشيد طلاب المدرسة الحربية : (نحن جند الله شبان البلاد) ، وهو من خيرها لفظاً ومعنى ، وقد جمعها (الفلاح العربي) في رسالتيه المعروفتين في تلك الأيام .

ثم لما قضى الله قضاءه فينا في (ميسلون) ، ووقعت الواقعة ، ودخل العدو ديارنا ، منعت هذه الاناشيد كلها ، إلا أن تردد همساً ، واشتهر يومئذ نشيد الاستاذ أديب التقى رحمه الله : (في كل صوب حشدت عساكر مدججون) ، الذي يصور فيه موقعة ميسلون ، فكان ينشد وراء الأبواب ، وحيث لا يسمعه الغاصبون ، وهو نشيد جيّد ، لحنه حزين مؤثر .

وانقطع بعد ذلك سيل الأناشيد الوطنية ، حتى قدم علينا من العراق الكشافون في العهد الوطني الأول (سنة ١٩٣٦) ، فأخذنا منهم نشيدين اشتهرا فينا وسارا بيننا ، حتى كان الطفل الذي لم يتعلم بعد الكلام يدير في حلقه كلمات منهما ، وهما (هذا الوطن حق له أن يفتدى بالدما والمهج) و (نحن كشاف العراق) ، والشعر فيهما ليس بذاك ، واللحن فظيع هو أشبه بصراخ

لا دلالة له ، منه باللحن الذي يؤثر في الاعصاب ويحرك القلب ، ولكنهما مع ذلك نشيدان قويان .

ووضعت على أثر ذلك أناشيد جيدة منها (نحن الشباب لنا الغد) ، ولكن يعيب لحنه هذه الصيحة المؤنثة في آخر البيت ، عند تكرار (نحن الشباب) ، فهي صيحة عجوز ثاكل كان لها الأمس ، لا صيحة شباب لهم الغد ، والنشيد العظيم حقاً في نظمه ولحنه ، ولفظه ومعناه ، نشيد : (موطني) لفقيد الشعر ابراهيم طوقان ـ رحمه الله ـ ومن أجودها لحناً نشيد الأستاذ حسني كنعان : (أيها الكشاف بادر وارتق أوج العلا) ؛ ولحنه نموذج للألحان الحماسية ـ نسجل هذا للتاريخ !

وصحت النية على وضع نشيد للجمهورية السورية ، وكانت مسابقة ، ولجنة ، وجائزة ، ثم عدل عن ذلك واختير النشيد الذي قدمه هذا الأديب الكبير ، فلما قرأناه علمنا أنه لوحظ باختياره اسم الشاعر ومنزلته ، وأنه لها لا لبراعة الشعر فرض علينا هذا النشيد ، واحتملناه سنين ، غير أنه لا يصح أن نحتمله الآن ، وقد تم استقلالنا ، أو هو قد أشرف على التمام ، واستقبلنا عهداً من حياتنا جديداً ، ولا بد من بيان عيب هذا النشيد لنستبدل به :

* * *

الأصل في النشيد الوطني أن يكون على لسان المتكلم ، لأن الأمة هي التي تردده وتنطق به ، وهذا النشيد موجه إلى حماة الديار ، مطلعه :

حماة الديار عليكم سلام
أبت أن تذل النفوس الكرام

فمن الذي يقول هذا الكلام ، ومن المخاطب به ؟ إن كان ينطق به الشباب وهم حماة الديار ، لم يعقل أن ينادوا أنفسهم ، ويسلموا عليها ، وليس هذا من

(التجريد) الذي كان يألفه شعراء العرب ؛ وإن كان يقوله غير الشعب لم يكن مقبولا لأن النشيد يوضع ليقوله الشعب ويترجم به عن آماله ومطامحه .

وهذا السلام أليس اشبه بلهجة أروام الأسكندرية وأرناؤوط الشام ، منه باسلوب الشعراء الابيناء[1] ؟

ثم يقول بعد هذا :

عـرين العروبة بيت حـرام
وعرش الشموس حمى لا يضـام

فلا يعرف السامع ما عرين العروبة هذا ، أهو الجزيرة أم مصر أم الشام أم العراق ؟ ولا يعرف المسلم (بيتاً حراماً) إنما يعرف البيت الحرام ، لا ثاني له ، فهذا التنكير أولا ، وابتذال اسم البيت الحرام في كل مكان ثانياً ، كلاهما قبيح . وما هو هذا العرش ، والنشيد نشيد جمهورية ؟ أفنظمه ليكون النشيد الرسمي لبني أميّة ، وأي شموس هذه ؟ وما هذا الابهـام حيث لا يحسن إلا التصريح والتوضيح ؟ يأتي بعد ذلك هذا المقطع العجيب :

ربوع الشـآم بروج العـلاء
تحاكي السماء بعـالي السناء
وأرض زهت بالشموس الوضاء
سمـاء لعمرك أو كالسماء

أما (بروج العلاء) هذه فتصح في كل أرض يريد أن يبالغ في مدحهـا القائل ، ولا تدل على ميزة للشام ولا تصفها بصفة فيها ولا تعرّف بها الغريب عنها ، ولا تحببها إلى أبنائها ، فهي كمراثي الأستاذ علي الجارم الـتي تصلح لغازي وللاسكندر المكدوني وللشيخ المراغي ، لأنها تهد الجبال وتبكي السماء ، وتقيم القيامة ، أو ترسل على الدنيا قنبلة ذرية ، لا بحجم البيضة ، بل بحجم الفيل ، ثم

---

(١) الابيناء جمع بين

لا تذكر المرثيّ بشيء مما كان عليه . وهذا استطراد نعتذر إلى الشاعر الكبير علي الجارم بك منه ، فقد جرته المناسبة .

وما دامت الشام بروج العلاء ، وكان ذلك قد تقرر لدى السامع فما معنى كونها تحاكي السماء ، وبروج العلاء هي السماء في أفهام الناس كلهم ، وهل السماء أسنى سنا من البروج ؟ المسألة تحتاج إلى خبير فلكي .

ثم إن الضياء هو السنا بالقصر ، أما السناء بالمد فهو الارتفاع ، ومن هنا أطلق على المجد مجازاً ، فصار معنى قوله (بعالي السناء) برفيع الارتفاع ، وهو الحشو نفسه وهو إذا قبل في القصيدة لا يقبل في النشيد ، لأن النشيد كلمات معدودة وألفاظ محدودة ، لا يجوز أن يذهب لفظ واحد منها من غير أن يدل على شيء .

وهو بعد أن جعلها بروج العلاء التي تحاكي السماء ، عاد فهبط بها فجعلها (أرضاً زهت) ولكن بالشموس الوضاء ! وما فهمت إلى اليوم ما يريد بهذه الشموس التي يرددها ولا يشبع من ذكرها ، إن كان يريد الحقيقة فهي شمس واحدة ما خلق الله سواها ؛ وإن كان يقصد المجاز ؛ فليذكر ما يدل عليه ويصرف الفكر إليه ، وما كل سامع للنشيد أو تالٍ يستطيع أن يجد له التأويل ، هذا إذا كان لهذا الكلام العجيب تخريج أو تأويل .

وأعجب العجب ، وأقبح القبح ، أن يعود بعد كل ما مر ، فيجعلها سماء ثم ينزل بها فيجعلها كالسماء ، وهذا ضدّ ما عليه البلغاء في كل عصر ، وفي كل أمة ، ولا أحسب ذوقاً في الدنيا يسيغه ، عدا عن هذا الحشو في كلمة (لعمرك) وعمر من هذا الذي يحلف به ؟ ولمن هذا الخطاب ؟ والمفروض في النشيد كما بينت أن ينطق به الشعب كله ؟!

وما هو مغزى هذا كله ، وما دلالته ، وأي مجد للشام يذكر ، وأي

عاطفة تثير ؟ لا شيء ، إلا هذه المناقشة المزعجة في الشام : هل هي بروج العلاء تشابه السماء برفيع الارتفاع ؟ أم هي أرض ولكن زهت بالشموس ؟ أم هي سماء (وحياة عمرك ...) أم هي كالسماء ؟ هذه هي المشكلة الوطنية الكبرى ، ملأ النشيد بذكرها ، وهذه هي آمال الوطن ومطامحه ، والله المستعان !

* * *

وباقي النشيد لا يختلف كثيراً عما ذكرت منه ، على حين أن النشيد يجب أن يكون موضوعاً على لسان الشعب ، وأن يكون قويّ العبارة ، خالياً من الحشو ، واضحاً كل الوضوح ، صالحاً لكل زمان ، معبراً عن آمال الشعب وآلامه ومطامحه ، مثيراً نخوته وحماسته ، مشيراً إلى ماضيه ، وجمال أرضه ودياره ، إلى غير ذلك مما يوصل إلى الغاية من وضع النشيد ، وهي إثارة العزة الوطنية في النفوس ، وأن يختار له النغم القويّ من غير خشونة ، العاطفي بلا ضعف . وحياة النشيد بلحنه وما يهز هذا اللحن من أوتار القلوب ، ويحرك من أعصاب السامعين ، فإذا كان لنا نشيد يشتمل على هذا كله ... وإلا فلا تقولوا : لنا نشيد !!

* * *

فهرس

تصويب الأخطاء

ص	س	الخطأ	الصواب
٣٩	٦	وكبريائها	وكبرياءها
٥٢	١٥	موثوق	موثوقاً
٧٣	٤	يتوضآن	يتوضئان
٧٣	١٨	ويولي	ويولى
٧٨	٥	وينشؤوا	وينشئوا
٨٤	٨	وبالعمل الخلق	وبالعمل وبالخلق
٩٠	٧	التعذيب	للتعذيب
٩٠	٧	القاعد عليه	القاعد عليها
١٠٦	١٠	بعد النجوم	بعدّ النجوم
١١٨	١١	يوماً	يوماً تمامه
١٢٦	١٥	واستبدلوها بعزة	واستبدلوا بها عزّة
١٤٦	٣	ويحبوننا	يحبوننا
١٤٨	الاخير	العربي	غير العربي
١٥١	١٦	أن هذا	هذا
١٩١	٣	فتجيني	فتجيئني
١٦١	٦	ورائه	من ورائه
١٦١	١٠	واشتاق	اشتاق
١٦٢	١	كبيرة	كثيرة
١٧٢	١١	الرياضية	بالرياضة
١٧٣	١١	يقرأون	يقرؤون
١٧٦	١	ولا منتصفاً ولا	ومنتصفاً لا
١٧٨	١٧	تستفيدون	تستفدن
١٨٠	١١	اردتها	أدرتها
١٩٠	٩	المجتمع	المجمع

من آثار المؤلف

١ - رسائل الاصلاح	١٣٤٨ هـ (نفدت)
٢ - بشار بن برد	١٣٤٨ هـ (نفد)
٣ - رسائل سيف الاسلام	١٣٤٩ هـ (نفدت)
٤ - الهيثميات	١٣٤٩ هـ (نفدت)
٥ - في التحليل الأدبي	١٣٥٣ هـ (نفد)
٦ - أبو بكر الصديق	الطبعة الاولى ١٣٥١ هـ (نفدت)
« « «	الطبعة الثانية ١٣٥٣ هـ
٧ - عمر بن الخطاب (جزءان)	١٣٥٢ هـ (نفد)
٨ - كتاب المحفوظات	١٣٥٥ هـ (نفد)
٩ - في بلاد العرب	١٩٣٩ م (نفد)
١٠ - من التاريخ الاسلامي	١٩٣٩ م (نفد)
١١ - كلمات	١٩٥٢ م (نفد)

وله سلسلة كتب جديدة تشتمل على ثلاثة عشر كتاباً

صدر منها :

١ - قصص من التاريخ ١٩٥٧

٢ - رجال من التاريخ ١٩٥٨

٣ - صور وخواطر ١٩٥٨

٤ - قصص من الحياة ١٩٥٩

٥ - هذا الكتاب

والباقي معدّ للطبع ينتظر الناشر

دار الفكر الاسلامي

للطباعة والتوزيع والنشر

مؤسسة ثقافية تعمل على نشر نفائس الكتب والمؤلفات الإسلامية القديمة والحديثة .

دمشق – هاتف ١١٠٤١ – ص.ب ٩٦٢

تتولى اصدار سلسلة :

ذخائر الفكر الاسلامي

تاليف

ابو الأعلى المودودي

صدر منها حديثاً :

٩ ـ نظام الحياة في الاسلام : عرض شامل لفكرة الاسلام عن الكون والانسان والحياة وشرح موجز لرأيه في نواحي الحياة المختلفة.

١٠ ـ الربا : يعالج الربا (المعضلة الاقتصادية الكبرى في العصر الحديث) ويرسم صورة نظام اقتصادي إسلامي لا يعترف بالفائدة الربوية ويكفل حاجات مجتمع معاصر

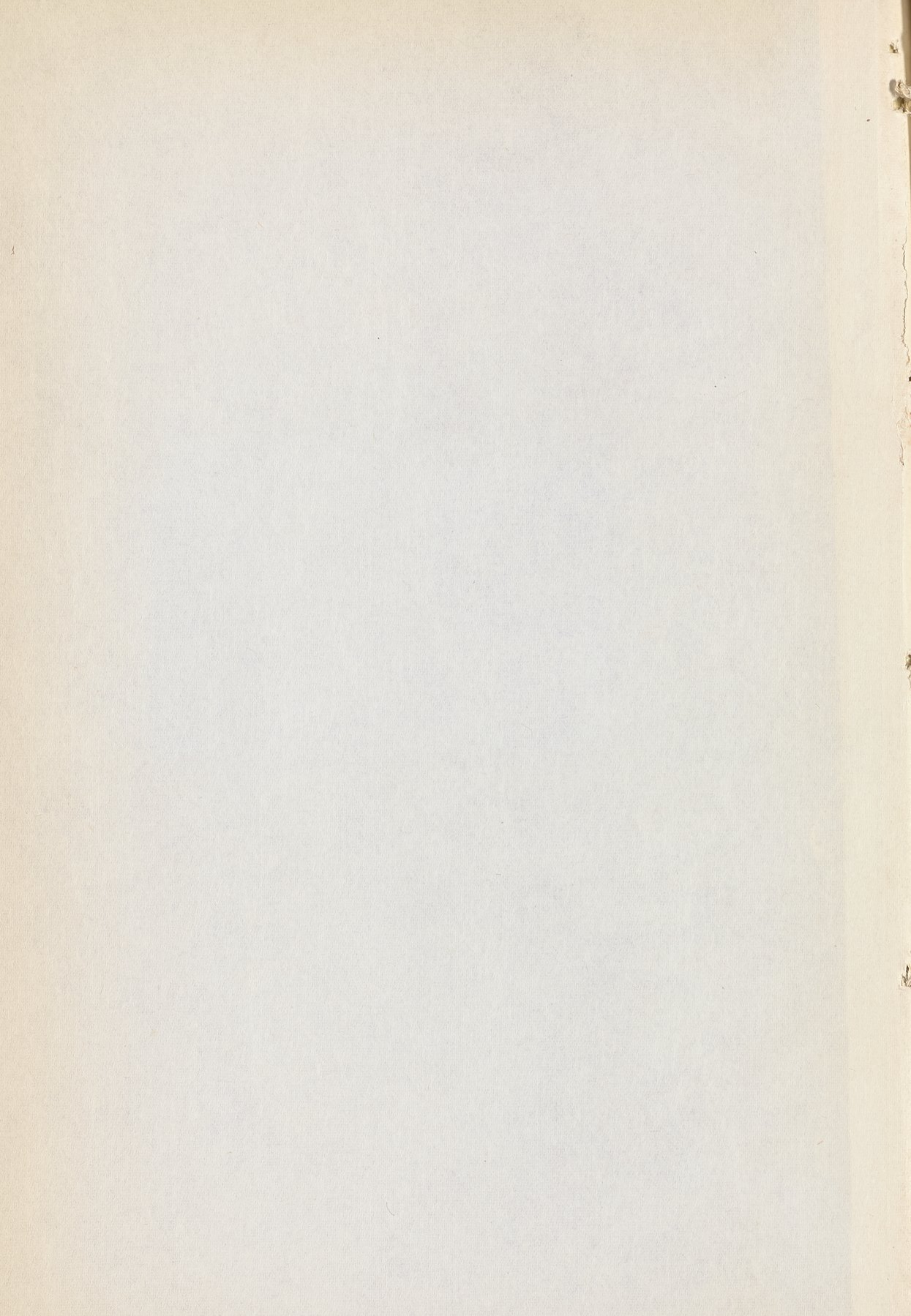
وسيصدر قريباً :

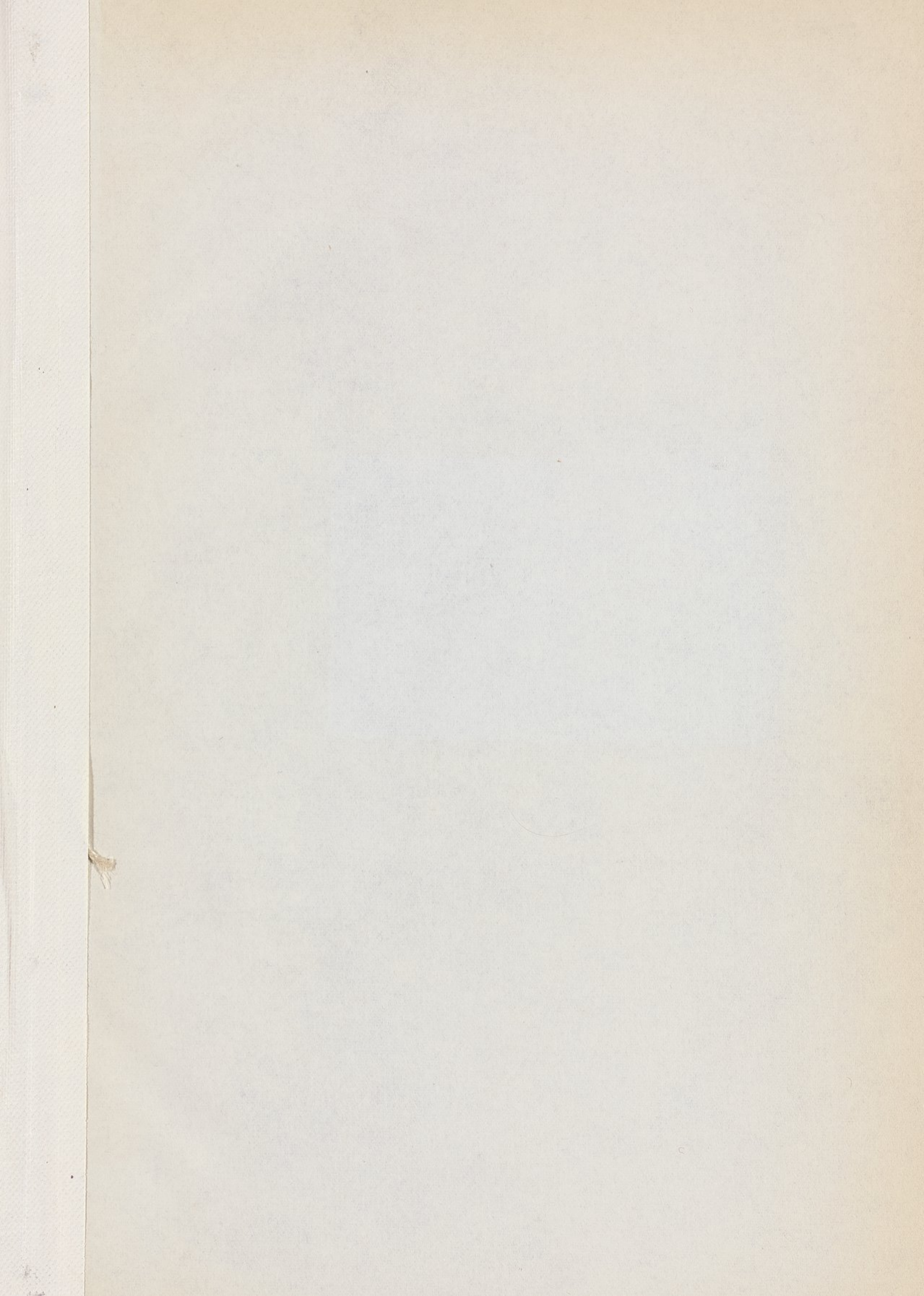
١١ ـ الحجاب : يشرح هدي الاسلام ونظامه لما بين الرجل والمرأة من العلاقة في الحياة الاجتماعية ويفند ما راج بين المسلمين في هذا العصر من الموبقات الاجتماعية محاكاة منهم لحضارة الغرب ومدنيته الزائفة .

١٢ ـ تفسير سورة النور : يتضمن المزيد من التوضيح لأحكام الشريعة الإسلامية في باب الحياة الاجتماعية .

كما أصدرت أيضاً :

الرق بيننا وبين أمريكا	للاستاذ علي شحاته
الأسرة بين الجاهلية والإسلام وأوضاعها الراهنة	« بشير العوا
مصور الدول العربية المتحدة مع دليل سياحي	« حسن عمار







دار الفكر الاسلامي

دمشق - شارع خالد بن الوليد

هاتف : ١١٠٤١

ص.ب : ٩٦٢

٢٥٠ ق.س أو مايعادلها

بغداد : مكتبة المثنى